فكر غرامشي

مختارات

٢

جمعها : كارلو سالنياري
ماريو سبينيلا

تعريب : تحسين الشيخ علي

دار الفارابي - بيروت

فكر غرامشي

٢

فكر غرامشي

مختارات

٢

جمعها : كارلو سالنياري
ماريو سبينيلا
تعريب : تحسين الشيخ علي

دار الفارابي - بيروت

جميع الحقوق محفوظة / ١٩٧٨

دار الفارابي — بيروت
ص.ب ٣١٨١
تلفون ٣١٧٢٠٥

ضد التشاؤم (*)

ليست هنالك طريقة للاحتفال بالذكرى الخامسة لتأسيس الاممية الشيوعية ، تأسيس الجمعية العالمية الكبرى التي نشعر ، نحن الثوريون الايطاليون ، اكثر من اي وقت مضى ، بأننا جزء ناشط ومتكامل منها ، أفضل من اجراء مراجعة للضمير ، ودراسة القليل الذي فعلنا،والعمل الكثير جدا الذي ما زال علينا أن نفعله ، بحيث نساهم في توضيح أوضاعنا ، ونساهم بشكل أخص في تبديد هذه الغيمة الدكناء والخطيرة من التشاؤم الذي يطبق على افضل الرفاق المسؤولين ، ويمثل خطرا داهما ، بل قد يكون هو الخطر الاكبر القائم في هذه اللحظة الحالية ، لما يترتب عليه من نتائج تبرز في السلبية السياسية وفي الكسل الذهني وفي الشك بالمستقبل .

---

* مقال نشر في صحيفة « النظام الجديد » بتاريخ ١٥ آذار (مارس) ١٩٢٤ . ويمثل هذا المقال نقطة الاستناد الاساسية في التحضير لكونفرنس الحزب في ايار (مايو) ١٩٢٤ .

ويرتبط هذا التشاؤم ارتباطا وثيقا بالحالة العامة في بلادنا. هذه الحالة العامة تفسر التشاؤم ولكنها لاتبرره طبعا. أي فارق هنالك بيننا والحزب الاشتراكي ، بين ارادتنا وتقليد الحزب الاشتراكي ، اذا كنا نحن أيضا لا نعرف أن نعمل وأن نكون متفائلين ايجابا الا عندما تكون البقرات سمينة ، وعندما تكون الحالة ملائمة لنا ، عندما تتحرك جماهير الشغيلة بعفوية نتيجة اندفاع لا تمكن مقاومته ، بحيث تستطيع الاحزاب البروليتارية أن تقعد مرتاحة في موقعها الرائع كالذبابة التي تقود العربة ؟ أي فارق هنالك بيننا والحزب الاشتراكي اذا كنا نحن أيضا ، انطلاقا من اعتبارات مختلفة ووجهات نظر مختلفة ومن احساس أكبر بالمسؤولية ، ومع اثبات هذا الشعور بالمسؤولية من خلال القلق الفعلي لتقديم القوى التنظيمية والمادية اللازمة لصد أي احتمال ، سنستسلم للقدرية ونعيش الحلم اللذيذ بأن الاحداث لا يمكن أن تجري الا حسب خط محدد للتطور ، هو الخط الذي توقعناه ، وهو الخط الذي يضم شبكة من السدود والاقنية وضعناها نحن حتى تسير هذه الاحداث وتأخذ الشكل والقوة التاريخية التي نريد ؟ هذه هي عقدة المشكلة التي تبدو مغلفة بشكل مبهم عويص ، لان السلبية تبدو في الظاهر عملا مكثفا لانه يبدو وكأن هنالك خطا للنمو ، وأن هنالك خطا يعرق العمال وينهكون في حفره باستحقاق وجدارة .

لقد أسست الاممية الشيوعية يوم ٥ آذار (مارس) ١٩١٩ ، ولكن تشكلها الايديولوجي والعضوي لم يتم الا بعد المؤتمر الثاني ، في تموز — آب (يوليو — اغسطس) ١٩٢٠ . بالموافقة على النظام التأسيسي (الدستور) والشروط الاحدى والعشرين . ومن المؤتمر الثاني تبدأ في ايطاليا الحملة لاصلاح الحزب الاشتراكي ، وتبدأ هذه

الحملة على مستوى كل البلاد، لانها كانت قد بدأت فعلا في آذار (مارس) السابق منطلقة من فرع تورينو بالقرار الذي قرر الفرع تقديمه الى المؤتمر الوطني المحترم للحزب الذي كان سيعقد في تورينو ، ولكن دون تحقيق نتائج ملحوظة (في كونفرنس فلورنس للشق الاستنكافي ، الذي عقد في تموز — يوليو ١٩٢٠ ، قبل المؤتمر الثاني ، كان قد سقط الاقتراح الذي قدمه مندوب « النظام الجديد » بتوسيع قاعدة الشق ، وجعله يصبح شيوعيا ، بدون الاحكام المسبقة الاستنكافية التي كانت ، عمليا ، قد فقدت الجزء الاكبر من سبب وجودها) .وربط مؤتمر ليفورنو ،والانشقاق الذي حصل في مؤتمر ليفورنو ، بالمؤتمر الثاني (للاممية) ، وبشروطه الاحدى والعشرين التي قدمت كخاتمة ضرورية للقرارات « الشكلية » للمؤتمر الثاني . وكان هذا خطأ ، ويمكننا اليوم أن نقيم كل اتساع النتائج التي نجمت عنه . في الواقع ، ان قرارات المؤتمر الثاني كانت هي الترجمة الحية للوضع الايطالي ، كما لكل الوضع العالمي ، ولكننا — لعدة أسباب — لم نتحرك في عملنا انطلاقا مما كان يحدث في ايطاليا ، ولا من الاحداث الايطالية التي كانت تعطي كل الحق للمؤتمر الثاني ، وهي الاحداث التي كانت تشكل الجزء الاكبر ، والاهم ، من الجوهر السياسي الذي كان يمنح الروح للنقاشات والاجراءات التنظيمية المقررة في المؤتمر الثاني . ولكننا ، نحن ، اقتصرنا على الاصرار على المسائل الشكلية ، وعلى المنطق البحت ، والانسجام البحت، وهزمنا لان الاكثرية البروليتارية المنتظمة سياسيا اعتقدت اننا على خطأ ولم تنحاز الى جانبنا ، رغم اننا كنا نملك معنا سلطة وهيبة الاممية اللتين كانتا كبيرتين جدا ، واللتين كنا نعتمد عليهما . لم نكن نعرف كيف نقوم بحملة منظمة بحيث يصبح بامكاننا الوصول الى استثارة وتحريض ، مراجعة

النفس لدى كافة الانديـــة والعناصر المشكلـــة للحـــزب الاشتراكي ، لم نعرف أن نترجم معنى كل مـــن الاحداث الايطالية لسنتي ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ الى لغة مفهومة لدى كل عامل وكل فلاح ايطالي ، لم نعرف ، بعد مؤتمـــر ليفورنو ، كيف نطرح مشكلة لماذا وصل المؤتمر الى هذه النتيجة ،ولم نعرف ان نطرح المشكلة بشكل عملي بحيث يمكن العثور على الحل ، وبحيث نستمر في رسالتنا المحددة التي كانتتتلخص في كسب أكثرية البروليتاريا . ويجب القول أن الاحـــداث كانت تكتسحنا ، كنا ــ دون أن نريد ــ مظهرا من مظاهر تحلل المجتمع الايطالي الذي أصبح أشبه ببوتقـــة ملتهبـــة تنصهر فيها كل التقاليد وكل التشكلات التاريخية وكـــل الافكار السائدة دون أن تخلف وراءها أية بقايا أو آثـــار . وكان لنا عزاء وحيد تمسكنا به بقوة ، وهو أن ما من أحد كان سينقذ ، وانه كان باستطاعتنا التأكيد أننا توقعنا وقوع الكارثة بدقة حسابية بينما كان الآخرون يهدهدون أنفسهم في أكثر الخيالات سعادة وغباء . ودخلنا بعد انشقـــاق ليفورنو في حالة من الغرق في الضرورات . هـــذا هـــو التبرير الوحيد الذي نستطيع أن نقدمه لمواقفنا ، ولنشاطنا بعد انشقاق ليفورنو : الضرورة التي كانت تطرح نفسهـــا بحدة ، وبشكل يائس ، في مشكلة الحياة او الموت . وكان علينا أن ننظم أنفسنا في حزب داخل اطار نيران الحـــرب الاهلية ، وأن نبني فروعنا مجبولة بدم رفاقنا الاكثر اخلاصا وتفانيا . وكان علينا أن نحول مجموعاتنا ، منذ لحظـــــة تشكيلها ، ومنذ ساعة تطوعها ، الى فرق عسكرية لحرب العصابات ، أشرس وأصعب حـــرب عصابات اضطـــرت الطبقة العمالية الى دخولها حتى الآن . ومع ذلك فقـــد نجحنا ، فتأسس الحزب ، وتأسس بقوة ، انه كتيبةفولاذية لا شك في أنها ما زالت أصغر من أن تدخل الصراع ضـــد

القوى المعادية ، ولكنها كافية لتصبح الهيكل الانشائي لتشكيل أوسع ، ولتصبح جيشنا يمكنه أن يتبع هزيمة كابوريتو بانتصار بيافي ، هذا اذا اردنا استخدام اللغة التاريخية الايطالية .

وهذه هي المشكلة التي تطرح الان بالحاح : تأسيس جيش كبير من أجل المعارك المقبلة ، وتأسيسه بتأطير كل القوى التي أظهرت ، منذ ليفورنو وحتى اليوم ، أنها تعرف كيف تقاوم ، بلا تردد ولا تراجع ، الهجوم الفاشي العنيف. وان تطور الاممية الشيوعية بعد المؤتمر الثاني يمنحنا الارضية الملائمة لذلك ، ويفسر لنا مرة أخرى (بقرارات المؤتمرين الثالث والرابع والتنفيذيات الموضوعة في شباط وحزيران — فبراير ويونيو ١٩٢٢ وفي حزيران — يونيو ١٩٢٣) طبيعة الاوضاع الايطالية واحتياجاتها . والحقيقة هي أننا — كحزب — سرنا بضع خطوات الى الامام في هذا الاتجاه ، وليس أمامنا الا أن نعرف ذلك ونستمر بنشاط . وفي الواقع ، ما هو معنى الاحداث التي تجري في الحزب الاشتراكي ، والتي أدت في وقت سابق الى انشقاق الاصلاحيين ، ثم الى ابعاد مجموعة محرري مجلة « الصفحات الحمراء » فيما بعد ، ومن ثم محاولة ابعاد كل الفئة الاممية — الثالثوية ، مؤخرا ؟ ان لها المعنى التالي بالتحديد : انه بينما كان حزبنا مجبرا ، كفرع ايطالي ، على الحد من نشاطه في الصراع الجسدي الدفاعي ضد الفاشية ، وكان مجبرا على المحافظة على هيكله الاولي ، فانه ، كحزب أممي ، عمل واستمر في العمل من أجل فتح سبل جديدة نحو المستقبل ، ومن أجل توسيع دائرة نفوذه السياسية ، ومن أجل أن يخرج من نطاق الحياد جزءا من الجماهير التي كانت قبلا تنظر بلا مبالاة أو بتردد . وكان عمل الاممية، لمدة من الزمن ، هو الوحيد الذي يسمح لحزبنا

باقامة صلة فعالة مع الجماهير الواسعة ، والوحيد الذي حافظ على حرارة النقاش وعلى بداية للتحرك في صفوف شرائح واسعة من الطبقة العمالية ، وهو ما كان يستحيل علينا نحن ، في الاوضاع القائمة ، التوصل اليه لولا ذلك. وكان نجاحا كبيرا أن تم التمكن من انتزاع كتل بحالها من تربة الحزب الاشتراكي ، وأن تم التوصل ، في حالة كانت تبدو غاية في السوء ، الى أن تتشكل داخل الهلامية الاشتراكية الجيلاتينية أندية تؤكد ايمانها ، رغم كل شيء ، بالثورة العالمية ، وتعترف — بالوقائع وليس بالكلمات التي تبدو محرقة أكثر من الوقائع — بأنها كانت قد أخطأت في الاعوام ١٩٢٠ — ٢١ — ٢٢ . وكانت هذه هزيمة للفاشية وللرجعية خلال هذه السنوات الثلاث من التاريخ الايطالي.

يجب التحرك بقوة ضد التشاؤم الموجود لدى بعض مجموعات حزبنا ، حتى بين الاكثر فيها مسؤوليات وكفاءة . فهو يمثل ، في هذه اللحظة ، الخطر الاكبر في الوضع الجديد الذي أخذ يتشكل في البلاد ، والذي سيجد اقراره الشرعي ووضوحه من خلال أول هيئة تشريعية فاشية . لقد بدأت الصراعات الكبرى بالاقتراب ، وقد تكون هذه الصراعات أكثر شدة ودموية من صراعات السنوات الماضية . وهذا يستدعي توفر الحد الاقصى من الطاقة عند قادتنا ، والحد الاقصى من التنظيم والمركزة عند جماهير الحزب ، وروح عالية من المبادرة ، وبداهة مطلقة في اتخاذ القرارات . ويتخذ التشاؤم بشكل عام هذه اللهجة : اننا نعود الى وضع يماثل وضع ما قبل ليفورنو، وعلينا ان نقوم بنفس العمل الذي قمنا به قبل ليفورنو وكنا نعتقد أنه نهائي . ويجب أن نبين لكل رفيق كيف أن هذا الموقف خاطيء سياسيا ونظريا ، طبعا ، ما زال علينا أن نناضل بقوة،ومن الواضح أن مهمة النواة الاساسية لحزبنا ، التي تشكلت في

ليفورنو ، لم تنته بعد ولن تنتهي قريبا (بل ستبقى حيـــة وراهنة حتى بعد الثورة المنتصرة) . ولكننا لن نجد أنفسنا بعد في وضع مماثل لوضع ما قبل ليفورنو ، لان الاوضـــاع العالمية والايطالية في عام ١٩٢٤ هي غير ما كانت عليه في عام ١٩٢٠ ، ولاننا نحن أنفسنا لسنا نحن الذين كنا فـــي عام ١٩٢٠ ، ولا نريد أن نصبح كذلك فيما بعد أبدا . ولان الطبقة العمالية الايطالية تغيرت كثيرا ، ولن يكون أبدا بعد ذلك من أسهل الامور في العالم اعادة احتلال المصانـــع بأنابيب قماشية ، بدلا من المدافع ، بعد أن يكون قد تم شد اذن الطبقة العمالية وأخمدت فورة دمائهـــا بالديماغوجيات القذرة للمعارض المتطرفة . ولان حزبنا موجود ، وهو أمر له أهمية ، وقد أثبت كونه شيئا ما ، ويجب أن تكون لنا به ثقة مطلقة باعتباره الجزء الافضل ، والاكثر صحة ، والاكثر نزاهة ، من البروليتاريا الايطالية .

الحزب السياسي (*)

مباديء السياسة : لا بد من القول بأن أول ما ينسى عادة هو المباديء الاولية والاشياء الاكثر بدائية أو بساطة . وكذلك ، فان تردد هذه المباديء الاولية مرات لا نهاية لهـا يجعلها تصبح الاعمدة الاساسية للسياسة ولكل أنواع العمل الجماعي .

المبدأ الاول هو الوجود الفعلي للحكام والمحكومـين ، والرؤساء والمرؤوسين) . وكل علم السياسةوفنها يعتمدان على هذه الحقيقة الاولية التي لا يمكن التخلي عنها (فـي شروط عامة معينة) . ان أصول هذه الحقيقة هي مشكلة بحد ذاتها يجب أن تدرس على حدة (على الاقل يمكن ، بل ويجب ، دراسة التقليل من تأثير هذه الحقيقة والغائـه ، وذلك بتغيير شروط معينة يمكن التعرف اليها كشروط فاعلة في هذا الاتجاه) (١) ، ولكن تبقى حقيقة أن هنالك فعـلا

---

* من « ملاحظات حول مكيافيلي ، حول السياسة ، وحول الدولة الحديثة » .

١ ــ اي الفاعلة في اتجاه ايجاد حكام ومحكومين .

رؤساء ومرؤوسين ، وحكام ومحكومين . باعتبار هـذه الحقيقة ، يجب أن نرى كيف تجري القيادة بالطريقة الاكثر فعالية (مع اعتبار أهداف معينة) وكيف يمكن تحضير أفضل القادة (وهذا ، بالدقة ، هو الفصل الاول من علم وفن السياسة) ، وكيف تمكن ، من ناحية أخرى ، معرفة الخطوط الاقل مقاومة ، أو العقلانية ، للحصول على طاعة المرؤوسين والمحكومين . ان المقدمة التالية هي مقدمة أساسية في تكوين القادة : ايراد الابقاء دوما على وجود حاكمين ومحكومين ، أم يراد خلق الشروط التي تزول فيها الحاجة الى الابقاء على هذا التقسيم ؟ أي هل سيجري الانطلاق من المقدمة القائلة بديمومة انقسام الجنس البشري ، أم من الاعتقاد بأن هذا الانقسام هو واقع تاريخي يستجيب لشروط معينة ؟ على العموم ، يجب أن يكون واضحا أن التقسيم الى حكام ومحكومين ، وان كان يرجع في التحليل الاخير الى تقسيم للمجموعات الاجتماعية ، هو شيء موجود ، باعتبار ما هو قائم ، حتى ضمن نفس المجموعة المتجانسة اجتماعيا . ويمكن القول ، الى حد ما، أن هذا التقسيم وليد التقسيم في العمل ، أي أنه واقع تكنيكي . هذا الوجود المشترك والمتزامن للاسباب هو الاساس الذي يتلاعب به أولئك الذين يرون كل شيء «تكنيكا» وضرورة « تكنيكية » .. الخ ، لكي لا يطرحوا على أنفسهم المشكلة الاساسية .

ونظرا لانه حتى داخل المجموعة الواحدة هنالك تقسيم الى حاكمين ومحكومين ، فانه يجب تثبيت بعض المباديء التي لا يمكن المساس بها ، بل ان هذه بالذات هي الارضية التي تقع فيها « الاخطاء » الاكثر خطورة ، أي التي يظهر فيها العجز الاكثر اجراما ، والاصعب تقويما . يعتقد

البعض انه استنادا مبدأ المجموعة ذاتها (٢) ، فان الطاعة يجب أن تكون أمرا أوتوماتيكيا ، وانها تأتي دونما حاجة الى اثبات « ضرورتها » وعقلانيتها ، وليس هذا فقط ، بل هي غير قابلة للنقاش أيضا (البعض يفكر بهذه الطريقة ، والادهى من ذلك أن البعض يعمل بموجب هذا التفكير ، أي بأن الطاعة « تأتي » دون أن تطلب ، ودون تحديد الطريق الواجب اتباعها) . ان من الصعب جدا اجتثاث الكادورنية من عقول الرؤساء ، أي القناعة بأن شيئا ما سيحدث لان الرئيس يعتقد انه من الصحيح والعقلاني أن يحدث هذا الشيء . اذا لم يحدث هذا الشيء ، نسبت « الخطيئة »الى من « كان يجب عليه » .. الخ . ان من الصعب جدا اجتثاث هذه العادة المجرمة ، أي عادة اهمال تجنب التضحيات التي لا فائدة منها ، أو لانه ثبت عدم الاهتمام بتضحيات الآخرين ولانه تم التلاعب بأرواح الآخرين . كل منا سمع ضباطا في الجبهة يروون كيف كان الجنود يخاطرون فعلا بحياتهم عندما كان ذلك ضروريا ، وكيفكانوا — على العكس من ذلك — يعصون الاوامر عندما كانوا

---

٢ — كما رأينا أعلاه ، ونظرا لوجود رؤساء ومرؤوسين حتى ضمن مجموعة متجانسة اجتماعيا (حتى ضمن الطبقة العمالية أو حزبها الطليعي مثلا) ، فمن الضروري عدم الوقوع في الخطأ ، أو الحلم ، القائل بانه من العبث القيام بالاقناع والاقتناع داخل المجموعة نفسها . ويلاحظ غرامشي بدقة وعمق أن هذه هي ، بالذات ، الارضية التي يمكن أن تقع فيها الاخطاء الاكثر خطورة ، أي الوصول الى البيروقراطية أو الكابورالية أو السلطوية ، أو الى ما يسميه غرامشي « المكادورنية » نسبة الى الجنرال كادورنا المسؤول الاول عن كارثة كابوريتو (التي ابرزت كل أغلاط القيادة في الجيش الايطالي) .

يرون أنهم مهملين . مثال على ذلك : كانت احدى القطعات العسكرية قادرة على الصوم أياما عديدة عندما ترى أن عدم وصول المواد الغذائية انما يحصل بسبب قوة قاهرة ،ولكنها كانت تبدأ العصيان فور انقطاع وجبة واحدة عنهـا بسبب الاهمال والبيروقراطية وما شابه ذلك .

ويمتد مفعول هذا المبدأ الى كافة الاعمال التي تحتاج الى التضحية ، لذلك فانه يجب ، بعد كل تغيـير انقلابي ، البحث عن مسؤولية القادة قبل أي شيء آخر ، وبشكـل ضيق (مثال : ان جبهة ما تتألف من عدة قطاعات ، ولكل قطاع قادته ، ويحتمل ، في حالة الهزيمة ، أن يكون قـادة قطاع ما أكثر مسؤولية من قادة قطاع آخر عن هذه الهزيمة. ولكن الامر يتعلق بمن هو أكثر أو أقل مسؤولية، وليس برفع المسؤولية نهائيا عن أي من هؤلاء القادة . أبدا) .

واستنادا الى مبدأ وجـود المرؤوسين والرؤساء ، والحاكمين والمحكومين ، فانه صحيح أن « الاحزاب » مـا زالت حتى الآن هي الطريقة الأكثر ملاءمة لصناعة القـادة والقدرة على القيادة (ويمكن « للاحزاب » أن تقدم نفسهـا تحت أسماء مختلفة ، بما فيها صيغة الحـزب المضـاد أو صيغة « رفض الاحزاب » . في الواقع ، حتى أولئك الذين يسمونهم « فرديين » هم حزبيون ، وكل ما هنالك أنهـم يريدون أن يكونوا « رؤساء أحزاب » بفضل ينعم به الرب عليهم ، أو بفضل غباء من يتبعهم) ...

الحزب السياسي : قلنا أن صاحب دور « الامـير

الحديث » (٣) لا يمكنه في العصر الحديث أن يكون بطلا شخصيا ، بل هو الحزب السياسي ، أي أنه — مرة بعد مرة ، وفي العلاقات الداخلية المختلفة للامم المختلطة — هو ذلك الحزب الذي ينوي تأسيس نوع جديد من الدولة (وقد أسس هذا الحزب عقلانيا وتاريخيا من أجل تحقيق هذا الهدف) .

ومن الضروري ملاحظة كيف أنه في الانظمة التي تتشكل كأنظمة مطلقة السلطة ، فان الوظيفة التقليدية لمؤسسة التاج يقوم بها ، في الواقع ، حزب معين يكون مطلق السلطة لانه يقوم بهذه الوظيفة بالتحديد. واذا كان كل حزب هو التعبير عن جماعة اجتماعية ، فان أحزابا معينة ، على العموم ، تمثل جماعة اجتماعية واحدة

---

٣ — من المعروف ان « الامير الحديث » عند غرامشي هو الحزب السياسي للطبقة العمالية . ويشير غرامشي في هذه التسمية التي أطلقها على الحزب الى كتاب « الامير » الذي وضعه نيكولو مكيافيلي (١٤٦٩ — ١٥٢٧) ، وهو أكبر مؤرخ ومفكر سياسي ايطالي على الاطلاق . في هذا الكتاب يبحث مكيافيلي الانواع المختلفة للامارات ، ويتوقف بشكل خاص عند الامارات الحديثة التشكل ، ويطرح المباديء التي يجب أن تقوم عليها هذه الامارات . وبهذه الطريقة بنى مكيافيلي الصورة المثالية «للامير»الذي يستخدم كل الوسائل السياسية ، من القوة الى المكر والاقناع ، في سبيل توحيد الاجزاء المتفرقة من ايطاليا (أو بعضها على الاقل) وطرد الاجانب واقامة دولة وحدوية كبرى . والتوازي بين « أمير » مكيافيلي و « الامير الحديث » عند غرامشي يتركز فيما يلي : أيام مكيافيلي كانت المشكلة الاساسية هي مشكلة الدولة الوحدوية (أي مشكلة تقدم المجتمع الايطالي)، ولم يكن لهذه المشكلة أن تحل الا بواسطة ملك عظيم . أما اليوم فالمشكلة تتعلق بوحدة أكثر عمقا (أي بمشكلة التحول الاشتراكي في ايطاليا) والتي لا يمكن حلها الا بواسطة حزب عظيم من نوع جديد .

فقط ، في شروط معينة ، باعتبارها تمارس وظيفة الموازنة والتحكيم بين مصالح جماعتها والجماعات الاخرى ، وهي تعمل لكي يتم تطور الجماعة التي تمثلها بموافقة ومساعدة الجماعات المتحالفة معها ، هذا اذا لم يكن أيضا بموافقة ومساعدة الجماعات المعادية أيضا . ان الصيغة التشريعية للملك او لرئيس الجمهورية الذي « يملك ولا يحكم » هي الصيغة القانونية التي تعبر عن وظيفة التحكيم هذه . ومهمة الاحزاب الشرعية (في هذه الحالة) هي العمل على عدم « كشف » التاج أو الرئيس . ان صيغ لا مسؤولية رئيس الدولة ومسؤولية الوزراء ، في الاعمال الحكومية ، هي سببية المبدأ العام للدفاع عن مفهوم وحدة الدولة ، ولموافقة المحكومين على عمل الدولة ، مهما كانت الشخصية المباشرة للحكومة وحزبها .

بالحزب المطلق السلطة (أو الديكتاتوري الاستبدادي) تفقد هذه الصيغ معناها ، وتتقلص بالتالي المؤسسات التي كانت تعمل بمفهوم هذه الصيغ واتجاهها . ولكن هذه الوظيفة نفسها تتجسد في الحزب الذي يقوم بابراز المفهوم التجريدي « للدولة » ويحاول بكافة الطرق اعطاء الانطباع بأن وظيفة « القوة المحايدة » هي وظيفة حية وفعالة (٤) ..

عندما يريد المرء كتابة تاريخ حزب سياسي فان عليه، في الواقع ، أن يواجه سلسلة من المشاكل أكثر صعوبة مما يعتقد . وروبرتو ميكلز (٥) ، المعتبر أخصائيا في هذه المادة،

---

٤ ــ يشير غرامشي هنا الى الحزب الفاشي الذي كان يميل الى تعريف نفسه بالدولة .

٥ ــ Roberto Michels (١٨٧٦ ــ ١٩٣٨) ، عالم اجتماع وبحاثة في المشاكل السياسية ، ولد في ألمانيا وعاش في ايطاليا . كرس جل وقته لدراسة تاريخ الاشتراكية والمسائل الاجتماعية .

هو مثال لذلك . ما هو يا ترى تاريخ الحزب ؟ أهو الرواية البحتة للحياة الداخلية لتنظيم سياسي ؟ أي كيف يولد هـذا التنظيم ، والمجموعات الاساسية التي تشكله ، والنقاشات الايديولوجية التي يتشكل على أساسها برنامجه وفهمه للعالم والحياة ؟ ان الامر في هذه الحالة انمـا يتعلق بمجموعات ضيقة من المفكرين ، ويتعلق بعض الاحيان بسيرة الحيـاة السياسية لشخص مفرد . اذن ، يجب أن يكون اطـار الصورة أكثر اتساعا وشمولا .

يجب ، اذن ، تسجيل تاريخ جمهور معين تبع المبادرين الاول ، ودعمهم بثقته وباخلاصه وبانضباطه ، أو انتقدهم « بواقعية » متفرقا عنهم ، أو بقي سلبيـا تجـاه هـذه المبادرات . ولكن ، هل يتألف هذا الجمهور فقط من الاعضاء المنتسبين للحزب ؟ بالطبع يجب أن تؤخـذ في الاعتبـار الجماعة الاجتماعية التي يفترض بالحزب أن يكون التعبـير عنها ، والقسم الاكثر تقدما منها . أي أن تاريخ الحزب لا يمكنه الا أن يكون تاريخ جماعة اجتماعية معينة . ولكن هذه الجماعة ليست معزولة بنفسها ، بـل لهـا أصدقاؤهـا ، والمتعاطفون معها ، ومعارضوها ، وأعداؤها . فقط مـن الصورة المعقدة لمجموع الاطـار الاجتماعي واطار الدولـة (والمداخلات الدولية في أغلب الاحيان) يمكـن استخراج تاريخ حزب معين ، ولذلك يمكن القول أن كتابة تاريخ حزب ما تعني كتابة التاريخ العام للبلد من وجهة نظر مونوغرافية ليس الا ، لابراز مظهر مميز فيه. ويكون للحزب معنى وثقلا أكبر أو أصغر بمقياس ما أدى نشاطه ، أكثر أو أقل ، الى التأثير في تاريخ ذلك البلد وتحديد مساره .

وهكذا ، فان طريقة كتابة تاريخ حزب ما تدل علـى المفهوم القائم (عند الكاتب) عن ماهية الحزب وما يجب أن يكون . ان ما يستثير اهتمام الفئوي هو صغـار الاحداث

الداخلية التي يجد فيها معنى سريـــا (٦) فتملأه بالحماسة الغيبية . أما المؤرخ ، فبالرغم من اعطائه كل شيء الاهمية التي له ضمن الاطار العام ، فانه يركز بشكل خاص علـــى الفاعلية الحقيقية للحزب ، وعلى قوته التقريرية ، ايجابا أو سلبا ، في المساهمة بخلق الحدث ، أو بمنع وقوع أحداث أخرى .

ان نقطة معرفة متى تشكل الحزب ، أي متى أصبحت له مهمة محددة ودائمة ، تفسح المجال أمام نقاشات كثيرة ، وغالبا ما تفسح المجال ، للاسف ، أمام شكل مـــن اشكال الغرور لا يقل سخافة وخطورة عن « غرور الامم » الـــذي يتحدث فيكو (٧) عنه . صحيح انه يمكن القول ان الحزب لا ينتهي أبدا من التشكل ، بمعنى أن كل تطور يخلق مهمات وواجبات جديدة ، وبمعنى انه بالنسبة لبعض الاحزاب يصح القول التناقضي بأن هذه الاحزاب تنتهي من التشكل عندما لا تعود موجودة ، أي عندما يكون وجودها ، تاريخيا ، قد أصبح عديم الفائدة . وهكذا ، ونظرا لان الحـــزب ليس الا تسمية للطبقة أو تعريفا لها (٨) فان مـــن الطبيعي بالنسبة للحزب الذي يقترح ازالة التقسيم الطبقي أن لا يصل درجة الكمال والنهاية من التشكل الا بزوال وجوده نظـــرا لزوال

---

٦ ــ Esoterico (Exoteric بالانكليزية) هي تلك العقائد والمباديء والدروس التي كان بعض الفلاسفة اليونان يمتنع عن تدريسها لكل تلامذته، وتحمل بالتالي طابع السرية الى جانب الاغراق في العلم .

٧ ــ Ciambattistavico (١٦٦٨ ــ ١٧٤٤) أحد أشهـــر الفلاسفة الايطاليين . أشهر أعماله هو مؤلفه « العلم الجديد » .

(٨) راجع الهامش رقم (١٠) في مقال « الحزب الشيوعي » في الجـزء الاول من هذه المختارات .

الطبقات ، والمظاهر المعبرة عنها بالتالي . ولكن لا بد هنا من الاشارة الى لحظة معينة من عملية النمو هذه ، هي اللحظة التالية للخطة التي يمكن فيها لشيء ما ان يكون موجودا او غير موجود ، بمعنى أن الحاجة الى وجوده لم تصبح بعد « حاسمة » ، ولكنها تعتمد « الى حد كبير »على وجود أشخاص ذوي قوة سعي خارقة وذوي ارادةخارقة.

متى يصبح الحزب « ضروريا » من وجهة النظر التاريخية ؟ عندما تكون شروط « انتصاره » ، او شروط حتمية ان يصبح دولة ، هي — على الاقل — في طريق التشكل ، وتفسح المجال امام توقع طبيعي لتطور اكبر فيها . ولكن ، متى يمكن القول ، في هذه الشروط أن حزبا ما لا يمكن تحطيمه بالوسائل العادية (٩) ؟ للاجابة لا بد من المعالجة المنطقية التالية : حتى يوجد الحزب لا بد من ترافق ثلاثة عناصر أساسية (أي ثلاث مجموعات من العناصر) ، هي :

١ — عنصر منتشر ، مؤلف من رجال عاديين ومتوسطين تتأكد مشاركتهم بالانضباط والاخلاص وليس بروح المبادرة التنظيمية الفائقة . بدون هؤلاء لا يمكنللحزب أن يوجد ، وهذا صحيح ، ولكن الحزب لن يوجد بهؤلاء « فقط » أيضا . ويشكل هؤلاء قوة عندما يوجد من يمركزهم وينظمهم ويضبطهم . أما اذا لم تتوفر هذه القوة الصاهرة فانهم سيتفرقون ويصبحون غبارا عاجزة . ولا يمكن انكار أن كلا من هذه العناصر يمكنه أن يصبح القوة الصاهرة ، ولكن الحديث يجري عنهم في اللحظة التي ليسوا فيها

---

٩ — اشارة واضحة الى محاولة التحطيم بوسائل « استثنائية » للاحزاب العمالية من قبل الانظمة الفاشية . ملاحظة غرامشي هذه ، بكاملها ، تشير الى تشكيل ، واستمرار وجود ، الحزبالشيوعي وكوادره العاملة .

كذلك ولا تتوفر فيها الشروط ليكونوا كذلك ، أو أنهم اذا كانوا كذلك فهم محدودون بدائرة ضيقة ، غير فاعلة سياسيا ، وبلا نتائج .

٢ ــ العنصر الصاهر الاساسي ، الذي يقوم بالمركزة على المستوى القومي (الوطني) ، والذي يجعل مجموع القوى التي لو تركت لوحدها لكانت صفرا أو أكثر من الصفر بقليل ، يجعلها فاعلة وقادرة . هذا العنصر المسلح بقوة صاهرة وممركزة وضابطة عالية ، هو عنصر ابداعي ، بل انه قد يكون كذلك بسبب هذه القوة (اذا قصد بكلمة « ابداعي » أن يكون هذا الابداع في اتجاه معين ، حسب خطوط قوة معينة ، وحسب منظورات معينة ، وكذلك حسب مقدمات معينة) . وصحيح أيضا أن هذا العنصر لوحده لا يشكل لوحده لا يشكل حزبا ، وعلى العموم فانه قادر على تشكيله أكثر من العنصر المذكور سابقا . الواقع أن الحديث يجري هنا عن قادة بلا جيش ، ولكن الحقيقة هي أن تشكيل الجيش أسهل من تشكيل القادة . والواقع ، كذلك ، أنه يمكن تدمير جيش بكامله في حال نقصان القادة ، في حين أن وجود مجموعة من القادة ، المتعاطفين والمتفقين فيما بينهم ، والحاملين لاهداف مشتركة ، لن يتأخر عن تشكيل جيش ، حيثما وجدت هذه المجموعة .

٣ ــ عنصر وسيط ، يربط العنصر الاول بالعنصر الثاني ، ويؤمن اتصال أحدهما بالآخر ، لا « جسديا » فحسب ، بل أيضا يؤمن الاتصال الوجداني والفكري بينهما

أيضا . في الواقع ، هنالك لكل حزب « نسبا محددة » (١٠) بين هذه العناصر الثلاثة ،ويمكن الوصول الى أقصى حدود الفاعلية عندما تتحقق هذه « النسب المحددة » .

استنادا الى هذه الاعتبارات ، يمكن القول أنه لا يمكن تحطيم الحزب بوسائل عادية عند وجود العنصر الثاني الذي ترتبط ولادته بوجود الشروط المادية الموضوعية (واذا كان هذا العنصر الثاني مفقودا فكل منطق يصبح بلا فائدة)، حتى ولو وجد بشكل مفرق ومشتت ، لانه — في هذه الحالة — لا بد من تشكل العنصرين الآخرين ، أي العنصر الاول الذي يشكل ، بالضرورة ، العنصر الثالث كاستمرار للتعبير عن نفسه .

وحتى يتم ذلك يجب أن تكون قد تشكلت قناعةحديدية بضرورة حل معين للمشاكل الحياتية ، وبدون هذه القناعة لا يمكن للعنصر الثاني ان يتشكل ، وهو الاسهل تحطيما نظرا لقلة عدده . ولكن من الضروري أن يترك هذا العنصر الثاني خلفه ، اذا ما تحطم ، وبصيغة الارث، خميرةتستعيد تشكيل نفسها . وأين يمكن لهذه الخميرة أن توجد وأنتنمو وتتشكل على أفضل ما يمكن ان لم يكن داخل العنصرين الاول والثالث اللذين هما ، طبعا ، الاكثر تجانسا من العنصر الثاني ؟ ان نشاط العنصر الثاني لبناء هذا العنصر يصبح ، بذلك ، أساسيا . ويصبح من الواجب البحث عن قاعدة الحكم التي يعمل العنصر الثاني على أساسها في :

---

١٠ — يضع غرامشي هذا التعبير بين أقواس صغيرة لانه يشير فيه الى قانون « دالتون » الكيمياوي القائل بأن المواد الكيميائية لا تتركبفيها بينها الا بنسب كمية محددة . والمصدر المباشر الذي إخذ غرامشي عنهذا التعبير هو : « مبادىء الاقتصاد المجرد » لمؤلفه مافيو بانتاليوتي والذي يستشهد به غرامشي في مكان اخر من ملاحظاته حول ميكافيلي .

١ ــ ما تعمله فعلا ، ٢ ــ ما تحضره لاحتمال وقوع التحطيم فعلا . ويصعب القول هنا اي الامرين هو الاهم . ونظرا لان النضال نفسه يستوجب ضرورة توقع الهزيمة أيضا ، فان تحضير الخلف يصبح أمرا لا يقل أهمية عن التحضير للانتصار .

فيما يتعلق « بغرور » الحزب ، يمكن القول انه أسوأ بكثير من « غرور الامم » الذي يتحدث نيكو عنه. لماذا لان امة ما لا يمكنها الا ان تكون موجودة، وبمجرد وجودها يصبح من المحتمل ، بالارادة القوية وباستثارة الكتابات ، العثور على أن وجودها مليء بالقدر وبالمعاني . أما الحزب فلا يمكنه ان يوجد بقوته الذاتية . ويجب أن لا ننسى أبدا انه ، في صراع الامم ، يكون لكل أمة مصلحة باضعاف الاخرى عن طريق النزاعات الداخلية ، وأن الاحزاب هي عناصر هذه النزاعات الداخلية . ومن هنا فانه يمكن دوما التساؤل ، بالنسبة للاحزاب ، اذا كانت هذه الاحزاب موجودة بقوتها الذاتية ، كضرورة ذاتية ، أم انها موجودة فقط لمصلحة الاخرين (والواقع ان الجدل لا ينسى أبدا هذه النقطة ، بل على العكس من ذلك ، فانها سبب للاصرار ، وخاصة عند عدم وجود أي شك في طبيعة الجواب ، وهو ما يعني أن لها نجاحا وأنها تزرع الشك) . طبعا ، ان من يدع الشك يمزقه ليس الا انسانا سخيفا . ان المداخلات الاجنبية ، في تاريخ ما يسمى بأصول القوميات ، لصالح الاحزاب القومية التي كانت تثير الاضطراب في النظام الداخلي للدول المتنازعة ، كثيرة جدا لا تحصى ، الى درجة انه عندما يجري الحديث عن السياسة « الشرقية » لكافور يطرح فورا التساؤل عما اذا كان الامر يتعلق « بسياسة » ، اي بخط ثابت للعمل، او بحيلة آنية لاضعاف النمسا تحضيرا لوقائع عامي ١٨٥٩

و ١٨٦٦ (١١) . وهكذا كان الامر ايضا بالنسبة للحركات الماتزينية في مطلع ١٨٧٠ (مثل واقعة بارزانتي) (١٢) ، حيث نرى تدخل بيسمارك (١٣) الذي كان يتوقع اندلاع الحرب مع فرنسا ، وكان يرى خط التحالف الايطالي ــ الفرنسي ، ففكر باضعاف ايطاليا عبر النزاعات الداخلية . وكذلك كان الامر ايضا في حزيران (يونيو) ١٩١٤ (١٤) ، حيث رأى البعض أن تدخل هيئة الاركان العامة النمساوية انما كان يدخل في اطار الحرب التالية. كما نرى فان السببية متعددة، ويجب أن تكون الافكار واضحة في هذا المجال . وبافتراض أن كل ما يجري عمله يفيد جهة ما ، فان المهم هو السعي بكل

---

(١١) يشير غرامشي هنا الى تحالف بييمونتي مع انكلترا وفرنسا ، والى تدخل قوات بييمونتي في « الشرق » ضد روسيا (١٨٥٥) . وكان كافور قد دعم ضرورة التدخل في الحرب حتى بدون مقابل فوري .

(١٢) في ٢٤ ايار (مايو) ١٨٧٠ قام العريف بييترو بارزانتي برفقة أربعين من الجمهوريين بالانقضاض على ثكنة في بافيا صائحين : « عاشت روما ! عاشت الجمهورية ! لتسقط الملكية ! » . واعتقل العريف وحوكم واعدم يوم ٢٧ اب (اغسطس) ١٨٧٠.

(١٣) Otto Vom Bismark ١٨١٩ ــ ١٨٩٨) ، رجل دولة الماني ، صاحب السياسة التي أدت الى توحيد المانيا وتثبيت وجودها في الساحة الاوروبية كقوة كبرى » . وكان بسمارك قد أبرم عددا من القوانين المضادة للاشتراكية .

(١٤) ويسمى هذا التاريخ « الاسبوع الاحمر » (٧ ــ ١٤ حزيران ١٩١٤) ، وقد شهد حركة ذات طابع انتفاضي نجمت عن مجزرة دموية جرت في مدينة أنكونا في الاحد الاول من شهر حزيران ، وكانت الحركة تعبيرا عفويا عن السخط الشعبي ، وكانت ذات طابع فوضوي وبدائي في أغلب اللحظات بسبب غياب فاعلية القيادة السياسية الاشتراكية .

الطرق الى عمل ما يفيد الذات ، الى السعي الى الانتصار بوضوح . وعلى كل ، فانه يجب احتقار « غرور » الحزب واستبدال الغرور بالوقائع الملموسة . ومن يستبدل الوقائع بالغرور ، او يجعل من السياسة غرورا، لا مجال الا للشك بعدم جديته . ولا يحتاج الامر الى اضافة أنه يجب على الاحزاب أيضا تجنيب « المظهر » المبرر بأن ما يحصل هو لفائدة جهة ما ، وخاصة اذا كانت هذه الجهة دولة أجنبية . واذا ما حصل ذلك ، ثم جاء من يتلاعب بالحقائق ، فان أحدا لا يمكنه منع هذا التلاعب (١٥) .

من الصعب استبعاد أن يقوم أي حزب سياسي (للمجموعات السائدة أو أيضا للمجموعات المحكومة) بوظيفة البوليس أيضا ، أي بوظيفة حماية النظام السياسي والقانوني . واذا ما ثبت ذلك فانه يجب طرح المسألة بتعابير أخرى ، أي حول الطرق والاتجاهات التي تجري فيها ممارسة هذه الوظيفة ، وهل تكون طبيعة هذه الممارسة تضييقية أم انتشارية ، أو بالاحرى هل هي ذات طبيعة رجعية أم تقدمية؟ أي ان الحزب المعين يمارس وظيفته كبوليس للمحافظة على نظام خارجي (قشري) غير جوهري ، معيق للقوى الحية للتاريخ أم أنه يمارسها في اتجاه يميل الى الوصول بالشعب الى مستوى جديد من الحضارة يكون فيها النظام السياسي والقانوني تعبيرا برنامجيا ؟ في الواقع ، ان القانون يجد من

---

(١٥) كل المنطق الوارد في هذه الفقرات ما زال ، في الواقع ، قائما حتى اليوم ، وبشكل خاص في الاتهام الموجه برتابة مقيتة الى الاحزاب الشيوعية بانها انما تخدم قوة اجنبية (الاتحاد السوفياتي) والذي تتولى اعادة ترداده كلما هدأ احزاب ومنظمات يمينية معادية للشيوعية .

يخرقه : ١) بين العناصر الاجتماعية الرجعية التي أفقدها القانون سيطرتها أو ملكياتها ، ٢) بين العناصر التقدمية التي يضطهدها القانون ويقمعها ، ٣) بين العناصر التي لم تصل الى مستوى من الحضارة الذي يمكن أن يمثله القانون . اذن، فوظيفة البوليس لحزب ما يمكنها أن تكون تقدمية أو رجعية. انها تقدمية عندما تتجه الى ان تضبط القوى الرجعية القاقدة لما تملك ضمن اطار القانونية والى أن ترفع الجماهير المتخلفة الى مستوى القانونية الجديدة . وهي رجعية عندما تتجه الى قمع القوى الحية للتاريخ والمحافظة على القانونية التي تم تجاوزها ، المعادية للتاريخ ، والتي أصبحت غير جوهرية . ومن ناحية أخرى ، فان وظيفية حزب ما هي التي توفر مبدأ التمايز : فعندما يكون الحزب تقدميا فهو يعمل بطريقة « ديمقراطية » (بمعنى المركزية الديمقراطية) ، وعندما يكون الحزب رجعيا فهو يعمل بطريقة « بيروقراطية » (بمعنى المركزية البيروقراطية) . ويكون الحزب في هذه الحالة الثانية منفذا وليس مقررا ، ويصبح تكنيكيا جهاز بوليس ، ويصبح اطلاق اسم « حزب سياسي » عليه ليس أكثر من استعارة بحتة ذات طابع رمزي (١٦) .

---

(١٦) غرامشي هنا ، كعادته ، يوجه كل اهتمامه الى الدفاع عن الحزب ووظائفه ، ولكنه ، في الوقت نفسه ، يأخذ في حسابه ، وبوضوح لا مثيل له ، أخطار الانحطاط البيروقراطي للحزب .

التوقع والمنظور (*)

من المؤكد أن التوقع لا يعني سوى الرؤية الجيدة للحاضر والماضي باعتبارهما حركة . والرؤية الجيـــدة تعني التعرف بدقة الى العناصر الاساسية والدائمة للعملية . ولكن مـــن المنافي للمنطق التفكير بتوقع « موضوعي » بحت (١) . ان من يقوم بالتوقع ، في الحقيقة ، يكون لديه « برنامج » يعمـــل لانتصاره ، والتوقع هو أحد عناصر هذا الانتصار . ولا يعني هذا أن التوقع يجب أن يكون دوما اعتباطيا ومجانيا أو متحيزا كليا . بل انه يمكن القول أن ليس فقط بالمقدار الذي يكون فيه المظهر الموضوعي للتوقع مرتبطا ببرنامج ما ، فان هـــذا المظهر يكتسب الموضوعية : ١) لان المشاعر فقط هي التي تجعل الذهن متوقدا وتساهم فيجعل الحدس اكثر وضوحا، ٢) ولانه نظرا لكون الواقع نتيجـــة للتطبيق العملي للارادة

* من « ملاحظات حول مكيافيلي ، حول السياسة ، وحول الدولة الحديثة » .

(١) أي بتوقع مبني فقط على حركة القوى الاقتصادية بشكل معزول عن العمل « الذاتي » للرجال وللحزب .

الانسانية على مجتمع الاشياء (من الانسان المشرف على الآلة الى الآلة نفسها) ، فان التخلي عن كل عامل ارادي ، أو حساب مداخلة ارادة الغير فقط كعنصر موضوعي في اللعبة العامة ، انما يبتر الواقع نفسه . فقط من يريد بقوة يستطيع التعرف الى العناصر الضرورية لتحقيق ارادته .

ولهذا فان اعتبار أن مفهوما معينا للعالم وللحياة يحتوي في ذاته على التفوق في القدرة على التوقع هو خطأ يتميز بسخافة كبيرة وبالسطحية . ومن المؤكد أن كل توقع انما يحتوي ضمنا على مفهوم معين للعالم ، ولكن ، أن يكون هذا التوقع عبارة عن فصل اعتباطي بين مظاهر واعمال الفكر ، أو أن يكون رؤية صارمة ومنسجمة ، ليس أمرا قليل الاهمية ، ولكنه — على العموم — يكتسب أهميته في الذهن الحي لدى من يقوم بالتوقع ويعيشه بارادته القوية ، وهذا ما يرى في التوقعات التي يضعها من يسمون « بغير ذوي المشاعر » ، اذ تزدحم هذه التوقعات بالتفاهات وبالصغائر الدقيقة والاناقات الحدسية . فقط وجود برنامج ما لدى « صاحب التوقع » يريد تطبيقه يجعله يلتزم بما هو أساسي ، وبتلك العناصر التي باعتبارها « قابلة للترتيب والتنظيم » فانها عرضة لان تكون مستقيمة او منحرفة ، والواقع ان هذه هي العناصر الوحيدة التي يمكن توقعها . ان هذا يتعارض مع ما هو شائع في النظر الى المسألة . والواقع أنه يظن عموما أن أي عملية توقع انما تفترض سلفا تحديد قوانين الانتظام التي هي من نوع قوانين الانتظام في العلوم الطبيعية (٢) . ولكن ، بما أن هذه القوانين غير موجودة

---

(٢) يشير غرامشي هنا الى بعض المواقف الماركسية المشوهة التي تقول بانه لا بد من انهيار الراسمالية بسبب تناقضاتها الاقتصادية البحتة ودون التدخل الفاعل من قبل الحزب والجماهير .

بالمعنى المطلق أو الآلي المفترض ، فانه لا تؤخذ في الحساب ارادات الاخرين ، ولا يتم « توقع » تطبيق هـذه الارادات عمليا . وخلال ذلك يكون كل شيء قـد بني على أسـاس فرضية اعتباطية وليس على اساس الواقع ...

تحليل الاوضاع ــ علاقات القوى : أن دراسة كيف يجب تحليل « الاوضاع » ، أي كيف يجب تحديد المستويات المختلفة لعلاقات القوى ، يمكنهـا أن تكون مجـالا لعرض بدائي لعلم وفن السياسة، مأخوذ ككل متكامل للقواعد العملية للبحث وللملاحظات الخاصة المفيدة في ايقاظ الاهتمام بالحقيقة الواقعية واستثارة الحدس السياسي الاكثر دقة وصرامة . والى جانب ذلك يجب طرح عرض ما هو مقصود بالاستراتيجية والتكتيك في السياسة ، وما يقصد « بالخطة » الاستراتيجية، وبالدعاية والتحريض ، وبالعضوية ، أو بالاحرى علم التنظيم والادارة في السياسة .

ان عناصر المراقبة التجريبية المعروضة عـادة بشكل مشوش في أبحاث العلوم السياسية (يمكن أن يؤخذ كمثال على ذلـك كتـاب غ. موسكـا المعنون « مبـادىء علـم السياسة » (٣) ، باعتبارها ليست مسائل مجردة أو قفزات في الهواء ، يجب أن تجد لها مكانا في مختلف مستويات علاقات القوى ، بدءا بعلاقات القوى الدولية (حيث تجد لنفسهـا مكانا الملاحظات المكتوبـة عن ماهية القوة العظمى ، وعن تجمعات الدول في أنظمة مهيمنة ، وبالتـالي حـول مفهوم الاستقلال والسيادة فيما يتعلق بالقوى الصغرى والمتوسطة)، ومرورا بالعلاقات الموضوعية الاجتماعية ، أي على مستوى

---

(٣) Gaetamo Mosca (١٨٥٨ ــ ١٩٤١) قانوني وكاتب شهير وبحاثة في العلوم السياسية . ليبرالي ، اشهر مؤلفاته هو المؤلف المذكور هنا ، وكان الجزء الاول منه قد نشر عام ١٨٩٦ والثاني عام ١٩٢٨ .

تطور ونمو القوى المنتجة ، وبعلاقات القوى السياسية والاحزاب (الانظمة المهيمنة داخل الدولة) ، وبالعلاقات السياسية المباشرة (أو العسكرية الامكانية) (٤) ..

هل تسبق العلاقات الدولية أم تتبع (منطقيا) العلاقات الاجتماعية الاساسية ؟ انها تتبعها بلا شك . كل تجديد عضوي في البنية (٥) يؤدي الى تحول عضوي في العلاقات **المطلقة والنسبية** في الميدان الدولي ، عبر تعبيراتها التكنيكية ــ العسكرية. أيضا الوضع الجغرافي للدولة القومية لا يسبق بل يتبع (منطقيا) التجديدات البنيوية رغم انها تؤثر بها الى حد ما (بمقدار ما تؤثر البنى الفوقية بالبنى ، والسياسة بالاقتصاد .. الخ) . ومن ناحية أخرى ، فان العلاقات الدولية تؤثر ، سلبا وايجابا ، بالعلاقات السياسية (لهيمنة الاحزاب) . وكلما ازدادت تبعية الحياة الاقتصادية المباشرة لامة ما للعلاقات الدولية ، ازداد تمثيل حزب ما لهذا الوضع واستثماره له لمنع وصول الاحزاب المعادية (يجدر التذكير هنا بخطاب نيتي (٦) الشهير حول الثورة الايطالية المستحيلة

---

(٤) يتحدث غرامشي عن هذه النقطة بالتفصيل في موقع اخر .

(٥) « البنية » ، في المفهوم الماركسي ، تتالف من علاقات الانتاج القائمة . « ان مجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف البنية الاقتصادية للمجتمع ، أو القاعدة الفعلية التي تقوم عليها البنى الفوقية القانونية والسياسية والتي تقابلها صيغ محددة لوعي الاجتماعي » (ماركس ، في مقدمة « نقد الاقتصاد السياسي ») .

(٦) Francesco Saverio Nitti (١٨٦٨ ــ ١٩٥٣) ، بحاثة في المسائل الاقتصادية والمالية ، ورجل سياسة ذو اتجاه ديمقراطي ، كان رئيسا للوزراء عام ١٩١٩ ، وذهب الى المنفى بعد مجيء الفاشية ، وعاد بعد التحرير ليترأس قائمة انتخابية للتجمع الديمقراطي هدفها انتزاع المجلس البلدي لمدينة روما من أيدي رجال الكنيسة .

تكنيكيا !) . من مجموعة الحقائق هـذه يمكن الوصول الى الاستنتاج بأن ما يسمى كثيرا بـ « حزب الاجنبي » ليس هو الحزب الذي يشار اليه عموما بهذه الكلمة ، بل هو الحزب الاكثر تعصبا قوميا، والذي يمثل التبعية والخضوع الاقتصادي للدول أو مجموعة الدول المهيمنة أكثر مما يمثل ، في الواقع ، القوى الحية لبلده (٧) .

ان مشكلة العلاقات بين البنيـة والبنى الفوقيـة هي المشكلة التي يجب طرحها بشكل صحيح وحلها للوصول الى التحليل الصحيح للقوى العاملة في تاريخ فترة زمنية محددة ولتحليل علاقات هذه القوى فيما بينها . ومن اجل ذلك يجب التحرك في اطار مبدأين أساسيين : ١) أن ما من مجتمع يطرح على نفسه مهمات لا تكون شروط حلهـا الضرورية والكافية موجودة فعلا ، أو هي — على الاقل — في طريـق الظهور والنمو ، ٢) أن ما من مجتمع يتحلل ويمكن استبداله اذا لم يطبق كل صيغ الحياة المتضمنة في علاقاته (٨) . ان التـأمل

---

(٧) هنا ايضا يشير غرامشي الى الحزب الفاشي الذي كان يغطـي خضوعه وتبعيته للمصالح الاقتصادية والسياسية الخارجية بتعصب قومي عنيف ، ولكنه افتضح نهائيا في علاقاته مع المانيا النازية الهتلرية .

(٨) يستعيد غرامشي هنا فقرتين وردتا في مقدمة ماركس لـ « نقـد الاقتصاد السياسي » ، وتقول الاولى : « لا تطرح الانسانية على نفسهـا الا تلك المشاكل التي تستطيع حلها ، لان النظر الى الاشياء عن قرب يدلنا على ان المشكلة لا تظهر الا عندما تكون الشروط المادية لحلها موجودة فعلا، أو هي في طريقها الى التشكل » . وتقول الفقرة الثانية : « ان تشكـلا اجتماعيا ما لا يموت الا عندما تكون قد نمت كافة القـوى الانتاجية التي يفسح لها الطريق . ولا تحل علاقات انتاج جديدة ومتفوقة (محـل مـا قبلها) الا بعد ان تكون قد نضجت الشروط المادية لوجودها وبقائهـا ، وذلك ضمن اطار المجتمع القديم » .

في هاتين القاعدتين يمكنه أن يقود الى وضع سلسلة من المبادىء الاخرى للمنهجية التاريخية . وفي الوقت نفسه ، فان دراسة بنية ما تستوجب التمييز بين الحركات العضوية (الدائمة نسبيا) والحركات التي يمكن تسميتها بحركات « الوصل » (وهي حركات عرضية ، فورية ، تكاد تكون صدفية) . ومن المؤكد أن ظاهرات الوصل تعتمد هي أيضا على الحركات العضوية ، ولكن معناها ليس ذي أهمية تاريخية كبيرة ، وهي تفسح مجالا لنقد سياسي رخيص ، ليوم بعد يوم ، يثير اهتمام المجموعات القيادية الصغيرة والشخصيات المسؤولة مباشرة عن السلطة . أما الظاهرات العضوية فتفسح المجال أمام النقد السياسي ــ الاجتماعي الذي يثير اهتمام التجمعات الكبرى ، بعيدا عن الاشخاص المسؤولين مباشرة وبعيدا عن الشخصيات المسؤولة . وعند دراسة فترة تاريخية ما تبدو الاهمية الكبرى لهذا التمييز . قد تقوم أزمة ما ، وتستمر عشر سنوات في بعض الاحيان . هذه المدة الاستثنائية تعني أنه قد ظهرت في البنية (وقد نضجت) تناقضات غير قابلة للتصحيح، وأن القوى السياسية العاملة ايجابا على المحافظة على البنية نفسها والدفاع عنها تبذل جهدها في التصحيح ضمن حدود معينة لتجاوز الازمة. هذه الجهود المستمرة والدؤوبة (لان ما من صيغة اجتماعية تريد أبدا الاعتراف بأنه قد تم تجاوزها) تشكل أرضية « العرضية » التي تنظم فوقها القوى المتنازعة التي تتجه الى الاعلان (وهو اعلان يبقى معزولا في التحليل الاخير ، ويصبح « حقيقيا » اذا تحول الى واقع جديد ، واذا انتصرت القوى المتنازعة ، أما آنيا فهو يظهر في سلسلة من النقاشات والمجالات الايديولوجية والدينية والفلسفية والسياسية والقانونية .. الخ ، التي يمكن تقييم جديتها بمقدار ما تكون

مقنعة وتؤثر في ازاحة التجمع السابق للقوى الاجتماعية عن مواقعه) عن الوجود للشروط الضرورية والكافية لكي يصبح من الممكن ، والضروري ، لمهمات معينة أن تحل تاريخيا (ضروريا ، لأن كل تقاعس عن الواجب التاريخي يزيد من الفوضى الضرورية ويحضر التربة لكوارث خطيرة) .

الخطأ الذي كثيرا ما يجري الوقوع فيه في التحليل التاريخي — السياسي هو عدم معرفة العثور على العلاقة الصحيحة بين ما هو عضوي وما هو عرضي ، وهكذا يتم عرض الاسباب الفاعلة بالواسطة على أنها أسباب فاعلة مباشرة ، أو يجري التأكيد على أن الاسباب المباشرة هي الفاعلة الوحيدة . في الحالة الاولى تكون هنالك مغالاة في « الاقتصادوية » أو العقائدية المقروءة والمرددة ، وفي الثانية مغالاة في الايديولوجية ، في الحالة الاولى تكون هنالك مغالاة في تقييم الاسباب الميكانيكية ، وفي الثانية ابراز للعنصر الارادوي والشخصاني (٩) . ان التمييز بين « الحركات » والاحداث العضوية وحركات وأحداث «الوصل» أوالعرضية يجب أن يطبق على كل أنواع الحالات ، وليس فقط على الحالات التي تشهد تطورات رجعية أو ازمات حادة، بل أيضا على الحالات التي تشهد تطورات تقدمية وازدهارية، وعلى الحالات التي تشهد ركودا للقوى الانتاجية . ان الترابط الديالكتيكي بين نوعي الحركة ، وبالتالي ، البحث ، يصعب تحديده بدقة ، واذا كان الخطأ خطيرا في علم التاريخ فانه يصبح أكثر خطرا في فن السياسة عندما لا يتعلق الامر

---

(٩) تعبير « اقتصادية » مستخدم هنا للاشارة الى الربط السهل والمباشر بين القوى والحركات الاقتصادية ونتائجها السياسية ، وكذلك فان تعبير « ايديولوجية » يشير الى المغالاة في تقييم الافكار السياسية بالمقارنة مع القوى والحركات الاقتصادية .

باعـــادة تركيب التاريخ الماضي بل بصناعـــة تاريخ الحاضر والمستقبل ، حيث تكون الرغبات الذاتية والمشاعر الذاتية ، السابقة والحـــالية ، هي سبب الخطأ لانهـــا تشكل التحليل الموضوعي غير المتحيز ، وهو ما لا يحصل كـــ « وسيلة » واعية لتحريض العمل ، بل كخدمة للنفس . والافعى ، في هذه الحـــالة أيضا ، تعض الدجـــال ، أو بالاحرى تكـــون الديماغوجية هي الضحية الاولى لديماغوجيتها ..

ومن المظاهر الاخرى لنفس المشكلة مسألـــة ما يسمى بعلاقات القوة . كثيرا ما نقرأ في الرويات التـــاريخية تعبيرا عاما يقول « علاقات قوة ملائمة أو غير ملائمة لهذا الاتجاه أو ذاك » . هذه الصيغة ، بشكلها التجريدي هذا ، لا تفسر شيئا ، أو هي لا تكاد تفسر شيئا ، لانها لا تفعل أكثر مـــن استعادة الحادثة المراد تفسيرها بتقديمها مرة كحادثة ومرة اخرى كقانون مجرد وكتفسير . اذن ، فالخطأ النظري هو في جعل مبدأ البحث والتفسير « سببا تاريخيا » (١٠) .

وعلى العموم ، ففي « علاقـــات القـــوة » يجب تمييز مستويات ولحظات متباينة ، هي ـــ أساسا ـــ التالية :

١) علاقة القوى الاجتماعية المرتبطة ارتبـــاطا وثيقـــا بالبنية ، الموضوعية والمستقلة لارادة الرجال ، التي يمكن قياسها بوسائل العلوم الصحيحة أو الفيزيائية. وعلى أساس درجة أو مستوى التطور للقوى المادية للانتاج يتم الحصول على التجمعات الاجتماعية ، التي يمثل كل منها وظيفة معينة

---

(١٠) ان التاكيد المبسط البحت بان علاقات القوة هي ملائمة (او غير ملائمة) لا يعني شيئا اذا لم يفسر سبب كونها ملائمة (او غير ملائمة) . وبالتالي يجب التساؤل عن هذا « السبب » . وبهذا المعنى فان تحليـل علاقات القوى يقدم منهجية للبحث وللتفسير التاريخي .

وله موقع معين في الانتاج . هذه العلاقة هي ، في الواقع ، علاقة عاصية ، باعتبار أن ليس باستطاعة أحد تغيير عدد المؤسسات وعدد العاملين فيها ، أو عدد المدن وعدد سكانها .. الخ . هذا التجمع الاساسي يسمح بدراسة ما اذا كانت توجد في المجتمع الشروط الضرورية والكافية للتحول، أي انها تسمح بضبط درجة الواقعية ودرجة امكانية التحقيق لكافة الايديولوجيات التي ولدت على أرضية هذا الواقع ، وعلى أرضية التناقضات التي ولدها هذا الواقع خلال

٢) هنالك لحظة تالية هي علاقة القوى السياسية ، أي تقييم درجة التجانس والوعي الذاتي والتنظيم التي وصلت اليها المجموعات الاجتماعية المختلفة . ويمكن تحليل هذه اللحظة ، بدورها ، وتقسيمها الى مستويات ودرجات مختلفة منسجمة مع اللحظات المختلفة للوعي السياسي الجماعي ، كما ظهرت حتى الآن في التاريخ . أول هذه اللحظات هي اللحظة الاقتصادية ـ الكوربوراتيفية ، اذ يشعر التاجر **بواجب** التآزر مع التاجر الآخر ، والصانع **بواجب** التآزر مع الصانع الآخر .. الخ ، ولكن التاجر ما زال لا يشعر بتآزره مع الصانع . أي أن هنالك شعورا بالوحدة التجانسية ، وبضرورة تنظيمها ضمن الجماعة المهنية الواحدة ، ولكن ليس هنالك شعور بالجماعة الاجتماعية الاوسع . اللحظة الثانية هي تلك التي يتحقق فيها الوعي بتآزر المصالح بين كافة أعضاء الجماعة الاجتماعية ، ولكن في الميدان الاقتصادي البحت . ومنذ هذه اللحظة تطرح مسألة الدولة ، ولكن فقط على أرضية الوصول الى مساواة سياسية ـ قانونية بالمجموعات المسيطرة ، نظرا للمطالبة بحق المشاركة في التشريع والادارة ، وربما تعديلهما واصلاحهما ، ولكن ضمن الاطر الاساسية القائمة . اللحظة الثالثة هي اللحظة التي

يتم فيها الوصول الى وعي أن المصالح الذاتية الكوربوراتيفية، بنموها الحاضر والمستقبلي ، تتجاوز الحلقة الكوربوراتيفية للمجموعة الاقتصادية البحتة ، ويمكنها ، بل يجب عليها ، أن تصبح مصالح مجموعات أخرى خاضعة . هذه هي المرحلة الاكثر تبلورا سياسيا والتي تمثل الانتقال الواضح من البنية الى دائرة البنى الفوقية المعقدة ، وهي المرحلة التي تصبح فيها الايديولوجيات التي بذرت سابقا « حزبا » ، والمرحلة التي تتواجه فيها هذه الايديولوجيات وتدخل في صراع يستمر حتى تتجه احدى هذه الايديولوجيات ، أو تركيبا واحدا لمجموعة منها على الاقل ، باتجاه ان تسود ، وان تفرض نفسها ، وأن تنتشر في كل المساحة الاجتماعية مؤدية الى الوحدة الفكرية والوجدانية ، بالاضافة الى وحدة الاهداف الاقتصادية والسياسية ، واضعة بذلك كافة المسائل المحيطة، والتي يدور حولها الصراع ، لا على مستوى كوربوراتيفي ، بل على مستوى « شامل » ، فارضة هيمنة مجموعة اجتماعية أساسية على سلسلة من المجموعات التابعة (١١) . وعندئذ يتم فهم الدولة فعلا على اساس أنها جهاز خاص بمجموعة ،

---

(١١) اللحظات ، أو الدرجات ، الثلاث التي يحللها غرامشي تمثل ثلاث لحظات للحركة العمالية ، وهي : ١) اللحظة « الاقتصادية ـ الكوربوراتيفية » او لحظة النقابوية المهنية ، ٢) اللحظة التي تتآزر فيها الطبقة العمالية دفاعا عن مصالحها العامة، حتى على الارضية السياسية، دون ان تطرح نفسها كطبقة قائدة قادرة ، بقواها ووسائلها الذاتية ، على مواجهة وحل مشاكل الطبقات الاخرى ، وبالتالي فانها تبقى ، بالضرورة، في موقع التبعية ، ٣) لحظة الوعي الثوري الكامل التي تضع الطبقة العمالية نفسها في مركز التحالفات وتخلق حزبها الكفيل بمواجهة مشاكل الاستيلاء على السلطة بشكل جدي .

عليه أن يخلق الشروط الملائمة للحد الاقصى من توسع المجموعة نفسها ، ولكن هذا النمو وهذا التوسع يفهمان ويقدمان على أساس كونهما القوة المحركة لتوسع شامل ، ولتطوير كافة الطاقات « الوطنية » ، أي أنه يجري تنسيق المجموعة المسيطرة (لتأمين انسجامها) مع المصالح العامة للمجموعات التابعة ، وتفهم حياة الدولة على انها استمرارية تشكل وتجاوز للتوازنات غير المستقرة (في محيط القانون) بين مصالح المجموعة الاساسية ومصالح المجموعات التابعة ، وهي التوازنات التي تسود فيها مصلحة المجموعة المسيطرة، ولكن الى حد ما ، أي ليس الى حد المصلحة الاقتصادية ـ الكوربوراتيفية المنحطة .

في التاريخ الواقعي تتشابك هذه اللحظات فيما بينها بشكل متبادل ، أو كما يقال : أفقيا وعموديا ، أي حسب النشاطات الاقتصادية الاجتماعية (أفقيا) وحسب المناطق الاقليمية (عموديا) وتتركب وتنفصل بأشكال متعددة ، ويمكن لكل من هذه التركيبات أن يتمثل بتعبير تنظيمي واقتصادي وسياسي خاص به . ويجب ان يؤخذ في الاعتبار كذلك أن العلاقات الدولية تتشابك مع هذه العلاقات الداخلية للدولة القومية خالقة بذلك تركيبات جديدة أصيلة وملموسة تاريخيا. فالايديولوجية التي تولد في بلد أكثر تطورا تنتشر في بلدان أقل تطورا ، مؤثرة في اللعبة المحلية للتركيبات .

هذه العلاقة بين القوى الدولية والقوى الوطنية تتعقد اكثر فاكثر نتيجة لوجود توزعات اقليمية كثيرة ذات بنى متفاوتة وعلاقة قوة متفاوتة على كافة المستويات (وهكذا تحالفت الفاند (١٢) مع القوى الدولية الرجعية ومثلتها

---

(١٢) اقليم فرنسي كان مركزا لمقاومة القوات الملكية ضد الجمهورية الفرنسية الشابة التي ولدت من ثورة ١٧٨٩ الديمقراطية ـ البورجوازية.

داخل الوحدة الاقليمية الفرنسية ، ،هكذا مثلث ليون (١٣) خلال الثورة الفرنسية عقدة خاصة في العلاقات .. الخ) .

٣ ــ اللحظة الثالثة هي لحظة علاقة القوى العسكرية ، التقريرية المباشرة مرة بعد مرة . (يتذبذب التطور التاريخي باستمرار بين اللحظتين الاولى والثالثة، اما اللحظة الثانية فهي لحظة وسيطة بين الاثنتين) . ولكن هذه اللحظة ايضا ليست شيئا غير متميز وقابل للتعرف اليه مباشرة بصورة عمومية ، ويمكن هنا ايضا تمييز مستويين اثنين : المستوى العسكري بالمعنى الضيق او بالمعنى التكنيكي ــ العسكري ، والمستوى الذي يمكن تسميته بالمستوى السياسي ــ العسكري. وقد ظهر هذان المستويان خلال التطور التاريخي بعدد كبير من التركيبات . والمثال التقليدي الذي يمكنه ان يساعد كتوضيح ــ حد هو علاقة الاضطهاد العسكري لدولة ما والممارس ضد امة تحاول الوصول الى استقلال دولتها . هذه العلاقة ليست عسكرية بحتة ، بل هي عسكرية ــ سياسية ، وفي الواقع، فان هذا النوع من الاضطهاد لا يمكن تفسيره الا بحالة التفكك الاجتماعي للشعب المضطهد وبسلبية اكثريته ، خاصة وانه لا يمكن الوصول الى الاستقلال بالقوة العسكرية البحتة ، بل بالقوة العسكرية والقوة السياسية ــ العسكرية . والواقع انه لو كان على الامة المضطهدة ان

---

(١٣) كانت مدينة ليون الفرنسية المعروفة ، الواقعة على نهر رودان، في القرن الثامن عشر ، مركزا للصناعات النسيجية . خلال الثورة الفرنسية سيطر على مدينة ليون الاتجاه المعتدل ، واضطرت جيوش الحكومة الثورية في باريس الى احتلال المدينة وفرض سيطرتها العسكرية عليها .

تنتظر للبدء في نضالها من اجل الاستقلال ان تسمح لها الدولة المهيمنة بتنظيم جيش خاص بها بالمعنى الضيق والتكنيكي للكلمة ، فان عليها ان تنتظر طويلا (وقد تستجيب الدولة المهيمنة الى المطالبة بتنظيم هذا الجيش ، ولكن هذا يعني انه قد تم تنفيذ جزء كبير من المعركة وربحه على الارضية السياسية ـ العسكرية) . اذن ، فان الامة المضطهدة توظف في مواجهة القوة العسكرية المهيمنة ، في البداية ، قوة « سياسية ـ عسكرية » فقط ، اي انها توظف شكلا من اشكال العمل السياسي الذي له فضيلة استثارة انعكاسات ذات طابع عسكري بمعنى : ١ ـ ان يكون ذو فعالية في التفكيك الداخلي للفعالية الحربية للامة المهيمنة ، ٢ ـ ان يجبر القوة العسكرية المهيمنة على ان تميع نفسها وتضيع في مساحات ارضية واسعة ، مضيعة جزءا كبيرا من فعاليتها الحربية . ويمكن ان نلاحظ في فترة النهضة الايطالية الغياب الكارثي لقيادة سياسية ـ عسكرية ، وخاصة في حزب العمل (١٤) (نتيجة عجزه الدائم) . ولكن ايضا في الحزب البيجومنتي المعتدل ، سواء قبل عام ١٨٤٨ ام بعده ، لا بسبب العجز بل بسبب « المالتوسية الاقتصادية ـ السياسية » (١٥) ، اي لانه رفض رفضا قاطعا اية اشارة ، حتى من بعيد ، للاصلاح

---

(١٤) حول حزب العمل والحزب المعتدل والمسائل المتعلقة بهما راجع المقال المقبل « مشاكل القيادة السياسية » .

(١٥) نسبة الى نظرية الاقتصادي الانكليزي توماس روبرت مالتوس (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤) القائلة بضرورة الحد من الولادات لمنع التزايد المخيف في البؤس . وتعبير « المالتوسية الاقتصادية ـ السياسية » هنا يعني الحل الفوقي لمشكلة الوحدة الايطالية .

الزراعي ، ولانه رفض دعـــوة جمعيـــة وطنيـــة عمومية تأسيسية ، وكان يتجه فقط الى مد سلطة مملكة بيجومنتي على كل ايطاليا ، دون شروط او حدود ذات اصول شعبية، وبمجرد استصدار مراسيم باستفتاءات اقليمية .

المسألة الاخرى المرتبطة بالمسائل الوارد ذكرها سابقا هي رؤية ما اذا كانت الازمات التاريخية الاساسية ناجمة مباشرة عن الازمات الاقتصادية . ان الاجابة على هـــذا السؤال واردة بشكل ضمني في الفقرات السابقة ، حيـث جرت معالجة مسائل هي طريقة اخرى لتقديم هذه المسألة التي تجري معالجتها الان ، وعلى العموم فمن الضروري دوما ، لاسباب تعليمية ، ونظرا للجمهور الخاص، دراسة كل طريقة لتقديم نفس المسألة كما لو كانت مشكلة مستقلة وجديدة . ويمكن استبعاد ان تكون الازمات الاقتصادية ، بحد ذاتها ، سببا في احداث اساسية ، فهذه الازمات يمكنها فقط ان تخلق التربة الاكثر صلاحية لنشر طـــرق معينـــة للتفكير ، ولطرح وحل المسائل التي تتداخل في كل التطور الجاري في حياة الدولة . ومن ناحية اخرى ، فان كـــل التصريحات والبيانات المتعلقة بفترات الازمات او بفتـــرات الازدهار يمكنها ان تفسح المجال امـــام احكـــام وحيـــدة الجانب . البرت ماتييه (١٦) ، في موجزه لتاريخ الثـــورة الفرنسية ، ومعارضته للتاريخ التقليدي المشوه ، الـــذي لا بد وان يجد ازمة ما تترافق دوما مع الانكسارات الكبرى في التوازن الاجتماعي ، يؤكد انه في حوالي عام ١٧٨٩ (١٧)

---

(١٦) Albert Mathiez مؤرخ فرنسي كبير (١٨٧٤ ـ ١٩٣٢) اهم مؤلفاته هو كتاب « الثورة الفرنسية » والذي يجري فيه تقييما فـذا لروبسبيير واليعاقبة .

(١٧) ١٧٨٩ هو عام اندلاع الثورة الديمقراطيةالبورجوازية في فرنسا.

كانت الاوضاع الاقتصادية المباشرة جيدة تقريبا ، ولذلك لا يمكن القول بأن كارثة الدولة الاستبدادية انما تعود الى أزمة تزايد البؤس . ولا بد من أن نلاحظ أن الدولة كانت غارقة في أزمة مالية قاتلة وكانت تطرح على نفسها مسألة على عاتق من من الفئات الاجتماعية المتميزة الثلاثة (١٨) يجب أن يقع عبء التضحيات والاثقال لاعادة الصحة الى ماليات الدولة والبلاط . اضافة الى ذلك : اذا كانت الاوضاع الاقتصادية للبورجوازية مزدهرة ، فان من المؤكد أن الاوضاع لم تكن كذلك بالنسبة للطبقات الشعبية في المدينة والريف ، وخاصة في الريف ، اذ كان يمزقها البؤس المزمن. وعلى كل حال ، فان انكسار توازن القوى لا يكون نتيجة لاسباب ميكانيكية مباشرة من تزايد بؤس المجموعة الاجتماعية التي كانت لها مصلحة في كسر التوازن ، وكسرته في الواقع ، بل يكون ضمن اطار النزاعات العليا في العالم الاقتصادي المباشر ، والمرتبطة « بهيبة » الطبقة (المصالح الاقتصادية المستقبلية) ، والوصول الى اليأس من الشعور بالاستقلالية ومن الحكم الذاتي ومن السلطة . ان المسألة الخاصة بسوء أو جودة الحالة الاقتصادية كسبب لواقع تاريخي جديد هي مظهر جزئي من مسألة علاقات القوة في مستوياتها المختلفة . ويمكن للواقع الجديد أن يظهر سواء لان حالة الرفاهية مهددة من الانانية المنحطة لمجموعة معادية، أم لان البؤس وصل الى حد لا يمكن التسامح به ، ودون رؤية أية قوة في المجتمع القديم قادرة على التخفيف منه أو العودة الى الحالة الطبيعية بالوسائل الشرعية . وعلى

---

(١٨) هـ ، فئات النبلاء ورجال الكنيسة والبورجوازية (المسماة ايضا بالفئة الثالثة أو الدولة الثالثة) .

العموم ، يمكن القول أن كل هذه العناصر هـــي الظهور الملموس لتقلبات الوصل بين مجموع العلاقات الاجتماعيـــة للقوة ، والتي يتم علـــى أرضيتها انتقال هـــذه العلاقات السياسية للقوة لتنتهي الى العلاقة العسكرية التقريرية .

هذه العملية هي ، بشكل رئيسي ، عملية ممثلوهـــا هم الرجال وارادة وقدرة الرجال . واذا غابت عمليةالتطور هذه بقيت الحالة غير فاعلة ، ويمكنها أن تؤدي الى نهايات متناقضة ، فاما أن يقاوم المجتمع القديم ويؤمن لنفسه فترة « يستعيد فيها أنفاسه » بأن يقضي على النخبة المعاديـــة جسديا ويرهب جماهير الاحتياط ، أو يجري تدمير متبـــادل بين القوى المتصارعة ويقام سلام المقابر ، ربما تحتمراقبة حارس أجنبي .

ولكن الملاحظة الاهم التي لا بد من ايرادها في مجال كل تحليل جدي لعلاقات القوة ، هي الملاحظة التاليـــة : ان هذه التحاليل لا يمكنها ، ولا يجب أن تكون ، هدفا بحد ذاتها (الا اذا كان المرء يكتب فصلا من تاريخ الماضي) ، بل انها تكتسب معناها فقط اذا أفادت في تبرير نشـــاط عملـــي ، ومبادرة ارادة . ان هذه التحاليل تبرز أيها هي النقاطالاقل مقاومة حيث يمكن استخدام قوة الارادة بأفضل نتائجممكنة، وتوحي بالعمليات التكتيكية المباشرة ، وتدل على أفضـــل الطرق للقيام بحملة تحريض سياسي ، وما هي اللغة التـــي تفهمها الاكثرية .. الخ . ان العنصر التقريري في كل حالـــة هو القوة الدائمة المنظمة وذات اليد الطويلة التييمكن مدها عند الاعتقاد بأن الوضع ملائم (وملائم فقط لان هذه القوة موجودة وممتلئة بالحماسة القتالية) (١٩) ، ولذلك فـــان

---

(١٩) هذه القوة ، في الصراع بين البورجوازية والبروليتاريا ، هي الحزب الثوري .

المهمة الرئيسية هي الانتظار المنظم والصبور حتى تتشكل هذه القوة وتنمو وتصبح أكثر انسجاما وتماسكا ووعيا لنفسها . وهذا ما يرى في التاريخ العسكري وفي العناية التي يتم بها ، في كل العصور ، تحضير الجيوش لبدء الحرب في أية لحظة . والدول الكبرى أصبحت دولا كبرى لانها كانت، في كل لحظة ، جاهزة للدخول بفعالية في الازمات الدولية الملائمة ، وكانت هذه الازمات ملائمة لانه كانت هنالك امكانية جدية للدخول فيها بفعالية .

أو أن هنالك أية قيمة تذكر لآثار وثائقية تخلفها وراءها (٢).

هنالك ، اذن ، « العديد » من عناصر « القيـــادة الواعية » في هذه الحركات ، ولكن أيا مـــن هـــذه العناصر ليس مسيطرا ، او انه لا يتجاوز مستوى «العلم الشعبي» لشريحة اجتماعية معينة ، أو « الشعور العـــام » (٣) ، أو مفهوم العالم التقليدي لتلك الشريحة المعينة ...

ان وجود عنصر بدائي للقيادة الواعية ، وللانضباط، في كل حركة « عفوية » هو أمر مثبت مباشرة بواقع وجود التيارات والمجموعات التي تتبنى العفوية كمنهجية . في هذا المجال يجب التفريق بين عناصر « ايديولوجية »بحتةوعناصر الممارسة العملية ، بين باحثين يتبنون العفوية « كمنهجية » ثابتة وموضوعية للمستقبل التاريخي وسياسويين يتبنوهـــا كمنهجية « سياسية » . ويتعلق الامر في الحالة الاولـــى بمفهوم خاطيء ، وفي الحالة الثانية بتناقض مباشر وهزيـــل يعبر عن أصول عملية واضحة ، أي بارادة فورية لاستبدال قيادة معينة بقيادة أخرى . وحتى عند الباحثين هنالكالخطأ أصول عملية ولكنها ليست فورية مباشرة كما هي عنـــد الآخرين . ان لا سياسوية النقابويين الفرنسيين لفترة مـــا قبل الحرب كانت تضم هذين العنصرين أو الحالتـــين في آن معا ، فكانت خطأ نظريا ، وكانت تناقضا (كان هنالك العنصر « السوريلي » (٤) وعنصر التنافس بـــين الاتجاه السياسي

---

(٢) أي ان تاريخ الطبقات الشعبية يبدو « عفويا » نظرا لان « عناصر القيادة » غير ذات وثائق وليس لانها غير موجودة .

(٣) حول مفهوم « الشعور العام » راجع مقال « بضع نقاط عـــلام أولية » ، في الجزء الثالث من هذه المختارات .

(٤) حول سوريل راجع الهامش رقم (١) في مقال « الحزب الشيوعي» الوارد في الجزء الاول من هذه المختارات .

الفوضوي ــ النقابوي والاتجاه الاشتراكي) ...

وكانت الحركة التورينية (٥) قد اتهمت بكونها«عفوية» و « طوعية » أو برغسونية (٦) في آن معا (!) . ان هـذا الاتهام المتناقض مع نفسه يدل ، بالتحليل ، على خصوبـة وصحة الاتجاه المعطى للحركة . هذا الاتجاه لم يكن اتجاها « تجريديا » ، ولم يكن يستعيد بشكل ميكانيكي الصيـغ العلمية او النظرية ، ولم يكن يخلط بين السياسة، الممارسة الواقعية ، والبحث النظري ، بل كان يطبق على رجـال حقيقيين ، تشكلوا ضمن اطار علاقات تاريخيـة معينـة ، بمشاعر معينة ، وطرق معينة للرؤية ، وفئات من مفاهيـم للعالم... الخ، وكانوا قد نشأوا نتيجة لتركيبات «عفوية»، لجو معين للانتاج المادي مع التجمع «الصدفي» فيه ولعناصر اجتماعية غير متساوية . عنصر « العفوية » هذا لم يكـن مهملا ولا محتقرا ، بل لقد تم تهذيبه وتوجيهه وتطهيره مـن كل الشوائب التي قد تعكره ، لكي يصبح متجانسا ولكـن بشكل حي ، فاعل تاريخيا ، مسلح بالنظرية الحديثة (٧) . القادة أنفسهم كانوا يتحدثون عن « عفوية » الحركة ،وكان الحديث عن « العفوية » صحيحا ، فقد كان هذا التأكيـد عبارة عن محرض ومنبع للطاقة وعنصر توحيد بالعمق،وكان

---

(٥) أي حركة المجالس العمالية و « النظام الجديد » .

(٦) في مؤتمر فلورنس للحزب الاشتراكي الايطالي (١٩١٧) اتهم بالبرغسونية ، اي بالمبالغة في النشاط السياسي ، اولئك الذين كانـوا يقولون بتدخل اكثر نشاطا في الاوضاع الايطالية آنذاك . والكلمة منسوبة الى الفيلسوف هنري برغسون (١٨٥٩ ــ ١٩٤١) الذي اثرت مواقفـه الفلسفية تأثيرا عميقا بسوريل .

(٧) أي الماركسية .

أكثر من أي شيء آخر تأكيدا بأن الامـــر لا يتعلق بشـــيء اعتباطي مغامر مصطنع ، بل بشيء ضروري تاريخيا . هذا الاتجاه كان يعطي الجماهير وعيا « نظريا » خلاقا **للقيـــم التاريخية** والتشريعية ، ومؤسسا للدولة . هذه الوحدة بين « العفوية » و « القيادة الواعية » أو « الانضباط » ، هي العمل السياسي الواقعي للطبقات التابعة ، بمعنى كونـــه سياسة جماهيرية وليس مغامرات مجموعات تنسب نفسها الى الجماهير فحسب .

وفي هذا المجال تطرح مسألة نظرية أساسية هـــي : هل يمكن للنظرية الحديثة أن تكون في موقع التعارض مـــع المشاعر « العفوية » للجماهير ؟ (« عفوية » بمعنى أنهـــا ليست ناجمة عن نشاط تعليمي منظم من قبل مجموعة قائدة واعية ، بل تشكلت من خلال التجربة اليوميـــة المستنـــيرة « بالشعور العام » ، أي المستنيرة بالفهم التقليدي الشعبي للعالم ، وهو ما يسميه الكثيرون عن كسل فكري «حدسا» ، وهو ليس الا اكتسابا تاريخيـــا بدائيـــا وأوليـــا) . لا ، لا يمكنهما أن تكونا في موقع التعارض ، ان بينهمـــا اختلافـــا « كميا » ، واختلافا في المستوى ، ولكن ليس بينهما اختلاف في النوعية ، ويجب أن يكون من الممكن اجـــراء « تخفيض » متبادل ، كما يقال ، والانتقال مـــن واحدة الـــى الاخـــرى وبالعكس ... ان تجاهل أو احتقار — وهـــو الاسوأ — الحركات المسماة « عفوية » ، أي التغاضي عـــن اعطائهـــا التوجيه الواعي ورفعها الى مستوى أرقـــى بادخالهـــا في السياسة ، كثيرا ما تكون له نتائج جدية وخطيرة . وكثيرا ما يحصل أن تترافق الحركة « العفوية » للطبقات التابعـــة بحركة رجعية ليمين الطبقة السائدة تعود لاسباب متلازمة مثل أزمة اقتصادية تؤدي الـــى استياء واســـع في صفوف الطبقات التابعة والحركات الجماهيرية العفوية من جهة ،

ومن جهة أخرى تؤدي الى مؤامرات تحيكها المجموعات الرجعية التي تستغل الضعف الموضوعي للحكم لمحاولة القيام بالانقلابات . ولا بد من ذكر أن من بين الاسباب الفعالة لقيام هذه الانقلابات هو تخلي المجموعات المسؤولة عن اعطاء القيادة الواعية للحركات العفوية وجعلها ، بالتالي ، تصبح عاملا سياسيا ايجابيا . ونأخذ كمثال على ذلك حركة الفاسيريين الصقليين (٨) ونقاشات المؤرخين حولها في سبيل التحقق مما اذا كانت هذه الحركة عفوية أم مخططا لها مسبقا . يبدو لي أن العنصرين تلاحما في هذه الحركة ، اذ أن الانتفاضة العفوية للشعب الصقلي ضد حكامه امتدت بسرعة هائلة بحيث أعطت الانطباع بالتواقت، وبالتالي بكونها منسقة مسبقا ، وذلك نتيجة للاضطهاد الذي أصبح غير محتمل في كل أنحاء البلاد ، الى جانب عنصر الوعي المختلف الاهمية والفعالية والذي سيطر عليه تآمر جوفاني دا بروشيدا والآراغونيين . ويمكن العثور على أمثلة أخرى في كافة الثورات الماضية حيث كانت الطبقات التابعة متعددة ، وتجمعها وتنظمها مرتبيا مواقعها الاقتصادية ومدى انسجامها . ان الحركات « العفوية »

---

(٨) أطلق هذا الاسم في زمن لاحق على الحركة أدت في نهاية القرن الثالث عشر الى الاطاحة بسلطة الانجويين وتنصيب فيديريكو داراغونا على عرش صقلية . وكانت الحركة قد بدأت في نهاية اذار ١٢٨٢ اثناء احتفالات عيد الفصح بشكل عفوي مطلق ، ولكن المؤرخين المتأخرين لم يكن عندهم أي شك في أن الحركة قامت نتيجة لتلاحم الغضب الجماهيري الشعبي العفوي مع التآمر المنظم للعناصر التي كان قد نفاها نظام الحكم الانجوي السابق الى خارج الجزيرة ، وأبرز شخصيات هذه العناصر كان جوفاني دا بروشيدا .

لاوسع الشرائح الشعبية تجعل من الممكن وصول الطبقة التابعة الاكثر تقدما الى السلطة بسبب الضعف الموضوعي للدولة . وعلى العموم ، فان هذا يعتبر مثالا « تقدميا » ، ولكن العالم الحديث يحتوي على أمثلة رجعية أكثر ترددا .

هنالك مفهوم تاريخي ــ سياسي ، مدرسي وأكاديمي، يقول انه ما من حركة حقيقية وتستحق الاحترام الا تلك الحركة الواعية مئة بالمئة والتي تكون وليدة مخطط موضوع مسبقا بكل دقائقه أو التي تتفق كليا مع النظرية المجردة (وهو الامر نفسه) ، ولكن الواقع غني بالتركيبات الاكثر غرابة وشذوذا ، وعلى المنظر أن يبحث في اطار هذه الغرائب عن الدلائل المثبتة لنظريته ، وأن « يترجم »عناصر الحياة التاريخية الى لغة نظرية ، وليس العكس ، أي أن الواقع لا يلائم نفسه بحسب الاطار التجريدي . هذا لا يحصل ولن يحصل أبدا ، وبالتالي فان هذا المفهوم ليس الا تعبيرا عن السلبية .

اسطورة القندس (السمور) : (طارد الصيادون حيوان القندس وارادوا ان ينتزعوا خصيتيه لاستخراج دواء معين منهما ، فانتزع القندس خصيتيه بنفسه ، لكي ينقذ حياته) (٩) . لماذا لم يكن هنالك دفاع حقيقي ؟ الجواب هو ضآلة الشعور بالكرامة الانسانية والكرامة السياسية عند الاحزاب ، ولكن مثل هذه العناصر ليست أشياء طبيعية وليست نواقص يتصف بها شعب ما بشكل دائم ومميز . انها « وقائع تاريخية » يفسرها التاريخ الماضي وتفسرها

---

(٩) حيوان القندس يرمز هنا الى الاحزاب السياسية التقليدية (بما فيها الحزب الاشتراكي) التي لم تعرف كيف تنظم دفاعا فعالا ضد الفاشية .

الشروط الاجتماعية الحاضرة . **تناقضات ظاهرية** : كان هنالك مفهوم قدري وميكانيكي للتاريخ هو المسيطر(فلورنس ١٩١٧ ، الاتهام بالبرغسونية) (١٠) ، ومع ذلك فقد ظهرت مواقف تطوعية خرقاء ومبتذلة . مثال على ذلك : مشروع اقامة مجلس مديني في بولونيا عام ١٩٢٠ يقتصر على عناصر التنظيمات ، أي ايجاد نسخة أخرى لا فائدة منها ، واستبدال جهاز تاريخي ذي جذور عريقة بين الجماهير ، هو غرفة العمل ، بجهاز تجريدي بحت ذي طابع تحرري . هل كان هنالك على الاقل هدف سياسي يسعى الى هيمنة العنصر المديني وكان ، باقامة المجلس ، سيكون له مركزه الخاص به ، نظرا لان غرفة العمل كانت ريفية ؟ لقد كانت هذه النية غائبة كليا ، بالاضافة الى أن المشروع لم ينفذ .

ان خطاب تريفيس حول « الكفارة » (١١) يبدو لي أساسيا لفهم الفوضى السياسية والهواية الجدلية عند الزعماء . خلف هذه المناوشات يقبع الخوف من المسؤوليات الحقيقية ، وخلف هذا الخوف هنالك غياب تام لاي ترابط مع الطبقة الممثلة ، وهنالك غياب لاي فهم لحاجاتها الاساسية ولطموحاتها ولطاقاتها الكامنة . انه حزب ذو مشاعر أبوية ، مؤلف من بورجوازيين صغار يجعلون الذبابة تقود العربة . لماذا اللا دفاع ؟ انها فكرة نفسية الحرب ، وأن بلدا متحضرا لا يمكن « أن يسمح » بقيام مشاهد الوحشية . هذه العموميات كانت هي أيضا أقنعة لاسباب أخرى أكثر عمقا (وكانت ، من ناحية أخرى ، تتناقض مع

---

(١٠) راجع الهامش السابق رقم (٦) .

(١١) راجع الهامش رقم (٧) في مقال « في سبيل تجديد الحزب الاشتراكي » ، في الجزء الاول من هذه المختارات .

التأكيدات التي كانت تنطلق بعد كل مجزرة : « لقد قلنا دوما ، نحن ، بأن الطبقة السائدة هي طبقة رجعية ! ») ، والتي تتركز دوما في الابتعاد والانفصال عن الطبقة ، أي في « الطبقتين » : وهكذا فانهم لا يفهمون ما سيحصل اذا انتصرت الرجعية لانهم لا يعيشون النضال الحقيقي بل فقط النضال كـ « مبدأ تحرري » (١٢) . التناقض الآخر حول التطوعية : اذا كان الانسان ضد التطوعية فعليه أن يعجب « بالعفوية » . ولكن العكس هو ما كان يحصل . فكل ما هو « عفوي » هو شيء منحط ، لا يستحق أن يؤخذ في الاعتبار ، ولا يستحق حتى التحليل . في الواقع ، ان ما هو «عفوي» كان الدليل الساحق على عدم كفاءة الحزب ، لانه كان يبرز التباعد الشاسع بين البرامج الضخمة والوقائع البائسة . ومع ذلك ، فقد جاءت الاحداث « العفوية » (١٩١٩ — ١٩٢٠) ، ومست المصالح ، وضايقت مواقع مكتسبة ، واستثارت أحقادا رهيبة حتى لدى المسالمين ، وأخرجت من السلبية شرائح اجتماعية راكدة في التعفن ، وخلقت هذه الشرائح ، بسبب عفويتها ونتيجة لاستبعادها، جوا من « الرعب » العام ، ومن « الخوف الكبير » ، أديا الى مركزة القوى القمعية التي بلا رحمة في سبيل القضاء عليهما .

هنالك وثيقة رائعة حول هذا التباعد بين الممثلين والممثلين (مبني للمجهول وللمعلوم على التوالي) ، وهي

---

(١٢) كل هذه الفقرة الاخيرة تشير الى موقف الاصلاحيين (توراتي ، تريفيس .. الخ) من الفاشية والقائل بعدم مقاومة اعتداءات الكتائب الفاشية واعتبار الفاشية مظهرا انتقاليا ناجما عن نفسية الحرب .

ما يسمى بالتحالف الائتلافي بين الاتحاد والحزب (١٣)والذي يمكن مقارنته باتفاقية بين سلطة الدولة وسلطة الكنيسة . ان الحزب ، الذي هو جنين بنية الدولة ، لا يمكنه أن يسمح بأي تقسيم لسلطاته السياسية ، ولا يمكنه أن يسمح بأن يصبح بعض أعضائه ذوي مساواة معه في الحقوق ،كحلفاء « لكل شيء » ، تماما كما لا يمكن للدولة أن تسمح لجزء من رعاياها بالذهاب الى أبعد مما تقره القوانين العامة وبأن يقيم معها ، ومن خلال قوة أجنبية ، عقدا خاصا للتعايش مع الدولة نفسها . ان القبول بمثل هذا الوضع يعني ضمنا تبعية الدولة والحزب ، الواقعية والحقوقية ، لما يسمى بأكثرية الممثلين ، أي التبعية ، في الواقع ، لجماعة تطرح نفسها كموقع مضاد للدولة أو مضاد للحزب ، وتنتهي الى ممارسة السلطة مباشرة . ويبدو واضحا ، في حالةالتحالف الائتلافي ، أن السلطة ليست للحزب .

ويتوازى التحالف الائتلافي هذا مع الروابط الغريبة القائمة بين الحزب ومجموعته البرلمانية ، وهي أيضا روابط ائتلاف ومساواة في الحقوق . هذا النوع من العلاقات هو ما كان يؤدي بالحزب ، عمليا ، الى ألا يكون موجودا كجهاز مستقل ، بل الى أن يكون موجودا فقط كعنصر تشكيلي في جهاز أكثر تعقيدا يتسم بكافة الصفات التي يتميز بها حزب

---

(١٣) الاتفاقية الموقعة بتاريخ ٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١٨ بين الحزب الاشتراكي الايطالي والاتحاد العام للعمل ، والتي تفرق بوضوح بين ميادين عمل كل من الطرفين الموقعين للاتفاقية ، وتحدد بان الحزب هو الذي يقوم بتنظيم الاضرابات السياسية ، بينما يقوم الاتحاد العام للعمل بالاضرابات الاقتصادية (« دون ان يعرقل أحدهما عمل الاخر ») .

العمال (البريطاني) (١٤) ، غير المركزي ، والذي لا يتمتع بارادة موحدة .. الخ . اذن ، هل يجب أن تتبع النقابات الحزب أو تخضع لارادته ؟ ان طرح المسألة بهذا الشكل خاطيء في الاساس . ويجب طرح المسألة على الشكل التالي : كل عضو في الحزب ، مهما كان موقعه والمنصب الذي يشغله ، هو دائما عضو في الحزب ويتبع قيادته ويخضع لها . لا يمكن أن تقوم هنالك تبعية بين النقابة والحزب ، واذا اختارت النقابة بشكل طوعي قائدا لها هو عضو في الحزب فهذا يعني أن النقابة اختارت بحرية توجيهات الحزب ، وبالتالي فانها تقبل بحرية (بل وترغب) بالاشراف على مسؤوليها . هذه المسألة لم تطرح بشكلها الصحيح في عام ١٩١٩ رغم وجود سابقة كان يجب التعلم منها ، وهي سابقة حزيران (يونيو) ١٩١٤ ، لانه لم يكن هنالك في الواقع سياسة أطراف ، أي سياسة للحزب .

المركزية العضوية والمركزية الديموقراطية والانضباط:

كيف يجب فهم الانضباط ، اذا قصد بهذه الكلمة العلاقة المستمرة والدائمة بين الحكام والمحكومين والتي تحقق الارادة الجماعية ؟ من المؤكد أنه لا يمكن فهمها كتقبل سلبي وكسول للاوامر ، وكتنفيذ ميكانيكي لمهمة ما (وهو الشيء الضروري، مع ذلك ، في مناسبات معينة ، كما — مثلا — في وسط عمل مقرر مسبقا وبدىء به)؛ بل كتشرب واع وواضح للتوجيهات التي يجب تنفيذها . ومع ذلك ، فان الانضباط لا يلغي الشخصية بالمعنى العضوي ، ولكنه يحد فقط من الاختيارية ومن الاندفاع غير المسؤول ، هذا بالاضافة طبعا الى الحد من حب الظهور الاحمق . واذا فكرنا أيضا بأن مفهوم

---

(١٤) راجع الهامش رقم (١٦) في مقال الحزب الشيوعي » ، في الجزء الاول من هذه المختارات .

« الجبرية » (١٥) ، الذي تتمسك به بعض تيارات المسيحية، لا يلغي ما يسمى « بالاختيار الحر » في المفهوم الكاثوليكي، لان الانسان الفرد يقبل « بارادته » الارادة الالهية (هكذا يطرح مانزوني المسألة في « عيد العنصرة ») ، التي لا يستطيع فعلا معارضتها ، ولكنه يتعاون معها أو — على الاقل — مع كل قواها الاخلاقية . والانضباط ، على العموم ، لا يلغي الشخصية والحرية ، اذ أن مسألة « الشخصية والحرية » لا تطرح بشأن الانضباط بل بشأن « أصل السلطة التي تأمر بالانضباط » . فاذا كان هذا الاصل «ديموقراطيا» اي اذا كانت السلطة هي وظيفة تكنيكية مختصة وليست « استبدادا » أو قسرا خارجيا أو أجنبيا ، يصبح الانضباط عنصرا ضروريا للنظام الديموقراطي وللحرية . ويقال وظيفة تكنيكية مختصة عندما تجري ممارسة السلطة في جماعة متجانسة اجتماعيا (أو قوميا) ، أما عندما تجري ممارسة السلطة من قبل جماعة معينة على جماعة أخرى فيصبح الانضباط ذاتيا وحرا بالنسبة للجماعة الاولى دون أن يكون كذلك بالنسبة للجماعة الثانية .

في حالة العمل الذي بدىء بتنفيذه أو تقرر تنفيذه (دون أن يكون هنالك وقت كاف للاستفادة من طرحه للمناقشة ثم التقرير) قد يبدو الانضباط أيضا أمرا تسلطيا وخارجيا . ولكن تكون هنالك عناصر أخرى تبرره عندئذ . ومن الامور المتفق عليها بشكل عام أن قرارا (أو توجها) خاطئا جزئيا يمكنه أن يؤدي الى أضرار أقل من الاضرار التي يؤدي اليها

---

(١٥) انها العقيدة القائلة بأن الله قد « قرر مسبقا » ، ومنذ بدء الخليقة ، مصير كل انسان فرد . وتواجه هذه العقيدة بمفهوم « الاختيار الحر » التي تنسب امكانية الانسان في انقاذ نفسه الى اختياره الحر .

العصيان ، حتى لو كان العصيان مبررا بأسباب عامة ،لانه ـــ في هذه الحالة ـــ بالاضافة الى الاضرار الجزئية للقيادة الخاطئة جزئيا تتراكم أيضا الاضرار الاخرى الناجمة عن العصيان وعن ازدواج القيادة (وهذا ما حصل كثيرا في الحروب ، عندما عمد بعض الجنرالات الى رفض اطاعة الاوامر الخاطئة جزئيا أو الخطرة ، مما أدى الى كوارث أسوأ ، غالبا ما يستحيل اصلاحها) .

الانتقال من حرب المناورة (ومن هجوم المواجهة) الى حرب المواقع في الميدان السياسي أيضا : تبدو لي هذه المسألة من أهم مسائل النظرية السياسية التي طرحتهافترة ما بعد الحرب ، والاكثر صعوبة في العثور على حلها الصحيح ، فهي مرتبطة بالمسائل التي أثارها برونشتاين(١٦) الذي يمكن اعتباره ، بطريقة أو بأخرى ، المنظر السياسي لهجوم المواجهة في وقت ما كان فيه هذا الهجوم الا سببا في الهزيمة . هذا الانتقال في علم السياسة لا يرتبط الا بشكل غير مباشر (بالواسطة) بما يجري في الميدان العسكري ، رغم أن هنالك ارتباط بينهما ، وارتباط أساسي . ان حرب المواقع تحتاج الى تضحيات هائلة والى جماهير لا متناهية

---

(١٦) تروتسكي،واسمهالحقيقيالكامل هو Lev Davidovic Bronstein (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠) ، سياسي روسي كثيرا ما وجد نفسه على خلاف مع الحزب البلشفي الذي انتهى بالانتساب اليه وبان يصبح من أبرز قادته ، وبسبب موقفه المشكك بامكانية بناء الاشتراكية في بلد واحد (وهو الرأي الذي كان يدعمه ستالين) فقد طرد من الحزب في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٧ وارسل الى المنفى . ولكنه هرب ، وانتقل أولا الى تركيا ، ثم الى المكسيك حيث اغتيل في عام ١٩٤٠ .

من السكان ، وهذا ما يتطلب مركزة ضخمة للهيمنة،ويتطلب — بالتالي — شكلا للحكم أكثر « تدخلا » ، يمكنه أن يأخذ المبادرة في الهجوم على المعارضين بشكل مكشوف وينظم بشكل دائم « استحالة » التفكك الداخلي ، فيقيم المراقبة بكل أشكالها السياسية ، والادارية .. الخ ، ويقوي « مواقع » الهيمنة للجماعة السائدة .. و .. و .. الخ . كل هذا يدل على دخول مرحلة القمة في الوضع السياسي— التاريخي ، لان « حرب المواقع » في الميدان السياسي تكون، اذا ما حققت الانتصار ، تقريرية بشكل نهائي . وهذا يعني أنه يمكن القيام بحرب الحركة ، في السياسة ، طالما أن الامر يتعلق باكتساب مواقع غير تقريرية ، وهو ما لا يحتاج الى تعبئة كافة موارد هيمنة الدولة . أما عندما تفقد هذه المواقع قيمتها ، لسبب أو لآخر ، وتصبح المواقع التقريرية هي فقط ذات الاهمية ، عندئذ يتم الانتقال الى حرب الحصار ، المضغوطة ، الصعبة ، التي تتطلب نوعيات نادرة من الصبر وروح الابداع . ويكون الحصار ، في السياسة ، متبادلا ، رغم كل المظاهر . وتكفي حقيقة أن على المسيطر أن يستخدم ويكشف كل موارده دلالة على الحساب الذي يحسبه للعدو ..

القيادة والتنظيم : ان الاعتقاد يتجذر يوما بعد يوم ، أكثر فأكثر ، بأن ما لا يقل أهمية عن المبادرة هو أن يتم تنفيذ المبادرة ، وأن تتفق الوسائل والاهداف فيما بينها اتفاقا تاما (وان كان هذا لا يقصد بمعناه المادي) ، وأن يمكن الكلام عن ارادة هدف ما فقط عندما يمكن التحكم مسبقا ، وبدقة وعناية وبشكل صحيح ، بالوسائل الملائمة والكافية والضرورية (لا أقل ولا أكثر ، ولا أبعد ولا أقرب من الهدف المرسوم) . وهنالك اعتقاد راسخ كذلك بأن الافكار تسير الى الامام ، وتنفذ تاريخيا، عبر الرجال ذوي الارادة القوية،

وان دراسة هؤلاء الرجال ، واختيارهم ، وضبط ومراقبة عملهم لا يقل ضرورة عن دراسة الافكار ، و .. الخ .ولهذا فان أي تفريق بين القيادة والتنظيم (ويشمل التنظيم «التأكد والمراقبة ») انما يدل على الانحراف ، وكثيرا ما يدل على الخيانة .

مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا

مشكلة القيادة السياسية في تشكل ونمو الامةوالدولة الحديثة في ايطاليا : كل مشكلة الترابط بين التيارات السياسية المختلفة لعصر النهضة ، أي لعلاقاتها المتبادلة فيما بينها وعلاقاتها بالمجموعات الاجتماعية المتجانسة أو التابعة ، الموجودة في الفروع (أو القطاعات) التاريخية المختلفة للاراضي الوطنية ، انما تتمثل في هذا الواقع الاساسي : كان المعتدلون يمثلون مجموعة اجتماعيةمنسجمة نسبيا ، ولهذا فان قيادتهم شهدت تذبذبات محدودة نسبيا (وكانت ، على العموم ، تتبع خط تطور عضوي متدرج صعودا) ، أما ما يسمى بحزب العمل (١) فلم يكن يستند

---

(١) المعتدلون وحزب العمل هما التياران السياسيان الرئيسيان لعصر النهضة الايطالية ، وكان يتزعم التيار الاول كافور ، ويتزعم التيار الثاني ماتزيني . وكان المعتدلون هي زعماء البورجوازية الناشئة والنبلاء المتبرجزين : « رؤساء الشركات ، كبار المزارعين ، مديرو مزارع ،

وان دراسة هؤلاء الرجال ، واختيارهم ، وضبط ومراقبة عملهم لا يقل ضرورة عن دراسة الافكار ، و .. الخ .ولهذا فان أي تفريق بين القيادة والتنظيم (ويشمل التنظيم «التأكد والمراقبة ») انما يدل على الانحراف ، وكثيرا ما يدل على الخيانة .

مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا

مشكلة القيادة السياسية في تشكل ونمو الامةوالدولة الحديثة في ايطاليا : كل مشكلة الترابط بين التيارات السياسية المختلفة لعصر النهضة ، أي لعلاقاتها المتبادلة فيما بينها وعلاقاتها بالمجموعات الاجتماعية المتجانسة أو التابعة ، الموجودة في الفروع (أو القطاعات) التاريخية المختلفة للاراضي الوطنية ، انما تتمثل في هذا الواقع الاساسي : كان المعتدلون يمثلون مجموعة اجتماعيةمنسجمة نسبيا ، ولهذا فان قيادتهم شهدت تذبذبات محدودة نسبيا (وكانت ، على العموم ، تتبع خط تطور عضوي متدرج صعودا) ، أما ما يسمى بحزب العمل (١) فلم يكن يستند

---

(١) المعتدلون وحزب العمل هما التياران السياسيان الرئيسيان لعصر النهضة الايطالية ، وكان يتزعم التيار الاول كافور ، ويتزعم التيار الثاني ماتزيني . وكان المعتدلون هي زعماء البورجوازية الناشئة والنبلاء المتبرجزين : « رؤساء الشركات ، كبار المزارعين ، مديرو مزارع ،

←

الى أية طبقة تاريخية محددة ، وبالتالي فان أجهزته القيادية كانت ، في التحليل الاخير ، تتشكل بحسب مصالح المعتدلين، أي أن حزب العمل كان ، تاريخيا ، يتبع قيادة المعتدلين . والكلمة المنسوبة للملك فيكتور عمانوئيل الثاني بأنه « يضع في جيبه » حزب العمل ، أو ما شابه ذلك ، هي صحيحة عمليا ليس فقط نتيجة لعلاقات الملك الشخصية بغاريبالدي، بل أيضا لان حزب العمل كان يدار « بشكل غير مباشر »من قبل كافور والملك .

ان المبدأ المنهجي الذي يجب أن تبنى عليه الدراسة هو : ان تفوق مجموعة اجتماعية معينة يظهر بطريقتين اثنتين ، كـ « سيطرة » وكـ « قيادة فكرية وجدانية » . فالمجموعة تكون مسيطرة على المجموعات الخصم وتميل الى « تصفيتها » أو اخضاعها حتى بواسطة القوة المسلحة، وتكون قائدة للمجموعات المتحالفة أو المتعاطفة معها . ويمكن للمجموعة الاجتماعية ، بل يجب عليها ، أن تكون

أصحاب نشاطات صناعية وتجارية » (كما يصفهم غرامشي فيما بعد). وكان هؤلاء يؤيدون ، بالتالي ، الحل الملكي البييمونتي لمشكلة الوحدة والاستقلال الوطني . أما الاخرين فكانوا يمثلون بشكل أساسي الشرائح الراديكالية من البورجوازية الصغيرة (مثقفون ، حرفيون ، صغار الصناعيين ..) وكانوا يؤيدون الحل الجمهوري . وتشكل العلاقات التي كانت قائمة بين هذين التيارين الموضوع الرئيسي الذي يدور حوله مقال غرامشي هذا . وتضم هذه الفقرة الاولى لب فكرة غرامشي القائلة بأن المعتدلين كانوا يمارسون هيمنتهم على خصومهم في حزب العمل ، وهو ما يفسر بشكل أخص طابع المحافظة التي اتسمت بها الدولة البورجوازية الايطالية والطبقة الحاكمة في فترة ما بعد النهضة .

قائدة حتى قبل الاستيلاء على السلطة الحكومية (وهذا هو أحد الشروط الاساسية للاستيلاء على السلطة) ، أما بعد ذلك ، عندما تمارس السلطة ، وحتى لو حافظت عليها بقوة في قبضتها ، فانها تصبح مسيطرة ، ولكن عليها أن تستمر في أن تكون « قائدة » أيضا (٢) . وقد استمر المعتدلون في قيادة حزب العمل حتى بعد ١٨٧٠ وبعد ١٨٧٦ (٣) ، وما

---

(٢) نجد هنا أحد المبادىء الاساسية للفكر الغرامشي مصاغا بطريقة تركيبية وفي غاية الوضوح ، وهو الذي يتعلق بالعلاقة بين الديكتاتورية (السيطرة) والهيمنة (القيادة الفكرية والوجدانية) ، بين الاكراه والموافقة . ان على كل طبقة ، لكي تثبت سلطتها ، أن تمارس الديكتاتورية على الطبقات الخصم ، ولكن عليها في نفس الوقت ان تضمن قيادة الطبقات والشرائح الاجتماعية الاخرى التي ليست خصما . العلاقة بين هاتين اللحظتين ، الرئيسيتين كلاهما ، انما تبرز من نفس واقع السلطة والدولة ، لم ينظر لها غرامشي بشكل تجريدي نهائي . وتتحدد هذه العلاقة تاريخيا بحسب الاوضاع الموضوعية وعلاقات القوى .. الخ . ويجدر بالتوضيح انه لا يمكن الغاء أي من هاتين اللحظتين (طالما ان الدولة موجودة ، على الاقل) ، وان لحظة الموافقة ليست أساسية للاستيلاء على السلطة فحسب ، بل انها في غاية الضرورة للمحافظة على السلطةوتقويتها ولبناء المجتمع الجديد . ويعتبر فكر غرامشي تطويرا فريدا وأصيلا للفكر اللينيني حول تحالف الطبقات .

(٣) عام ١٨٧٠ هو عام اجتياح روما من قبل قوات الوحدة الايطالية، ويعتبر نهاية عصر النهضة . أما عام ١٨٧٦ فهو العام الذي أضطر فيه تقليديو المعتدلين (اليمين التاريخي) الى التنازل عن الحكم لما يسمى باليسار ، في الواقع ان هذا التحول لا يعني أن قيادة الدولة انتقلت من مجموعة اجتماعية الى مجموعة اخرى ، بل فقط تحول جزئي داخل القوى المعتدلة والمجموعات الاقتصادية التي تمثلها .

يسمى « بالتحولية » (٤) لم يكن في الواقع الا التعبير البرلماني عن هذا العمل من الهيمنة الفكرية والوجدانية والسياسية . بل انه يمكن القول أن حياة الدولة في كل ايطاليا اتسمت منذ عام ١٨٤٨ (٥) وما بعد بالتحولية ، أي بخلق طبقة حاكمة تتزايد اتساعا باستمرار ضمن الاطار الذي حدده المعتدلون بعد عام ١٨٤٨، وبسقوط الطوباويات النيوغويلفية والفيدرالوية (٦) ،وذلك بالامتصاص التدريجي،

---

(٤) لان « اليسار » و « اليمين » لم يكونا يمثلان مصالح طبقية متضادة ، بل مصالح مجموعات متعددة تنقسم اليها القوى الاقتصادية المسيطرة في ايطاليا ، فانه كثيرا ما كانت تقوم الاتفاقات بين مجموعات اليمين واليسار حول مسائل معينة . هذه التسويات المستمرة والتغيرات الكثيرة والمفاجئة في مواقف النواب كانت تسمى « التحولية » .

(٥) ١٨٤٨ يعتبر هنا عام فشل المحاولة الاكثر ديمقراطية لحل مسائل الوحدة والاستقلال ، وعام انهيار نفوذ حزب العمل .

(٦) « النيوغويلفيون » هو الاسم الذي كان يطلق على التيارات المطالبة بحل مسألة الوحدة تحت ظل سلطة البابوية . وكان فينشينزو جوبرتي (١٨٠٢ – ١٨٥٢) هو اكبر منظري هذا التيار ، وهو فيلسوف وطني له مؤلفات عديدة كانت ذات تأثير واسع في عهد النهضة . وكلمة « غويلفو » كانت تعني في العصور الوسطى اولئك الداعمين والمؤيدين للسلطة البابوية ضد دعاة السلطة الامبراطورية .

أما التيارات الفيدرالوية فهي التيارات التي كانت ترى حل مسألة الوحدة عن طريق اقامة اتحاد فيدرالي بين كل الدويلات التي كانت ايطاليا تتألف منها آنذاك . وكان أبرز دعاة هذا التيار هو كارلو كاتانيو (١٨٠١ – ١٨٦٩) ، وهو اقتصادي ومؤرخ وناقد وفيلسوف ، وكان يدير تحرير مجلة « بوليتكنيكو » التي ساهمت الى حد بعيد في قيام الثقافة الايطالية الحديثة قبل عام ١٨٤٨ .

ولكن المستمر ، للعناصر الناشطة التي برزت في المجموعات الحليفة وحتى في المجموعات الخصم التي كانت تبدو معادية بشكل عنيد ، وهو الامتصاص الذي تم التوصل اليه بطرق تتباين في فعاليتها . بهذا المعنى أصبحت القيادة السياسية مظهرا من مظـــاهر وظيفية السيطرة ، لان امتصاص نخبـــة المجموعات المعادية يعني قطع أعناقها وتجميدها لفترة غالبا ما تكون طويلة جدا . من سياسة المعتدلين يبـــدو بوضوح أنه يمكن أن تكون هنالـــك ، بـــل يجب أن تكون هنالـــك ، نشاطات هيمنوية حتى قبل الوصول الى السلطة ، وأنه لا يجب الاعتماد فقط على القوة المادية التي توفرها السلطـــة لممارسة قيادة فعالة . والحل الذكي لهذه المشاكل هو مـــا جعل النهضة ممكنة بالصيغ والحدود التي تمت بها ، دون «رعب» ، و« كثورة » بلا « ثورة » ، او « كثورة سلبية » اذا أردنا استخدام التعبير الذي استخدمه كووكو (٧)بمعنى مختلف قليلا عن الذي أراده كووكو نفسه .

بأية صيغ ، وبأية وسائل ، نجح المعتدلون في اقامـــة جهاز (أو آلية) هيمنتهم الفكرية والوجدانية والسياسية ؟ لقد نجحوا في ذلك باستخدام صيغ ووسائل « ليبرالية » ، اي من خلال المبادرة الفردية، «الوحيدة الخلية» ، «الخاصة» (اي ليس ببرنامـــج حـــزب موضوع حسب خطة مسبقة للممارسة العملية والتنظيمية) . وعلى العموم ، فقد كـــان

---

(٧) Vinceuzo Cuoco ١٧٧٠ — ١٨٢٣ ، كاتب وسياسي اشترك في ثورة نابولي (١٧٩٩) وكتب حولها مؤلفـــا هاما هـــو « المقـــالة التاريخية حول ثورة نابولي » . ان مفهوم « الثورة السلبية » عند كووكو كان يرتبط بحقيقة ان الثورة في نابولي كانت قد قامت كردة فعل لاحداث خارجية (هي الثورة الفرنسية) ولم تعرف ان تزج بنفسها في الحاجات الملموسة والحقيقية للشعب .

هذا أمرا « طبيعيا » ، نظرا لبنيـــة ووظيفة المجموعـــات الاجتماعية التـــي يمثلها المعتدلون ، والتي كانوا هم فئتها القيادية ، وهم مفكروها بمعنى عضوي (٨) .

وكانت المشكة تطرح على حزب العمل بطريقةمختلفة تحتاج الى استخدام طرق تنظيمية مختلفة . كان المعتدلون عبارة عن مفكرين « مكثفين » (٩) بشكل طبيعي نتيجـــة لعضوية علاقاتهم بالمجموعات الاجتماعية التي كانوا هـــم التعبير عنها لسلسلة من هذه المجموعات كانت تتحقق هوية المثّل والممثّل ، أي أن المعتدلين كـــانوا طليعـــة حقيقيـــة وعضوية للطبقات العليا ، لانهم هم أنفسهم كانوا جزءا من هذه الطبقات العليا . كانوا مفكرين ومنظمين سياسيـــين ، وهم في الوقت نفسه ، رؤساء شركات ، ومزارعون كبارا ، أو مديرو مزارع ، وأصحاب نشاطات صناعية أو تجارية.. الخ) . ونظرا لهذا التكثيف أو هذا التمركز العضوي ، فقد كان للمعتدلين جاذبية كبرى يمارسونها ، بطريقة « عفوية » على جماهير المفكرين من أي مستوى كانوا ، الموجودين في أنحاء شبه الجزيرة في حالة « الانتشار » والحالة « الوحيدة الخلية » ، نتيجة للحاجات التعليمية والادارية ، رغم بدائية تلبية هذه الحاجات . ويبرز هنا مدى ثبات منهجيـــة مبـــدأ

---

(٨) « المفكر العضوي » هو احد المفاهيم الاساسية التـــي وضعها غرامشي نفسه . والمفكر العضوي هو ذلك المفكـــر الذي ينشأ « عـــلى الارضية الاصلية لوظيفـــة اساسية في عالم الانتاج الاقتصادي » ، كمـــا يقول غرامشي نفسه . وهكذا ، فمثلا « الصناعي الرأسمالي يخلق معـــه تقني الصناعة وعالم الاقتصاد السياسي والمنظم للثقافة الجديدة وللحقوق الجديدة .. الخ » . وعلى العكس من ذلك فان العامل يخلق معه المنظـــم النقابي ، والثوري الممتهن ، ويخلق ، هـــو أيضا ، منظمي الثقافـــة الجديدة .. الخ .

(٩) أي متجانسين وموحدين .

البحث التاريخي ــ السياسي اذ ليس هنالك طبقة مستقلة من المفكرين ، بل ان لكل مجموعة اجتماعية شريحتها من المفكرين او ان هذه الشريحة تميل الى التشكل . ولكن مفكري الطبقة التقدمية تاريخيا (أو واقعيا) ، في الشروط المعطاة ، يمارسون قوة جاذبية كبيرة تجعلهم ينتهون ، في التحليل الاخير ، الى الحاق مفكري المجموعات الاجتماعية الاخرى بهم ، وبالتالي خلق شبكة من التآزر بين كافة المفكرين ذات روابط من طابع نفساني (الخيلاء والزهو .. الخ) وغالبا ما تتخذ طابع الطائفة المغلقة على نفسها (الطابع التكنيكي ــ القانوني ، او الكوربوراتيفي.. الخ).

هذا الامر يحدث « بشكل عفوي » في المراحل التاريخيةالتي تكون فيها مجموعة اجتماعية ما تقدمية حقا ، أي أنها تجعل كل المجتمع يتقدم فعلا ، مرضية لا حاجات البقاء فحسب ، بل موسعة باستمرار كوادرها لمتابعة تملك قطاعات جديدة من النشاطات الاقتصادية ــ الانتاجية . وما أن تنتهي المجموعة الاجتماعية المسيطرة من القيام بوظيفتها حتى تميل الكتلة الايديولوجية الى التفكك ، وعندئذ قد تستبدل « العفوية » بـ « البناء » في صيغ تتناقص في التلميح والطرق غير المباشرة ، وذلك حتى الوصول الى اجراءات بوليسية حقيقية والى الانقلابات (١٠) . حزب العمل ، نظرا

---

(١٠) ان البورجوازية ، ما أن تنتهي من القيام بوظيفتها في التقدم، حتى تبدأ بفقدان تاييد مجموعات هامة من المفكرين كانت تشكل الرابط بين البورجوازية وشرائح واسعة من الجماهير الشعبية ، وهذا ما يزيد من حاجتها الى اللجوء اكثر فاكثر الى أساليب الاكراه والقسر والافساد والرقابة ، وحتى تصل الى صيغ فاشية معلنة . ومن هنا تنبع ، من ناحية اخرى ، أهمية قيادة هذه المجموعات من المفكرين والتاثير عليها بالنسبة للطبقة العمالية .

لطبيعته ، ليس فقط لم يكن يستطيع ان تكون له مثل هـذه الجاذبية ، بل كان هو نفسه منجذبا ومتأثرا بغيره ، سواء نتيجة لاجواء التخويف (ذعر عام ١٧٩٣ الذي قوي بالاحداث الفرنسية ١٨٤٨ — ١٨٤٩) التي جعلته يتردد في تبني برنامجه لبعض المطالب الشعبية (مثل الاصلاح الزراعي) (١١) ، أم لان بعض أبرز شخصياته (غاريبالدي) كانت على علاقة شخصية وتبعية بقادة المعتدلين ، وان كانت هذه العلاقة متقطعة (متذبذبة) (١٢) . ولكي يصبح حزب العمل قوة مستقلة ، ولكي ينجح ، في التحليل الاخير ، في أن يطبع حركة النهضة ، على الاقل ، بطابع أكثر شعبية وديموقراطية (ولم يكن ربما يستطيع الذهاب الى أبعد من ذلك نظرا للمقدمات الاساسية للحركة نفسها) ، كان عليه أن يواجه النشاط « التجريبي » (١٣) للمعتدلين (الذي كان تجريبيا فقط في الظاهر ، اذ انه كان يخدم الهدف تماما) ببرنامج عضوي للحكم يعكس المطالبات الاساسية للجماهير الشعبية ، والفلاحين قبل كل شيء ، وكان عليه أن يواجه الجاذبية « العفوية » للمعتدلين بالمقاومة والهجوم المعاكس « المنظم » حسب خطة مرسومة .

---

(١١) يشير غرامشي الى خشية القوى المتجمعة ضمن حزب العمل من تضمين برنامج الحزب مطالب ذات طابع اقتصادي — اجتماعي تستثير حولها حركة قوية للجماهير الشعبية . هذه الخشية كانت تغذيها ذكريات فترة « الرعب » في الثورة الفرنسية (١٧٩٣) والتحركات والانتفاضات الشعبية الباريسية (١٨٤٨ — ١٨٤٩) .

(١٢) اشارة الى علاقة غاريبالدي بكافور .

(١٣) كما يقول غرامشي أعلاه لم يكن المعتدلون يعملون في الظاهر بحسب برنامج موضوع مسبقا ، ومن هنا فان عملهم كان يبدو « تجريبيا » بمعنى ان مقتضيات الحالة كانت تفرضه مرة بعد اخرى .

وكمثال نموذجي عن الجاذبية العفوية للمعتدلين يمكننا أن نذكر تشكل ونمو الحركة « الكاثوليكية الليبرالية » (١٤) التي أزعجت الى حد كبير الكرسي البابوي ونجحت الى حد ما في شل حركته وتحطيم أعصابه ، دافعة اياه في مرحلة أولى كثيرا نحو اليسار — بالمظاهر التحررية للبابا بيوس التاسع — ثم في مرحلة ثانية قذفت به الى اليمين أكثر بكثير مما كان يمكنه أن يفعل ، ثم في النهاية أدت هذه الحركة الى عزل مركز البابوية سواء في شبه الجزيرة أم في اوروبا . ولكن البابوية أثبتت أنها تعلمت الدرس وعرفت فيما بعد كيف تناور ببراعة عندما ظهرت الحركة العصرانية (١٥) أولا، ثم الحركة الشعبوية(١٦) فيما بعد ، وهما حركتان مشابهتان

---

(١٤) كانت الحركة الكاثوليكية الليبرالية تتجه الى التوفيق بين المبادىء الليبرالية وتلك الكاثوليكية ، والى ادخال الكنيسة في حركة توحيد واستقلال ايطاليا . واثار البابا بيوس التاسع ، بمجرد اعتلائه الكرسي البابوي (١٨٤٦) وبتصرفاته الليبرالية ، آمالا واسعة لدى الوطنيين الايطاليين ، ولكن هذه المواقف لم تدم طويلا ، فبعد عام ١٨٤٨ أصبح بيوس التاسع أعدى أعداء الليبرالية والحركة الوحدوية ، ووضع جدولا « بالخطيئات » التي تدينها الكنيسة ، ومن بينها الليبرالية ، بالاضافة الى الفوضوية والاشتراكية طبعا .

(١٥) العصرانية Modernismo هو الاسم الذي أطلق على حركة اصلاح الكاثوليكية التي قامت في مطلع هذا القرن والتي أدانتها الكنيسة أيام البابا بيوس العاشر . وكان العصرانيون يريدون ان يكونوا كاثوليكيين « بانسجام مع روح عصرهم » وتكييف الكاثوليكية مع كل مكتسبات العصر الحديث .

(١٦) راجع الهامش رقم (١١) في مقال « الحزب الشيوعي » في الجزء الاول من هذه المختارات . ولكن التعبير هنا أشمل ويشير الى مجموع السياسة « الاجتماعية » الكاثوليكية التي تتجه الى تأمين الارتباط بين الكنيسة والجماهير الشعبية (والفلاحية خاصة) لمقاومة النفوذ الاشتراكي .

للحركة الكاثوليكية الليبرالية في عصر النهضة وتعتمدان الى حد كبير على قوة الجاذبية العفوية التي تمارسها التاريخوية الحديثة للمفكرين العلمانيين للطبقات العليا من جهة ، ومن جهة أخرى تمارسها الحركة العملية لفلسفة الخطوات الاجرائية (١٧) . وقد حاربت البابوية العصرانية باعتبارها اتجاها لاصلاح الكنيسة والدين الكاثوليكي ، ولكنها عملت على تنمية الشعبوية ، أي القاعدة الاقتصادية ـ الاجتماعية للعصرانية ، ثم جعل منها اليوم البابا بيوس العاشر محور سياسته العالمية .

ولكن حزب العمل لم يكن يملك حتى برنامجا جديا للحكم . وكان الحزب ، في الجوهر ، ودوما ، جهازا للتحريض والدعاية في خدمة المعتدلين أكثر من أي شيء آخر ، والخلافات والنزاعات الداخلية في حزب العمل ، والكراهية العميقة التي استثارها ماتزيني ضد شخصه ونشاطاته عند أبرع رجاله العمليين (غاريبالدي ، فيليتشي أورسيني (١٨) .. الخ) ، كانت كلها نتيجة لغياب وجود قيادة سياسية صلبة . وكان الجدل الداخلي تجريديا في أغلبيته بقدر ما كانت تجريدية أيضا مواعظ ماتزيني ، التي، مع ذلك ، يمكن أن تستنبط منها دلالات تاريخية مفيدة (قيمة

---

(١٧) « الحركة العملية لفلسفة الخطوات الجريئة » تعبير كان غرامشي يستخدمه ويقصد به الاحزاب الماركسية ، والنص الايطالي الاصلي هو :
Movimento Pratico Dalla Filasofia Delle Prassi

(١٨) Felice Orisini (١٨١٩ ـ ١٨٥٩) وطني تآمري، اعدم نتيجة لمحاولة اغتيال نابوليون الثالث الذي كان يرى فيه المسؤول الاول عن الاوضاع السيئة في ايطاليا . وكانت خلافاته مع ماتزيني قد بدأت بعد فشل المحاولتين الثوريتين في سارزانا وفالتيلينا (١٨٥٣ ـ ١٨٥٤) .

في هذا المجال كتابات بيراكاتي (١٩) الذي ارتكب، من ناحية أخرى ، أخطاء سياسية وعسكرية لا تغتفر ، مثل معارضة الديكتاتورية العسكرية لغاريبالدي في جمهورية روما) . كان حزب العمل مشربا بالفصاحة التقليدية للادب الايطالي، وكان يخلط بين الوحدة الثقافية الموجودة في شبه الجزيرة — المحدودة مع ذلك بشريحة رقيقة جدا من السكان والتي تعكرها كونية (٢٠) الفاتيكان — والوحدة السياسية والاقليمية للجماهير الشعبية الواسعة التي كانت غريبة عن هذه التقاليد الثقافية ولا تهتم بها أدنى اهتمام ، هذا اذا كانت تعرف بوجودها . ويمكن اجراء المقارنة بين اليعاقبة (٢١) وحزب العمل . فقد ناضل اليعاقبة بقوة

---

(١٩) Carlo Pisacane (١٨١٨ — ١٨٥٧) وطني ايطالي من عهد النهضة حارب عام ١٨٤٨ في مقاطعة لومبارديا واصبح رئيسا لهيئة الاركان في جمهورية روما عام ١٨٤٩ . اتصل بكارلو كاتانيو وبممثلي الاشتراكية الفرنسية واتخذ لنفسه من ثم اتجاها اشتراكيا واضحا . وضع مؤلفا شهيرا اسمه « مقالة في الثورة » ينظر فيه لضرورة ربط الفلاحين بالحركة الثورية بتوزيع الاراضي عليهم .

(٢٠) يشير غرامشي هنا الى تحليله لتشكل المفكرين في ايطاليا ، ذلك ان وجود منظمة كبرى « غير وطنية » في ايطاليا ، هي الكنيسة ، أدخلت في هذا التشكل اتجاهات كونية « كوزموبوليتالية » . يقول غرامشي : « يمكن اعتبار عصر النهضة تعبيرا ثقافيا لعملية تاريخية تشكلت خلالها في ايطاليا طبقة جديدة من المفكرين من حجم اوروبي ، وهي طبقة تقسم الى فرعين : الاول مارس في ايطاليا وظيفة كونية مرتبطة بالبابوية وذات طابع رجعي ، والثاني تشكل في الخارج من السياسيين ورجال الدين الهاربين ومارس وظيفة كونية تقدمية في مختلف البلدان التي استقر بها» .

(٢١) يعاقبة الثورة الفرنسية هم اعضاء الجماعة السياسية التي كانت تجتمع في دير سابق لليعاقبة (الدومينيكان) في باريس . وتحت تاثير قادة ثوريين كبار ، مثل مارات وروبسبيير ، اتجهوا اتجاها راديكاليا وديموقراطيا . تحكموا لفترة معينة في الاوضاع السياسية الفرنسية دعموا خلالها مطالب الفلاحين ، واظهروا قوة هائلة في الدفاع عن الجمهورية التي كان اعداؤها يهددونها من الداخل ومن الخارج .

لاقامة الروابط بين المدينة والريف وخرجوا منتصرين . أما
لاقامة الروابط بين المدينة والريف وخرجوا منتصرين . أما هزيمتهم كحزب فقد نجمت عن اصطدامهم عند نقطة معينة بحاجات العمال الباريسيين ، ولكنهم استمروا ، في الواقع، بشكل اخر منذ نابوليون وحتى اليوم ، بشكل بائس جدا ، عبر الراديكاليين ــ الاشتراكيين بزعامة هيريوت ودالاديه (٢٢) ...

اذا ما جرى التعمق في المسألة ، ظهر ان التباين بين كثير من رجال حزب العمل والمعتدلين كان تباينا في «الطباع» أكثر منه تباينا عضويا ذو طابع سياسي . ان كلمة «يعاقبة» انتهت الى أن تتخذ لنفسها معنيين مختلفين : الاول هو المعنى الصحيح للكلمة المتسم تاريخيا بكونه ذلك الحزب المعين للثورة الفرنسية الذي فهم مسيرة الحياة الفرنسية بطريقة معينة ، وببرنامج معين،على أساس قوى اجتماعية معينة ، وقام بعمله كحزب وكحكومة بمنهجية معينة اتصفت بالنشاط والتقريرية والحسم المعتمدين على الاعتقاد المتعصب بجودة ذلك البرنامج وتلك المنهجية . أما في اللغة السياسية فقد انفصل مظهرا اليعاقبةوصار يسمى«يعاقبيا» رجل السياسة النشيط والحازم والمتعصب ، لانه يعتقد ــ بتعصب ــ بالفضائل العلاجية لآرائه مهما كانت هذه الآراء . في هذا المعنى تسود العناصر التدميرية الناجمة عن الحقد على الخصوم والاعداء أكثر من العناصر البناءة الناجمة عن تبني مطالب الجماهير الشعبية ،ويسود العنصر الفئوي والتآمري للجماعة الصغيرة وللفردية المطلقة اكثر

---

(٢٢) Edouard Herriot و Edouard Daladier رجلا سياسة شهيران في فرنسا ، نشطا بشكل اخص في فترة ما بين الحربين العالميتين عبر الحزب الراديكالي ــ الاشتراكي . واستلم كلاهما منصب رئاسة الوزارة اكثر من مرة .

من العنصر السياسي الوطني . وهكـذا ، فعندما نقـرأ أن كريسبي (٢٣) كان « يعاقبيا » فعلينا أن نفهمه بهذا المعنى المتخلف . من حيث البرنامج كان كريسبي معتدلا صافيـا وبسيطا . وكانت « عقدته » اليعاقبية الاكثر نبلا هـي الوحدة السياسية ـ الوطنية للبلد . وكان هـذا المبـدأ باستمرار هو بوصلته الموجهة ، ليس فقط في فترة النهضة بمعناها الضيق ، بل أيضا في المرحلة التاليـة ، مرحلـة اشتراكه في الحكم . وكان كريسبي ، الرجل الكبير المشاعر، يكره المعتدلين كأشخاص ، وكان يرى فيهم رجال الساعـة الاخيرة ، وابطال اليـوم نفسه ، اناسا عـلى استعداد للمصالحة مع الانظمة القديمة لو رضيت هذه الانظمـة أن تصبح دستورية ، أناسا ـ كالمعتدلين التوسكانيين (٢٤) ـ الذين كانوا قد تعلقوا بسترة الغراندوق لمنعه من الهرب . ولم يكن كريسبي كثير الثقة بوحدة يقيمهـا اللا وحدويون . ولهذا ارتبط كريسبي بالملكية التي فهم انها ستكون حازمة في وحدويتها لاسباب تتعلق بارث التاج ، وعانق مبدأ الهيمنـة البييمونتية بقوة وعزم لم يتوافرا لرجال السياسة البييمونتيين أنفسهم . وكان كافور قد حذر من التفاوض مع الجنوب في ظل حالة الحصار ، أما كريسبي فقد أقام فورا حالـة الحصار ، وأقام المحاكم العرفية في صقليـة لحركـة

---

(٢٣) Francesco Crispi (١٨١٨ ـ ١٩٠١) ، رجل سياسة صقلي ، شارك في انتفاضة ١٨٤٨ وكان احد منظمي حملة الالف مقاتل عام ١٨٦٠ . اصبح رئيسا للوزراء في عام ١٨٨٧ ، وكـان الدافـع الرئيسي للتحالف مع المانيا عام ١٨٩٣ وكذلك لسياسة التوسع الاستعماري. قضى بقسوة وعنف على الحركات الفلاحية في صقلية .

(٢٤) كان للمعتدلين التوسكانيين اتجاهات ليبرالية وتجديدية حديثـة خلال فترة النهضة ، وعملوا ببطء للانضمام الى بيمونتي ، ضد التيـار الجمهوري الانفصالي في توسكانا .

« الحزمات » (٢٥) ، واتهم زعماء هذه الحركة بالتآمر مع انكلترا لتحقيق انفصال صقلية (معاهدةبيزاكونيو المزعومة). وارتبط كريسبي ارتباطا وثيقا باقطاعيي صقلية لانهم كانوا الفئة الاكثر وحدوية نتيجة لخوفهم من المطالب الفلاحيةبينما كانت السياسة العامة تتجه الى تقوية الصناعة في الشمال عبر حرب التسعيرات ضد فرنسا وعبر الحماية الجمركية (٢٦) . ولم يتردد كريسبي في أن يقذف بالجنوب والجزر في أحضان أزمة تجارية مخيفة بهدف تقوية الصناعة التي يمكنها أن تمنح البلاد الاستقلال الفعلي وتوسع أطر المجموعة الاجتماعية المسيطرة ، وكانت هذه سياسة صناعة الصناعة (٢٧) . ولم تكن حكومة اليمين التيامتدت من عام ١٨٦١ وحتى عام ١٨٧٦ قد نجحت في أكثر من خلق الشروط الخارجية العامة للنمو الاقتصادي ، مثل تنظيم الجهاز الحكومي والطرق والسكك الحديدية والتلغراف واصلاح الوضع المالي الذي كان قد أنهك خلال حروب

---

(٢٥) « الحزمات الصقلية » (جمع حزمة) ، هي منظمات عمالية وفلاحية استهدفت الدفاع عن مصالح الشغيلة ، وتزعمت هذه المنظمات التحركات التي انفجرت عام ١٨٩٤ وقمعت بشكل دموي عنيف . وبيزاكوينو قرية قريبة من مدينة بالرمو عاصمة صقلية . خلال تلك الانتفاضة بثت شائعات عن معاهدة عقدت بين الشغيلة الصقليين وانكلترا لفصل صقلية عن ايطاليا ، وانه قد جرى توقيعها في تلك القرية ومن هنا الاسم الذي اطلق عليها . ولكن المعاهدة كانت اسطورة فقط .

(٢٦) شنت حكومة كريسبي حربا جمركية رهيبة ضد فرنسا بهدف منع انتاجها من دخول الاراضي الايطالية ، ولكن هذه الحرب الجمركية اضرت ضررا كبيرا بمزارعي جنوب ايطاليا الذين ما عادوا يستطيعون تصدير انتاجهم الى فرنسا ، وبالتالي زادت من تأزيم المسالة الجنوبية .

(٢٧) اي سياسة بناء الصناعة الثقيلة المنتجة لمختلف الالات اللازمة للقطاعات الصناعية المختلفة (ملاحظة المعرب) .

النهضة ، واستطاع اليسار أن يصلح الكراهية التي أثارتها لدى الشعب الضرائبوية الوحيدة الاتجاه التي فرضها اليمين ، ولم ينجح في أن يكون أكثر من صمام أمان ، فقد استمر في سياسة اليمين برجال يساريين وألفاظ يسارية . أما كريسبي فقد نجح في تسجيل قفزة حقيقية الى الامام في حياة المجتمع الايطالي الجديدة ، وكان بذلك الممثل الحقيقي للبورجوازية الجديدة ، واتسمت شخصيته ، على العموم، بالتفاوت الكبير بين الوقائع والكلمات ، بين أنواع القمع المختلفة وموضوع القمع ، وبين الاداة والضربة الموجهة . كان يستخدم « الطوب » القديم الصديء كما لو كان مدفعا حديثا . حتى السياسة الاستعمارية لكريسبي بقيت مرتبطة بعقدة الوحدوية ، وبهذا استطاع أن يفهم البراءة السياسية للجنوب. كان فلاح الجنوب يريد امتلاك الارض ، وكريسبي، الذي ما كان يريد (أو يستطيع) منحها له في ايطاليا ، والذي لم يكن يريد أن يصبح « يعاقبيا اقتصاديا » ، صور أمام هذا الفلاح سراب أراضي المستعمرات لاستغلالها . وكانت امبريالية كريسبي امبريالية عاطفية ، خطابية ، دون أية قاعدة اقتصادية ــ مالية . كانت أوروبا الرأسمالية ، الغنية بالوسائل ، والتي وصلت الى نقطة بدأ فيها هامش الربح يشير بالاتجاه الى الانخفاض (٢٨) ، بحاجة ماسة الى توسيع رقعة استثماراتها المثمرة ، وهكذا أقيمت بعد عام

---

(٢٨) انخفاض هامش الربح هو اتجاه رأسمالي فسره ماركس في القسم الثالث من « رأس المال » . وبشكل عام ومبسط يمكن القول انه نظرا لتزايد توظيف رأس المال في ثمن الآلات ، وانخفاضه ، نسبيا ، في رأس المال الموظف في اجور العمال الذين هم المنتجون الوحيدون لفائض رأس المال ، فان فائض رأس المال يتجه الى الانخفاض (اذا ما بقيت الشروط الاخرى ثابتة) بالنسبة لرأس المال الموظف بكامله .

١٨٩٠ الامبراطوريات الاستعمارية الكبيرة . ولكن ايطاليا كانت ما زالت غير ناضجة ، فهي لم تكن تقتصر على عدم امتلاك رؤوس أموال للتصدير فحسب ، بل كان عليها الاعتماد على رأس المال الاجنبي في حاجاتها الضرورية . اذن ، كانت تنقص تلك الدفعة الحقيقية للامبريالية الايطالية، واستعيض عنها بالمشاعرية العاطفية الشعبية للريفيين المندفعين بشكل أعمى نحو تملك الارض . وكان الامر يتعلق بحاجة سياسية داخلية تجب تلبيتها بالانحراف عن الحل حتى اللانهاية . ولهذا فقد لقيت سياسة كريسبي معارضة الرأسماليين (الشماليين) الذين كانوا يفضلون أن يروا موظفة في ايطاليا تلك المبالغ الضخمة التي أنفقت في افريقيا. أما في الجنوب فكان لكريسبي شعبية واسعة باعتباره خلق « رمز » الارض السهلة (٢٩) .

وطبع كريسبي بطابعه جماعة كبيرة من المفكرين

---

(٢٩) بهذا التعبير يحاول غرامشي الاشارة الى ذلك الموقف الايديولوجي المتجه الى نقل مفهوم الصراع الطبقي (وبالتالي مفهوم البروليتاري والرأسمالي) من الطبقة الى الامة ، بحيث تكون هنالك امم بروليتارية (مثل ايطاليا) واخرى رأسمالية (مثل انكلترا) . وبذلك فان حلول مشاكل الطبقات الشعبية لا يصبح لها اي علاقة بتغيير البنية الداخلية لكل بلد بذاته ، بل يصبح حل هذه المشاكل منطلقا من خلال نضال البلدان الافقر لانتزاع المكاسب من البلدان المتفوقة . ومن هنا فان غرامشي يبذل كل جهده في ابراز ان « فقر بلد ما هو امر نسبي ، وصناعة الانسان هي التي تعطي الامة موقعها في العالم » . وكان اكبر دعاة هذا الخط القومي هو الشاعر غابريلي دانونزيو (١٨٦٣ ــ ١٩٣٧) . واذا ما اخذ في الاعتبار تأثير مثل هذا الشاعر وغيره على الثقافة الايطالية، يصبح كل الميل الذي أظهرته الحركة العمالية الى هذه الافكار غير مثير للدهشة، وتظهر صحة ودقة الاحكام الغرامشية في هذا الخصوص . ويجب ألا ننسى ان الفاشية استعادت ابراز هذه الافكار في صراعها مع الامم « البلوتوقراطية » لتبرير مطالبتها « بمكان لها تحت الشمس » .

الصقليين (وخاصة لانه أثر في كل المفكرين الايطاليين،خالقا بذلك أولى خلايا الاشتراكية القومية التي نمت فيما بعد بعنف) ، وخلق ذلك التعصب الوحدوي الذي أدى الى ايجاد جو دائم من الشك (٣٠) ضد كل ما يهول بالانفصالية . ولكن هذا لم يمنع (وهذا واضح) أن يقوم الاقطاعيون الصقليون ، عام ١٩٢٠ ، بالاجتماع في باليرمو واصدار **انذار** فعلي ضد « حكومة روما » ، مهددا بالانفصال ، كما لم يمنع استمرار كثير من هؤلاء الاقطاعيين في حمل الجنسية الاسبانية وجعل حكومة مدريد تتدخل لحماية مصالحهم المهددة من قبل الفلاحين، المقاتلين السابقين (كما في حالة الدوق دي بيفونا عام ١٩١٩) . ان موقف المجموعات الاجتماعية المختلفة في الجنوب بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢٦ يسهم في القاء الضوء وابراز بعض نواحي الضعف في الاتجاه الوحدوي الاصراري عند كريسبي، وابراز بعض التصحيحات التي أضافها جوليتي ، وهي اصلاحات قليلة في الواقع لان جوليتي التزم بشكل اساسي بخط كريسبي ، ولكن جوليتي استبدل الطبع اليعاقبي **عند كريسبي بالبراعة والاستمرارية** البيروقراطية ، فحافظ على « سراب الارض » في السياسة الاستعمارية ، ولكنه دعم هذه السياسة بمفهوم « دفاعي » عسكري ، وبمقدمة تقول بضرورة ايجاد شروط حرية

---

(٣٠) هذا « الشك » وقف لسنوات كثيرة في وجه المطالبات بالحكم الذاتي من قبل اقاليم مثل جزيرة صقلية وجزيرة ساردينيا ، وما زال يستخدم اليوم من قبل القوى الرجعية كسلاح دعاوي ضد اللامركزية الادارية والادارة الاقليمية التي ينص عليها الدستور الايطالي الجمهوري.

التوسع في المستقبل (٣١) ...

ان من بين العناصر الاخرى لتلمس الواقع الحقيقي للسياسة الوحدوية « العقدية » عند كريسبي عنصر مجموعة العواطف التي تولدت في الشمال تجاه الجنوب . كان « بؤس » الجنوب أمرا « عسير التفسير » تاريخيا بالنسبة للجماهير الشعبية في الشمال ، فهذه الجماهير لم تفهم أن الوحدة لم تتم على أساس المساواة بل على أساس هيمنة الشمال على الجنوب في علاقة اقليمية من نوع علاقات المدينة ــ الريف ، بمعنى أن الشمال كان « العلق » الذي يتغذى على حساب الجنوب ، وأن نموه الاقتصادي ــ

---

(٣١) من اجل فهم افضل ايضا لاسباب وسمات الحملة على ليبيا (١٩١١) لا بد من معرفة أن فترة السيطرة السياسية الطويلة لجوليتي (١٩٠١ ــ ١٩١٣) تميزت بتوسع لرأس المال خلق دافعا حقيقيا للاتجاهات الامبريالية والاستعمارية ، الى جانب الدافع « العاطفي » الذي يتحدث عنه غرامشي . وكان جوفاني جوليتي (١٨٤٢ ــ ١٩٢٨) هو السياسي الاكثر بروزا في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى . استلم رئاسة الوزراء للمرة الاولى في عام ١٨٩٢ واضطر الى الاستقالة عقب فضيحة تخص بنك روما واتهامه فيها باخفاء وثائق عامة . ولكنه عاد الى الحكم عام ١٩٠١ في وزارة زانداريلي وحافظ لسنوات على قيادة سياسة منفتحة وتقدمية لم تكن البورجوازية الايطالية قد عرفتها قبل ذلك . فقد شجع جوليتي النمو الصناعي ، وزيادة الاجور ، ورفع المستوى المعيشي للعمال ، وتطبيق المنهج الليبرالي الذي لا يعرقل قيام التنظيمات الطبقية . ولكنه بعد اضراب عام ١٩٠٤ عاد فاتبع سياسة رجعية أعادته الى الاصرار على العناصر التحولية التي كانت سلطته تقوم عليها في الواقع ، والى تنظيم حرب ليبيا واضعا بذلك حجر الاساس في القومية الاستعمارية الايطالية . وأبرم اتفاقا مع الفاتيكان يمنح الكنيسة حقوقا لم تكن لها قبل ذلك ففتح أول فجوة في علمانية الدولة الايطالية . كان رئيسا للوزراء بلا انقطاع تقريبا بين عامي ١٩٠٣ و١٩١٢ ، ثم عاد الى رئاسة الوزارة في عام ١٩٢٠ .

الصناعي كان ذو علاقة مباشرة بافقار الاقتصاد والزراعة الجنوبيين . وكان رجل العامة في ايطاليا الشمالية يعتقد ـ على العكس من ذلك ـ أنه اذا كان الجنوب لا يتقدم رغم تحرره من القيود التي كان يضعها نظام حكم آل بوربون على التطور الحديث ، فهذا يعني أن أسباب البؤس لم تكن خارجية يبحث عنها في الشروط الاقتصادية ـ السياسية الموضوعية ، بل هي داخلية راسخة في أهل الجنوب ، خاصة وأنه كان هنالك اعتقاد متجذر بالغنى الطبيعي الهائل لاراضي الجنوب ، وهكذا لم يكن هنالك سوى تفسير واحد الا وهو العجز العضوي للرجال ، وبربريتهم ، وتدنيهم حتى البيولوجي . هذه الافكار التي كانت منتشرة فعلا قبل ذلك قويت وأصبح لها منظروها من علماء الاجتماع اليقينيين (مثل نيشيفورو وسيرجي وفيري وأورانو وغيرهم) ، وصارت لها قوة « الحقيقة العلمية » في زمن الخرافات العلمية . وهكذا قام الجدل بين الشمال والجنوب على أساس العرق وعلى أساس التفوق والتدني في الشمال والجنوب (مراجعة كتب ن . كولاياني (٣٢) في الدفاع عن الجنوب من وجهة النظر هذه ، ومجموعة « المجلة الشعبية ») . وعلى العموم ، فقد بقي في الشمال ذلك الاعتقاد بأن الجنوب هو « كرة الرصاص » (٣٣) بالنسبة لايطاليا ، وبقيت القناعة بأن الحضارة الصناعية الحديثة في ايطاليا العليا يمكنها أن تحقق تقدما أكبر بدون « كرة

---

(٣٢) Napoleone Colajanni (١٨٤٧ ـ ١٩٢١) رجل سياسة صقلي ذو اتجاه راديكالي ، شهير ومرموق لاستقامته السياسية والاخلاقية. أسس وأدار « المجلة الشعبية » ، وله مؤلفات عديدة في العلوم الاقتصادية والاجتماعية .

(٣٣) تعبير ايطالي يعني : العبء الثقيل المعرقل للحركة (المعرب).

الرصاص » هذه .. الخ . وفي مطلع القرن بدأت تظهر ردود الفعل الجنوبية الحادة المنطلقة من نفس هذه الارضية ...

من هذه السلسلة من الملاحظات والتحليلات لبعض عناصر التاريخ الايطالي بعد الوحدة يمكن استخراج بعض قواعد تقييم موقع التناقض بين المعتدلين وحزب العمل ، والبحث عن « الحكمة » السياسية المختلفة لهذين الحزبين. والتيارات المختلفة التي تنافست على القيادة السياسية والايديولوجية لثانيهما . من الواضح أنه كان على حزب العمل ، للوقوف في وجه المعتدلين بفعالية ، أن يرتبط بالجماهير الريفية ، وخاصة الجنوبية منها ، وأن يكون « يعاقبيا » لا في « الشكل » الخارجي وفي الطباع فقط ، بل — وخاصة — في المحتوى الاقتصادي الاجتماعي، ذلك انه ما كان يمكن حل ترابط الطبقات الريفية المختلفة في كتلة رجعية عبر مختلف فئات المفكرين الشرعوية — الكنسية وتحويلها باتجاه تشكل ليبرالي — وطني الا بالضغط في اتجاهين اثنين : على فلاحي القاعدة بقبول المطالب الاولية وتبنيها كجزء لا يتجزأ من برنامج جديد للحكم ، وعلى مفكري الشرائح الوسطى والدنيا بمركزتهم والاصرار على الاسباب التي تثير اهتمامهم اكثر من غيرها (وكان منظور تشكيل جهاز حكومي جديد ، مع ما يفتحه من مجال للتوظيف عامل جاذبية هائل بالنسبة لهؤلاء لو قدم هذا المنظور كأمر جدي لانه يستند الى طموحات الريفيين (٣٤) .

وكانت العلاقة بين هذين العملين علاقة ديالكتيكية

---

(٣٤) مرة أخرى يبرز غرامشي الاهمية الكبرى لوظيفة المفكرين — المثقفين كـ « لحمة » اجتماعية ، وخاصة بالنسبة للجماهير الفلاحية . وبالتالي فان لاتجاه المجموعات المثقفة نطاق عمل يصل في اتساعه الى قطاعات هامة في العالم الشعبي .

ومتبادلة ، فقد دلت تجارب بلدان كثيرة ، وعلى رأسها تجربة فرنسا في فترة الثورة الكبرى ، انه اذا ما تحرك الفلاحون في اندفاعات « عفوية » بدأ المفكرون (المثقفون) يتذبذبون ، وبالمقابل ، اذا ما طرحت مجموعة من المفكرين نفسها على أساس قاعدة جديدة لسياسة جدية موالية للفلاحين فانها تنتهي الى أن تجر اليها ومعها كتلا من الجماهير متزايدة في الاهمية . ومع ذلك فانه يمكن القول بانه نظرا لتشتت وانعزال السكان الريفيين ، وبالتالي صعوبة مركزتهم في تنظيمات متماسكة فانه يفضل بدء الحركة من مجموعات المفكرين ، وعلى العموم فان العلاقة الديالكتيكية بين العملين هي ما يجب أخذه في الاعتبار دوما . وكذلك يمكن القول بأن الاحزاب الفلاحية بالمعنى الضيق للكلمة مستحيلة القيام ، فالحزب الفلاحي لا يتحقق ، عموما ، الا كتيار قوي للرأي ، وليس بأشكال عمومية للتأطير البيروقراطي . ومع هذا ، فان مجرد وجود هيكل تنظيمي هو أمر ذو فائدة عظيمة ، سواء من أجل حل معين للعنصر البشري ، أم للاشراف على مجموعات المفكرين ومنع أن تقودهم مصلحة الفئة الى أرضية أخرى بدون ادراك لذلك .

هذه القواعد يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند دراسة شخصية جوزيبي فيراري (٣٥) ، الذي كان « الاخصائي » الذي لا يستمع اليه أحد في المسائل الزراعية لحزب العمل. وتستوجب كذلك الدراسة الجيدة لموقف فيراري من العامل

---

(٣٥) Giuseppe Ferrari (١٨١٣ ــ ١٨٦٣) ، كان صديقا حميما لكارلو كاتانيو (راجع الهامش رقم ٦ في هذا البحث) ، وكان هو أيضا من مؤيدي الوحدة الفدرالية . وكان فيراري العميق في دراساته الفلسفية من كبار رجال الثقافة الايطالية ، وكان من أكثرهم تحسسا باهمية الافكار الاشتراكية الجديدة التي تعرف اليها خلال الفترة الطويلة التي قضاها في فرنسا منفيا .

الزراعي ، أي الفلاح الذي لا أرض له ويعيش يوما بيوم ، والذي يخصه فيراري بجزء كبير من ايديولوجيته ، وهذا ما يجعل مؤلفاته ما تزال حية ومقروءة لدى تيارات معينة . ويجب الاعتراف بأن مشكلة العامل الزراعي غايةفي الصعوبة وما زال حلها ، حتى اليوم ، امرا شاقا . بشكل عام يجب اخذ المبادىء التالية بعين الاعتبار : كان العمال الزراعيون في ايام النهضة وما زال اكثرهم حتى اليوم، فلاحين بسيطين بلا ارض، وليسوا عمال صناعة زراعية متطورة ذات رأس مال ممركز وتقسيم واضح للعمل. في ايام النهضة كان نوع العمالة الزراعية الاكثر شيوعا هو نوع العامل « الاجباري » ، بالمقارنة مع ذلك العامل « العرضي » (٣٦) . وبالتالي فان نفسيتهم ، مع بعض الاستثناءات الضرورية ، هي نفسية فلاح المستعمرة والملاك الصغير .

ولم تكن المسألة تطرح بشكل حاد في الجنوب حيث يسود المظهر الحرفي في العمل الزراعي بوضوح تام ، ولكنها طرحت بحدة في فالي يادانا (٣٧) حيث يتخذ العمل الزراعي مظهرا أكثر رقيا . ولكن ، حتى أزمنة قريبة ، كان وجود المشكلة الحادة للعامل الزراعي في فالي يادانا يعود جزئيا الى أسباب وراء ـ اقتصادية هي : ١ ـ الازدحام السكاني الذي ما كان يجد له مخرجا عبر الهجرة كما في الجنوب ، وحوفظ على هذا الازدحام اصطناعيا بسياسة الاشغال العامة (٣٨) ، ٢ ـ سياسة الملاكين التي كانت لا

---

(٣٦) العامل الزراعي « الاجباري » هو المرتبط بمؤسسة زراعية بموجب عقد أبدي أو شبه أبدي (أجور محددة ومشاركة) ، أما العامل الزراعي « العرضي » فهو الذي يعمل بالمياومة مرة بعد مرة حسب الشروط السائدة في سوق العمل .

(٣٧) اسم منطقة زراعية في شمال ايطاليا .

(٣٨) وخصوصا عبر مشاريع استصلاح الاراضي الزراعية .

تريد للسكان العاملين أن يتماسكوا في طبقة واحدة مؤلفة من العمال الزراعيين والمناصفين ، وذلك عبر توالي شروط **المناصفة والتشغيل المقتصد من اجل انتقاء افضل للمناصفين** المتفوقين ثم التحالف معهم . في كل مؤتمر للزراعيين فيفالي يادانا كان يجري النقاش حول ما اذا كانت المناصفة هي الافضل أم التشغيل المباشر ، وكان واضحا أن الاختيار كان يتم على أساس الاسباب السياسية — الاجتماعية . وخلال فترة النهضة ظهرت مشكلة العامل الزراعي في فالي يادانا كظاهرة رهيبة لفقر وبؤس الفئات الاجتماعية الدنيا ...

وبمناسبة اليعاقبية وحزب العمل هنالك عنصر لا بد من طرحه بشكل بارز ، وهو أن اليعاقبة احتلوا وظيفتهم كحزب قائد من خلال صراع لا هوادة فيه ، وقد « فرضوا أنفسهم » في الواقع على البورجوازية الفرنسيةفقادوها الى مواقع متقدمة كثيرا عن تلك التي كانت الاندية البورجوازية الاقوى في البداية ، تريد أن تشغلها عفويا ، والى مواقع متقدمة كثيرا عن تلك التي كان يفترض أن تسمح بها المقدمات التاريخية ، وهذا ما تسبب بضربات ردود الفعل وبوظيفة نابوليون الاول . هذا المظهر المميز لليعاقبية (وقبلها كروميل (٣٩) و « الرؤوس المستديرة ») ، وبالتالي لكل الثورة الكبرى ، في الضغط على الاوضاع (بشكل مكشوف) ، وفي خلق امر واقع لا يمكن الرجوع عنه

---

(٣٩) أوليفر كروميل (١٥٩٩ — ١٦٥٨) ، رجل سياسة انكليزي مؤيد للاصلاح الديني ولحكم الاساقفة . وعندما اندلعت الحرب الاهلية ضد الملك شارلز الاول (١٦٤٢) الذي كان يريد أن يفرض على البرلمانسلطته المطلقة تزعم كروميل القوات المعادية للملك وانتصر بها . ودعم بشدة ضرورة اعدام الملك ، لكنه سرعان ما اختلف مع البرلمان الذي سعى الى حله . و « الرؤوس المستديرة » هم أتباع كروميل .

بدفع البورجوازيين الى الامام بضرب اقفيتهم باقدام جماعة من الرجال غاية في النشاط والحزم، يمكن تلخيصه كما يلي: كانت الدولة الثالثة (٤٠) هي الاقل انسجاما ، وكانت لهـا نخبة فكرية بالغة التشتت ، وجماعة متقدمة جدا اقتصاديا ولكنها معتدلة سياسيا . ويسير تطور الاحداث فـي مجرى مثير جدا للاهتمام ، فقد اثار ممثلو الدولة الثالثة في البداية فقط المسائل التي تهم العناصر الجسدية الراهنة للمجموعة الاجتماعية ، ومصالحهـا « الكوربوراتيفيـة » المبـاشرة كوربوراتيفية بالمعنى التقليـدي والمباشر والاناني المنحـط لفئة معينة) ، وكان أسلاف الثورة في الواقع اصلاحيـين معتدلين ، اصواتهم مرتفعة ولكنهم لا يطلبون في الواقع الا القليل القليل . وتدريجيا تم اختيار نخبة جديدة لم تكن تهتم فقط بالاصلاحات « الكوربوراتيفية » بـل تميل الى فهـم البورجوازية باعتبارها المجموعة المهيمنة عـلى كافة القوى الشعبية ، وتم هذا الاختيار على أساس فعل عاملين اثنين: مقاومة القوى الاجتماعية القديمة ، والتهديد الدولي . ولم تكن القوى القديمة تريد التنازل عن شيء أبدا ، واذا مـا تنازلت عن شيء ما فانها تفعـل طامحـة الى كسب الوقت لتحضير الهجوم المعاكس . وكانت الدولة الثالثـة ستسقط حتما في هذه «المكائد» المتوالية لولا العمل النشيط لليعاقبة الذين عارضوا أي توقف « متوسط » في العملية الثوريـة ، ولم يرسلوا الى المقصلة عناصر المجتمـع القديـم الصعب الموت فحسب ، بل أيضا ثوريي البارحـة الذيـن أصبحوا رجعيين اليوم . وكان اليعاقبة ، على العموم ، هم حـزب

---

(٤٠) أي البورجوازية ، والدولتان الاخريان هما النبلاء ورجـال الكنيسة .

الثورة الوحيد العامل ، باعتبار أنهم لـم يكونوا يمثلـون الحاجات والطموحات الفورية والمباشرة للاشخاص الجسديين الراهنين الذين يشكلون البورجوازية الفرنسية فحسب، بل كانوا يمثلون ايضا الحركة الثورية بمجموعها، كتطور تاريخي متكامل ، لانهم كانوا يمثلون كذلك الحاجات المستقبليـة ، ومرة أخرى ليس فقط تلك المحددة بالاشخاص الجسديين بل لكل المجموعات الوطنية التي كان يجب أن تمتصها المجموعة الاساسية الموجودة . ويجب الاصرار هنا، ضد تيار متحيز، ومضاد للتاريخية ، ان اليعاقبة كانوا واقعيين على طريقة مكيافيلي (٤١) ولم يكونوا تجريديين . فقد كانوا مقتنعين بالحقيقة المطلقة لصيغ المساواة والاخاء والحرية ، والاهم من ذلك كله ، كانت مقتنعة بهذه الحقيقة ايضا الجماهـير الشعبية الواسعة التي استثارها اليعاقبة وأخذوها الـى ساحة النضال . كانت لهجـة اليعاقبة ، وايديولوجيتهم ، وطرقهم في العمل ، تعكس كلها حاجات العصر ، وان ظهر اليعاقبة « اليوم » ، في اوضاع مختلفة وبعد أكثر من قرن كامل من التفاعل الثقافي ، « تجريديين » و « مهتاجين » .

---

(٤١) يريد غرامشي ان يقول ما يلي : كما أن مكيافيلي لـم يطـرح المشكلة (مشكلة الامير الذي نجح في توحيد ايطاليا) كمشكلة تجريدية ،بل كمشكلة تمثل التجارب الاكثر تقدما في التاريخ الاوروبي (وبهذا المعنى كان مكيافيلي أكثر واقعية من خصومه) ، فان المثاليات الكبرى التي لوح بهـا اليعاقبة بالشعارات الثلاثة الاساسية للثورة الفرنسية (« حرية ، اخاء ، مساواة ») لم تكن عبارة عن طوباويات تجريدية ، بل كانت تمثل الحاجات الاكثر عمقا للبورجوازية الفرنسية . ويقول انجلز : « نحن نعرف (...) أن العدالة الابدية وجدت تحقيقها في العدالة البورجوازية ، ولم تكـن المساواة الا المساواة البورجوازية امام القانون ، وأعلن حق التملـك البورجوازي كواحد من الحقوق الاساسية للانسان » (مـن « تطـور الاشتراكية من الطوباوية الى العلم ») .

وطبيعي أن اليعاقبة كانوا يعكسون هذه اللهجة ، والايديولوجية ، وطريقة العمل ، بحسب التقاليد الثقافية الفرنسية ، والدليل على ذلك هو تحليل اللهجة اليعاقبية في « العائلة المقدسة » (٤٢) واعتراف هيغل الذي يطرح اللهجة القانونية ــ السياسية لليعاقبة ومفاهيم الفلسفةالكلاسيكية الالمانية التي يعترف لها اليوم بأقصى الجدية ، والتي ولدت التاريخية الحديثة، على انهما امران متوازيان ويمكن ترجمة أحدهما الى الآخر والعكس بالعكس . كانت الحاجة الاولى هي القضاء على القوى المعادية أو ، على الاقل ، اخضاعها الى موقع العجز لجعل الثورة المضادة أمرا مستحيلا .

وكانت الحاجة الثانية هي توسيع أطر البورجوازية كبورجوازية ووضعها على رأس كافة القوى الوطنية ، مع التعرف الى المصالح والحاجات المشتركة لكل القوى الوطنية ، لتحريك هذه القوى وقيادتها الىالنضال للحصول على نتيجتين اثنتين : آ ــ لخلق مرمى أوسع من حدود ضربات الاعداء ، أي ايجاد العلاقة السياسية ــ العسكرية الملائمة للثورة ، ب ــ سلب الاعداء اية رقعة سلبية يمكنهم أن يجندوا فيها جيوشا فاندية (٤٣) . بدون السياسة الزراعية لليعاقبة كانت باريس ستجدالفاندية* على ابوابها. ان مقاومة الفاندية، بالمعنى الضيق ، كانت مرتبطة بالمسألة الوطنية المحتدة لدى سكان بروتانيا* ، ولدى الاقليات بشكل

---

(٤٢) اشارة الى ذلك الجزء من الفصل الرابع من «العائلة المقدسة» لماركس وانجلز المعنون « معركة نقدية ضد الثورة الفرنسية » .و «العائلة المقدسة » هو البحث الفلسفي والجدلي الذي كتبه مؤسسا الماديـــة التاريخية في عام ١٨٤٤ .

(٤٣) راجع الهامش (١٢) في مقال « التوقع والمنظور » ، في هذا الجزء من المختارات .

(*) Bretagne - Vandée اسماء محافظات فرنسية .

عام ، بسببه صيغة « الجمهورية واحدة وغير قابلة للتقسيم » ، وسياسة المركزة البيروقراطية ـ العسكرية التي لم يكن باستطاعة اليعاقبة التخلي عنها دون أن يكون عملهم هذا انتحارا . لقد حاول الجيروندیون (٤٤) رفع راية الفدرالية لسحق باريس اليعاقبية ، ولكن قوات المحافظات التي قيدت الى باريس انضمت الى الثوريين . وباستثناء بعض المناطق الريفية ، حيث كان التمايز القومي (واللغوي) كبيرا جدا طغت المسألة الزراعية على طموحات الحكم الذاتي المحلي، وقلت فرنسا الريفية هيمنة باريس، اي انها فهمت أن تدمير النظام القديم نهائيا يستدعي تشكيل كتلة مع العناصر الاكثر تقدما في الدولة الثالثة وليس مع الجيروندیين. واذا كان صحيحا أن اليعاقبة « شددوا » من قبضتهم ، فصحيح أيضا أن هذا التشدد كان يتم دوما باتجاه التطور التاريخي الواقعي ، لانهم لم يكتفوا بتنظيم الحكومة البورجوازية ، أي بجعل البورجوازية هي الطبقة المسيطرة، بل فعلوا أكثر من ذلك بأن أقاموا دولة البورجوازية ، وجعلوا من البورجوازية الطبقة الوطنية القائدة والمهيمنة ، أي أنهم أعطوا الدولة الجديدة قاعدة دائمة ، وخلقوا الامة الفرنسية الحديثة المتماسكة .

ان كون اليعاقبة بقوا دوما على أرضية البورجوازية رغم كل شيء ، انما تبرزه الاحداث التي سجلت نهايتهم

---

(٤٤) هو اسم احدى المجموعات السياسية الاهم التي تشكلت خلال الثورة الفرنسية ، وكانت هذه المجموعة قد تشكلت حول فئة نواب مصلحة جيروند (محافظة فرنسية Girande) واتسمت بالطابع الراديكالي ، ولكن بتردد كبير ، وانتهت الى الصدام مع روبسبيير واليعاقبة . والواقع انهم عارضوا مركزية اليعاقبة بالمطالبة بسلطة البلديات ومبادىء الحرية السياسية . بعد احداث ١٧٩٣ انتهى عدد من زعمائهم الى المقصلة .

كحزب ذو تشكيل مغرق في التحديد والجمود وسجلت موت روبسبيير ، فقد رفض اليعاقبة الاعتراف للعمال بحق التحالف وحافظوا على قانون لوشابلييه ، واضطروا نتيجة لذلك الى اصدار قانون « الحدود القصوى » (الماكسيموم) (٤٥) . وهكذا حطموا الكتلة المدينية لباريس، وتفرقت قواتهم الضاربة التي كانت تتجمع في « الكومونة » شاعرة بخيبة أمل ، وكان الانتصار أخيرا للترميدور (٤٦) . كانت الثورة قد وجدت أوسع الحدود الطبقية ، وكانت سياسة التحالفات والثورة المستمرة قد انتهت الى طرح مسائل جديدة لم يكن ممكنا حلها آنذاك ، وأطلقت من العقال قوى أساسية لم يكن يمكن احتواؤها الا بديكتاتورية عسكرية .

في حزب العمل ليس هنالك بتاتا ما يشبه هذا الاتجاه اليعاقبي ، وما يشبه هذه الارادة التي لا تلين في المسعى الى أن يصبح الحزب القائد . طبعا ، لا بد من أخذ بعض الاختلافات بعين الاعتبار ، ففي ايطاليا يبرز النضال على أنه نضال ضد المعاهدات القديمة والنظام الدولي السائد وضد قوة أجنبية ، هي النمسا ، تمثل هذه المعاهدات وتدعمها في ايطاليا عن طريق احتلال جزء من شبه الجزيرة

---

(٤٥) قانون لو شابلييه كان قانونا ثوريا ضد الجمعيات الكوربوراتيفية الحرفية ذات الطابع الاقطاعي ، ولكنه استخدم ضد التحالفات العمالية بشكل رجعي بحت . واصدر اليعاقبة قانون « الحدود القصوى » في محاولة فاشلة للحد من ارتفاع اسعار المواد الغذائية ، وحدد القانون نفسه ايضا الحد الاعلى للاجور مما جلب له عداء العمال .

(٤٦) الاسم يشير الى يوم ٢٧ تموز (يوليو) ١٧٩٤ (الذي كان في شهر ترميدور حسب التقويم الذي استخدمته الثورة الفرنسية) ، وهو اليوم الذي اطاحت فيه القوى الاكثر اعتدالا ومحافظة بسلطة اليعاقبة .

والسيطرة على البقية الباقية . في فرنسا أيضا كانت هنالك مشكلة مماثلة ، الى حد ما على الاقل ، لان الصراع الداخلي تحول في لحظة معينة الى صراع دولي يجري قتاله على الحدود ، ولكن هذا حصل بعد أن كانت الثورة قد احتلت كل أنحاء البلاد ، وعرف اليعاقبة كيف يستفيدون من التهديد الخارجي باستخراج عناصر لزيادة الطاقة في الداخل ، فقد فهموا جيدا أنهم لكي ينتصروا على العدو الخارجي عليهم أن يسحقوا حلفاءه في الداخل ، ولم يترددوا في ارتكاب مجازر ايلول (سبتمبر) (٤٧) . في ايطاليا ، رغم وجود هذا الرابط ، ضمنا وعلنا ، بين النمسا وقسم ، على الاقل ، من المفكرين والنبلاء وملاكي الاراضي ، فان حزب العمل لم يعلن ادانته له ، أو أنه لم يقم بادانته بالحدة المطلوبة وبالشكل العملي الاكثر فعالية ، ولم يصبح عنصرا سياسيا فاعلا ..

واذا لم يتشكل في ايطاليا حزب يعاقبي فان البحث عن الاسباب يجب أن يتجه الى الميدان الاقتصادي ، أي الى الضعف النسبي للبورجوازية الايطالية والاطار التاريخي المختلف لاوروبا بعد عام ١٨١٥ . والحد الذي عثر عليه اليعاقبة ، في سياستهم للايقاظ المفتعل للطاقات الشعبية الفرنسية التي يمكن أن تتحالف مع البورجوازية، وفي قانوني لو شابيلييه و « الحدود القصوى » ، كان يبدو في عام ١٨٤٨ وكأنه « شبح » تهديدي لو استخدم بذكاء ضد النمسا من قبل الحكومات القديمة أو من قبل كافور (أو من قبل البابا). (ربما) لم تكن البورجوازية تستطيع بعد أن تبسط هيمنتها على شرائح شعبية واسعة مثل تلك التي حضنتها في فرنسا (لم تكن تستطيع ، لاسباب ذاتية وليس لاسباب موضوعية)،

---

(٤٧) مجازر زعماء الثورة المضادة في ايلول (سبتمبر) ١٧٩٢ .

ولكن العمل بين الفلاحين كان ما زال ، بالتأكيد ، ممكنا . .

ولا شك أنه كان للعلاقات الدولية أهميتها الكبرى في تحديد خط نمو عصر النهضة (الوحدة) الايطالي ، ولكن المعتدلين وكافور بالغوا في تضخيمها لاسباب حزبية . ومن الجدير بالملاحظة ، في هذا المجال ، أن كافور الذي كان يخشى المبادرة الغاريبالدية خشيته من النار قبل حملة كوارتو وقبل المرور في المضيق تخوفا من التعقيدات الدولية التي يمكن أن تؤدي اليها هذه المبادرة ، اندفع هو نفسه في تيار الحماسة الذي خلقته حملة الالف (٤٨) في الرأي العام الاوروبي الى درجة أنه أصبح يرى من الممكن قيام حرب فورية جديدة ضد النمسا . كان هنالك عند كافور نوع من الانحراف المهني للدبلوماسي يقوده الى رؤية صعوبات « كثيرة جدا » ويقوده كذلك الى مبالغات « تآمرية » والى الاعاجيب التي كثيرا ما كانت من صنع الخيال ، والى الرقة المداهنة والعمل الخفي . وعلى كل حال ، فقد عمل كافور بشكل لائق تماما ، وممتاز ، كرجل حزب . أما أن حزبه كان يمثل أعمق وأبعد المصالح الوطنية ، ولو كان ذلك فقط بالمعنى الاوسع امتدادا الذي يمكن اعطاءه لمجموعة حاجات البورجوازية مع الجماهير الشعبية ، فهذه مسألة أخرى .

في دراسة الاتجاه السياسي والعسكري الذي طبع بطابعه الحركة الوطنية قبل عام ١٨٤٨ لا بد من وضع بعض الملاحظات التحفظية في المنهجية والتسميات . عندما يقال القيادة العسكرية فلا يقصد بذلك فقط القيادة العسكرية بالمعنى الضيق ، التكنيكي ، أي الاشارة الى استراتيجية وتكتيك الجيش البييمونتي ، أو القوات الغاريبالدية ، أو

---

(٤٨) الحملة الاسطورية التي قادها غاريبالدي ، وقوامها الف رجل ، واحتل بها جزيرة صقلية .

مختلف الميليشيات التي قامت فجأة اثناء الانتفاضات المحلية (أيام ميلانو الخمسة ، الدفاع عن البندقية ، الدفاع عن جمهورية روما ، انتفاضة بالرمو عام ١٨٤٨ .. الخ) ، بل يقصد به المعنى الاوسع بكثير ، والاكثر انسجاما مع القيادة السياسية الفعلية . المشكلة الاساسية التي كانت مطروحة من وجهة النظر العسكرية كانت مشكلة طرد القوة الاجنبية من شبه الجزيرة ، أي طرد النمسا ، التي كانت تمتلك أكبر جيوش أوروبا على الاطلاق آنذاك ، والتي كان لها أتباع ضعفاء غير قلائل داخل شبه الجزيرة نفسها ، وحتى في مقاطعة بييمونتي . وعلى العموم ، كانت المشكلة العسكرية هي التالية : كيف الوصول الى تعبئة قوة انتفاضية ليست قادرة على طرد الجيش النمساوي من شبه الجزيرة فحسب ، بل قادرة أيضا على منعه من العودة في هجوم معاكس ، نظرا لان طرد هذا الجيش بالقوة كان سيسيء الى ملامح الامبراطورية ، وكان بالتالي سيوحد كافة قوى التلاحم من أجل الانتقام .

كانت الحلول المقدمة تجريديا لهذه المشكلة الصعبة كثيرة ، وكلها متناقضة فيما بينها وغير فعالة . وكان الشعار البييمونتي الذي أطلق عام ١٨٤٨ يقول : « ايطاليا ستفعل كل شيء لوحدها » ، ولكن هذا الشعار كان يعني الهزيمة الكارثية (٤٩) . وكانت السياسة المترددة التي يغلب عليها الغموض ، والخجولة ، والمغامرة في الوقت نفسه ، التي التزمت بها احزاب اليمين البييمونتية هي السبب الرئيسي للهزيمة ، فقد كانت هذه الاحزاب ذات مكر غبي ، وكانت هي السبب في انسحاب جيوش الدول الايطالية الاخرى ،

---

(٤٩) الهزيمة التي منيت بها القوات البييمونتية في نوفارا يوم ٢٥ نيسان (ابريل) ١٨٤٩ امام الجيوش النمساوية .

أي جيوش نابولي وروما (٥٠) ، لانها أسرعت أكثر من اللزوم في اظهار ارادة التوسع البييمونتية وليس اقامة الاتحاد الكونفدرالي الايطالي ، ولم تؤيد هذه الاحزاب حركة المتطوعين ، بل لقد وقفت في وجهها ، لانها كانت — في الواقع — تريد أن تقتصر الجيوش المنتصرة على تلك التي يقودها الجنرالات البييمونتيون ، غير الاكفاء لقيادة حرب صعبة جدا . وكان غياب السياسة الشعبية أمرا كارثيا ، ذلك أن الفلاحين اللومبارديين وفلاحي مقاطعة فينيسيا الذين جندتهم النمسا كانوا الاداة الاكثر فعالية لقمع ثورة فيينا (٥١) ، ثم في قمع ثورة ايطاليا . وكان التحرك اللومباردي — الفينيسي بالنسبة للفلاحين أمرا من شؤون السادة والطلاب ، مثل تحرك فيينا . وبينما كان على الاحزاب الوطنية الايطالية أن تعمل ، بسياستها ، على خلق التفكك ، أو على المساهمة في تفكك الامبراطورية النمساوية ، فانها ، بجمودها ، نجحت في أن تجعل من القطعات العسكرية الايطالية أفضل دعامة لرد الفعل النمساوي . ولم يكن باستطاعة استراتيجية الصراع بين بييمونتي والنمسا أن تستهدف تدمير الجيش النمساوي واحتلال الاراضي العدوة ، وهو هدف طوباوي لا يمكن تحقيقه ، ولكن هدف هذه الاستراتيجية كان يمكن أن يكون تفكيك الملامح الداخلية النمساوية ومساعدة الليبراليين في الوصول الى السلطة

---

(٥٠) خلال الحرب النمساوية — البييمونتية (١٨٤٨ — ١٨٤٩) وهي المسماة « حرب الاستقلال الاولى » ارسلت دولة الفاتيكان ، كما ارسلت دولة نابولي ، في البداية جيوشا ضد النمسا ، كما توارد المتطوعون من كل انحاء شبه الجزيرة .

(٥١) في ١٣ اذار (مارس) ١٨٤٨ ثار شعب فيينا واجبر الامبراطور على منحه دستورا تشريعيا ، ولكن الثورة هزمت ايضا داخل النمسا فيما بعد .

والبقاء فيها لتغيير البنية السياسية للامبراطورية وتحويلها في الاتجاه الفدرالي ، أو ــ على الاقل ــ ايجاد حالة طويلة الامد من الصراعات الداخلية التي تسمح للقوى الوطنية الايطالية بالتنفس وتسمح لها بالتمركز سياسيا وعسكريا .

كانت الحرب قد بدأت تحت شعار « ايطاليا ستفعل كل شيء لوحدها » ، أما بعد الهزيمة وعندما أصبحت العملية كلها في خطر ، جرت محاولة الحصول على المساعدة الفرنسية ، عندما كان الرجعيون قد وصلوا الى الحكم في فرنسا ، وبالتحديد نتيجة للتصلب النمساوي ، وهم أعداء الدولة الايطالية الموحدة والقوية ، وكذلك أعداء التوسع البييمونتي . ورفضت فرنسا اعطاء بييمونتي حتى جنرالا واحدا خبيرا ، مما اضطر البييمونتيين الى اللجوء الى الجنرال البولوني كرزارنوفسكي (٥٢) .

ان القيادة العسكرية مسألة أوسع من قيادة الجيش ومن وضع خطة استراتيجية على الجيش تنفيذها ، بل انها تزيد عن ذلك بأن تضم التعبئة السياسية ــ الانتفاضية للقوى الشعبية التي يمكن ان تثور خلف ظهر العدو ويمكنها أن تعرقل حركته وخدماته التعبوية ، وايجاد الجماهير الاحتياطية والمساعدة التي يمكن ان تنظم منها قطاعات عسكرية جديدة والتي يمكنها أن تعطي للجيش «التكنيكي» جو الحماسة والالتهاب .

ولم تتبع السياسة الشعبية حتى بعد عام ١٨٤٩ ، بل لقد اعتمدت أحداث ١٨٤٩ لارهاب الاتجاهات الديموقراطية واخضاعها . وانهمكت السياسة الوطنية اليمينية في المرحلة الثانية من النهضة في السعي الى نيل المساعدة من فرنسا

---

(٥٢) جنرال بولوني عهد اليه بقيادة الجيش البييمونتي في الحملة ضد النمسا عام ١٨٤٩ ، وهي الحملة التي انتهت بهزيمة نوفارا .

البونابارتية ، وتمت موازنة القوة النمساوية بالتحالف الفرنسي . وقد أخرت سياسة اليمين عام ١٨٤٨ توحيد شبه الجزيرة الايطالية بضع عشرات من السنين .

ان التردد في القيادة السياسية ـ العسكرية ، والتذبذب المستمر بين الحكم المطلق والحكم الدستوري ، كان لهما ردود فعل كارثية حتى داخل الجيش البييمونتي نفسه . ويمكن التأكيد أنه كلما كان عديد الجيش أكبر ، سواء بالمعنى المطلق كعدد للمجندين ، أم بالمعنى النسبي من حيث نسبة الرجال المجندين الى عدد السكان ، ازدادت أكثر فاكثر أهمية القيادة السياسية على تلك التكنيكية ـ العسكرية البحتة . لقد كانت قتالية الجيش البييمونتي عالية جدا في بداية حملة ١٨٤٨ ، واعتقد اليمينيون أن هذه القتالية كانت تعبيرا عن روح عسكرية وارث مطلق ، وبدأوا التآمر لتقييد الحريات الشعبية وتذويب التطلعات الى مستقبل ديموقراطي . وسقطت « معنويات » الجيش . ومن هنا كل الجدل الذي ثار حول « نوفارا القاتلة » . ففي نوفارا ما كان الجيش يريد أن يقاتل ، ولهذا هزم . واتهم «اليمينيون» الديمقراطيين بانهم ادخلوا السياسة الى الجيش وفككوه ، وهو اتهام سخيف وفي غير محله لان النظام الدستوري كان « يؤمم » الجيش ويجعل منه عنصرا من عناصر السياسة العامة ، وكان بذلك يقويه عسكريا . وتزداد سخافة الاتهام هنا نظرا لان الجيش لاحظ التغير في الاتجاه السياسي دونما حاجة الى « مفككين » ، وذلك من خلال العديد من التغيرات الصغيرة التي يبدو كل منها بلا معنى وقابل للتجاهل ، ولكنها شكلت بمجموعها جوا خانقا مسمما . وعلى العموم فان المسؤولين عن التفكك هم اولئك الذين غيروا الاتجاه السياسي دون توقع النتائج العسكرية ، أي انهم استبدلوا بالسياسة السابقة الجيدة والمتلائمة مع الهدف سياسة سيئة . ان

الجيش هو أيضا « أداة » لهدف محدد ، ولكنه مؤلف من رجال يفكرون وليس من دمى يمكن توظيفها في حدود التماسك والالتحام الميكانيكي والجسدي. واذا كان يمكن ، ويجب ، في هذه الحالة أيضا ، التحدث عن الملائم للهدف والمتفق معه ، فيجب كذلك مراعاة التمييز بحسب طبيعة الاداة المتوفرة . واذا ما دق مسمار بحزمة من الخشب بنفس القوة التي يدق بها بمطرقة حديدية ، فان المسمار يدخل في حزمة الخشب بدلا من الدخول في الحائط .والاتجاه السياسي الصحيح هو شيء ضروري حتى لجيش من المرتزقة المحترفين (حتى في الكتائب العرضية (٥٣) المغامرة كان هنالك حد أدنى من الاتجاه السياسي ، الى جانب ذلك التكنيكي ــ العسكري) ، وهو كذلك ، بالاحرى ، في جيش وطني من المجندين . وتصبح المسألة أكثر تعقيدا وصعوبة في حرب المواقع التي تقوم بها جماهير هائلة لا تستطيع مقاومة التآكل العضلي والعصبي والنفسي الكبير الا اذا كانت تمتلك احتياطيا هائلا من القوى الوجدانية الاخلاقية ، أي القيادة السياسية الماهرة التي تعرف أن تأخذ في اعتبارها الطموحات والمشاعر الاكثر عمقا عند الجماهير الانسانية لتمنع التفكك والانهيار .

يجب أن تبقى القيادة العسكرية تابعة دوما للقيادة السياسية ، أو بالاحرى ، يجب أن تكون الخطة الاستراتيجية هي التعبير العسكري لسياسة عامة محددة . طبيعي أنه في حالة معينة يمكن أن يكون رجال السياسة حمقى وأن يكون هنالك في الجيش قادة يتمتعون بالقدرة

---

(٥٣) كتائب مسلحة من الجنود المحترفين العاملين لحساب مختلف القادة كانت تضع نفسها في خدمة الدول والامارات الذي تدفع الاجر الاعلى .

السياسية الى جانب القدرة العسكرية ، مثل يوليوس قيصر ونابوليون . ولكننا نرى في حالة نابوليون كيف أن التحول السياسي ، المترافق بغرور امتلاك أداة عسكرية هي عسكرية تجريدية ، قد أدى الى خرابه . وحتى في الحالة التي تكون فيها القيادة السياسية والقيادة العسكرية موحدتان في شخص واحد ، فان اللحظة السياسية هي التي يجب أن تبقى متغلبة على تلك العسكرية . « الملاحظات » (٥٤) التي وضعها يوليوس قيصر هي نموذج كلاسيكي لاستعراض التمازج الذكي لفن السياسة مع فن الحرب . ولم يكن الجنود يرون في قيصر قائدا عسكريا كبيرا فحسب ، بل كانوا يرون فيه ، بشكل أخص ، زعيمهم السياسي ، زعيم الديموقراطية . ولا بد من التذكير كيف أن بسمارك سار على خطوات كلاوسفيتز (٥٥) في المحافظة على تفوق اللحظة السياسية على تلك العسكرية، في حين أن ويلهلم الثاني (٥٦) — كما يشير لودفيغ (٥٧) — علق بغضب على احدى الصحف التي نشرت آراء بسمارك ، وهكذا فقد ربح الالمان كل المعارك التي دخلوها تقريبا ، ولكنهم خسروا الحرب .

---

(٥٤) I. Commentari هي الكتابات عن حرب الغال والحرب الاهلية التي وضعها كايو جوليو شيزاري (كايو يوليوس قيصر) في السنوات ١٠٢ — ٤٤ قبل الميلاد .

(٥٥) Karl Clausewitz (١٧٨٠ — ١٨٣١) جنرال وكاتب مختص بالشؤون العسكرية ، الماني ، اشهر مؤلفاته هو كتابه « عن الحرب » .

(٥٦) ويلهلم الثاني (١٨٥١ — ١٩٤١) امبراطور المانيا الذي قادها في الحرب العالمية الاولى وخسرها ، ثم مات في المنفى .

(٥٧) Emil Ludwig كان صحفيا وكاتبا المانيا شهيرا عرف خصوصا بكتابة تاريخ حياة كل من غوته ونابليون وويلهلم الثاني وبسمارك ولنكولن و.. يسوع المسيح .

هنالك اتجاه يميل الى المبالغة في تقييم مدى مساهمة الطبقات الشعبية في النهضة ، مع الاصرار بشكل خاص على ظاهرة التطوعية . ان أكثر ما كتب بجدية وتأمل في هذا المجال هو ما كتبه اتيوري روتا في « المجلة التاريخية الجديدة » خلال عامي ١٩٢٨ — ١٩٢٩ . وبالاضافة الى الملاحظة الواردة في مذكرة (٥٨) أخرى حول المعنى الذي يجب اعطاءه للتطوعية ، فانه يجب الانتباه الى أن كتابات روتا نفسها تدل على كيف كان ينظر الى المتطوعين نظرة سيئة ، وكيف كانت السلطات البييمونتية تخرب عليهم ،وهو ما يؤكد مساوىء القيادة السياسية — العسكرية . كانت الحكومة البييمونتية تستطيع أن تجند اجباريا الجنود ضمن حدود دولتها وبنسبة معينة من السكان ، كما كانت النمسا تستطيع أن تفعل في حدود دولتها وبنسبة من السكان الذين يبلغون عددا أضخم بكثير . ضمن هذا الاطار كانت الحرب حتى النهاية تعني كارثة محتمة بالنسبة للبييمونتي بعد وقت قصير جدا . وبطرح شعار « ايطاليا ستفعل كل شيء لوحدها » كان يجب اما القبول الفوري بالوحدة الكونفدرالية مع الدول الايطالية الاخرى أو طرح الوحدة السياسية الجغرافية التامة على أساس قاعدة راديكالية شعبية ، مما كان سيؤدي بالجماهير الى الثورة على الحكومات الاخرى وتشكيل جيوش متطوعة تسارع الى جانب الجيوش البييمونتية . ولكن هذا بالتحديد هو لب المسألة : فالاتجاهات البييمونتية اليمينية كانت اما أنها لا تريد المتطوعين المساعدين ظنا منها انها تستطيع الانتصار على

---

(٥٨) يحتمل ان تكون المذكرة التي يشير اليها غرامشي هي المعنونة « التطوعية والجماهير الشعبية » حول فترة النهضة ، وغير المدرجة في هذه المختارات .

النمساويين بالقوات النظامية البييمونتية فحسب (ولا يفهم كيف يمكن أن يكون لديها مثل هذا الغرور) ، أو أنها تريد أن تتلقى المساعدة بشكل مجاني (وهنا ايضا لا يفهم كيف يستطيع سياسيون جديون أن يطلبوا هذا المستحيل) ، والواقع أنه لا يمكن طلب الحماسة وروح التضحية . . الخ، بدون مقابل ، حتى من رعايا الدولة ذاتها ، وأقل من ذلك يمكن طلب هذه الحماسة وروح التضحية من مواطنين غرباء عن الدولة على اساس برنامج عام وتجريدي وبموجب ثقة عمياء في حكومة بعيدة . هذه كانت مأساة ١٨٤٨ — ١٨٤٩، ولكن هذا لا يستوجب ، بالتأكيد ، احتقار الشعب الايطالي، فالمسؤولية عن الكارثة تقع بكاملها اما على كاهل المعتدلين أو على كاهل حزب العمل ، أي ، في التحليل الاخير ، على عدم النضج وعلى ضآلة الفعالية عند الطبقات المسيطرة .

الملاحظات التي أبديت حول مقدار العجز في القيادة السياسية — العسكرية أيام النهضة قد يرد عليها بكلام مبتذل ومستهلك يقول : « ولكن هؤلاء الرجال لم يكونوا ديماغوجيين ، ولم يلتزموا الديماغوجية في عملهم » . والابتذال الآخر الكثير الشيوع في الرد على الحكم السلبي على القدرة القيادية لزعماء الحركة الوطنية هو الذي يردد بطرق وأشكال مختلفة بأن الحركة الوطنية لم تستطع ان تفعل شيئا الا **بفضل** الطبقات المثقفة **فقط** . والذي يصعب اكتشافه هو أين يكمن هذا الفضل . ان فضل الطبقة المثقفة هو في أن وظيفتها التاريخية هي قيادة الجماهير الشعبية وتنمية وتطوير العناصر التقدمية ، أما اذا عجزت الطبقة المثقفة عن القيام بوظيفتها فلا حديث عن الفضل بل عن الاساءة ، أي عن عدم النضج وعن الضعف الداخلي . وهكذا يصبح ضروريا التفاهم والاتفاق على تعبير ومفهوم الديماغوجية . هؤلاء الرجال لم يستطيعوا — في الواقع —

تقييم الشعب ، ولم يعرفوا استثارة الحماسة والمشاعر اذا كان المقصود بالديماغوجية معناها البدائي . وهل وصل هؤلاء الرجال الى هدفهم ؟ كانوا يقولون أنهم يريدون خلق دولة حديثة في ايطاليا فخلقوا شيئا هجينا . وكانوا يريدون استثارة طبقة قائده واسعة الانتشار وناشطة فلم ينجحوا ، وكانوا يريدون زج الشعب في اطار الدولة فلم ينجحوا . ان الحياة السياسية الفقيرة بين ١٨٧٠ و ١٩٠٠، والعصيان البدائي المزمن للطبقات الشعبية ، والوجود المنحط والصعب لفئة قائدة شكوكة وكسولة مرتخية ، هي نتائج الموقع الدولي للدولة الجديدة البعيدة عمليا عن الاستقلال الذاتي لانها ملغومة داخليا بالبابوية والسلبية الحاقدة للجماهير الواسعة . وفي الواقع ، لقد كان يمينيو النهضة ديماغوجيين كبارا ، فقد جعلوا من الشعب ــ الامة أداة ، وجعلوا منه « شيئا » فانحطوا به ، وهذه هي أقصى واسوأ حدود الديماغوجية، تماما بالمعنى الذي اصبح للكلمة على لسان أحزاب اليمين في جدلهم مع أحزاب اليسار ،رغم أن أحزاب اليمين هي التي مارست دوما أسوأ أنواع الديماغوجية ، وهي التي لجأت دوما الى الحثالة الشعبية (مثل نابوليون الثالث في فرنسا) .

العلاقة بين المدينة والريف في عصر النهضة وفي البنية الوطنية : ليست العلاقات بين سكان المدينة وسكان الريف من نوع واحد معهم، وخاصة في ايطاليا. ولذلك يجب تحديد ما نعنيه بكلمتي « مديني » و « ريفي »في الحضارةالمعاصرة، وما هي التركيبات التي يمكن أن تنشأ عن ديمومة وجود الصيغ المهترئة والمتخلفة للتشكل العام للسكان ، مدروسة من ناحية التجمع الاكبر او الاصغر. وبعض الاحيان نواجه مبالغة تناقضية كأن يكون تجمع ريفي ما أكثر تقدمية من تجمع مديني .

المدينة « الصناعية » هي دوما أكثر تقدمية من الريف المعتمد عليها عضويا . أما في ايطاليا فليست كل المدن « صناعية » ، وأقل من ذلك أيضا هي المدن الصناعية فعلا . المدن الايطالية « المئة » هي مدن صناعية ، وتجمع السكان في المراكز غير الريفية ، الذي هو ضعف مثيله في فرنسا ، هل يدل على أن في ايطاليا تصنيعا هو ضعف مثيله في فرنسا ؟ التمدين في ايطاليا ليس فقط ، وليس «خصوصا»، ظاهرة نمو رأسمالي ونمو للصناعة الكبرى . المدينة التي كانت لمدة طويلة من الزمن أكبر مدينة ايطالية ، وما زالت واحدة من أكبر مدن ايطاليا ، وهي نابولي ، ليست مدينة صناعية ، وليست كذلك روما ، أكبر مدن ايطاليا حاليا . ومع ذلك ، ففي هذه المدينة أيضا ، ذات طابع العصور الوسطى ، هنالك أندية سكانية قوية من النوع المديني الحديث . ولكن ما هو الوضع النسبي لهذه الاندية ؟ انها مغرقة ، معصورة ، مسحوقة ، من قبل القسم الآخر ، الذي ليس من النوع الحديث ، والذي يشكل الاغلبية الكبرى . انها أعجوبة « مدينة الصمت » (٥٩) .

في هذا النوع من المدن هنالك، بين مختلف المجموعات الاجتماعية ، وحدة ايديولوجية مدينية موجهة ضد الريف ، وحدة لا تفلت منها حتى الاندية الاكثر عصرانية في وظيفتها المدنية ، رغم وجود هذه الاندية . فهنالك الحقد والاحتقار الموجهين الى « القروي » ، هنالك جبهة موحدة ضمنية ضد مطالب الريف التي اذا ما تحققت تجعل وجود مثل هذه المدن

---

(٥٩) هذا اللقب كان الشاعر الايطالي غابرييلي دانونزيو قد اطلقه على المدن الايطالية التي كان لها ماض مزدهر ثم انحط بها الزمن فاصبحت مراكز بيروقراطية ادارية ذات اهمية قليلة ، هذه المدن ما زالت تحتفظ من ماضيها بمعالمه المعمارية التي تجعلها مرتعا للسلاح .

مستحيلا . وبالمقابل ، هناك معاداة « عامة » ، ولكنها ليست في عموميتها أقل تصلبا ومشاعرية ، تنتشر في الريف ضد كل المدينة ، وكل المجموعات التي تتشكل المدينة منها . هذه العلاقة العامة ، التي هي في الواقع كثيرة التعقيد وتبرز باشكال تبدو في الظاهر متناقضة فيما بينها ، كانت ذات أهمية مبدئية في تطور صراعات النهضة وكانت هذه العلاقة آنذاك مطلقة وفاعلة أكثر مما هي عليه اليوم .

أول مثال فاضح لهذه التناقضات تمكن دراسته في حالة جمهورية نابولي التي قامت عام ١٧٩٩ (٦٠) : كان الريف المنظم بجماعات تابعة للكاردينال روفو قد سحق المدينة لان الجمهورية ، سواء في مرحلتها الارستقراطية الاولى ام في مرحلتها البرجوازية الثانية، اهملت الريف كليا، من جهة ، ولكن ، ومن جهة أخرى ، فان ظهور امكانية انقلاب يعاقبي يستولي على أملاك كبار الملاكين الزراعيين الذين كانوا ينفقون دخولهم في نابولي المدينة ، مما يجرد الجماهير الشعبية الواسعة من سلال دخلهم ومعيشتهم ، جعل عامة نابولي تقف موقفا لا مباليا من الجمهورية ان لم يكن معاديا لها . في فترة النهضة ، اضافة الى ذلك ،برزت العلاقة التاريخية بين الشمال والجنوب ، بشكل جنيني ، كعلاقة مشابهة لتلك التي تقوم بين مدينة كبيرة وريف واسع،

---

(٦٠) اعلنت الجمهورية في نابولي يوم ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٧٩٩ في نهاية فترة طويلة من مؤامرات العناصر الليبرالية المتشربة بمبادىء الثورة الفرنسية . وكان للجمهورية حكومة مؤقتة يرأسها ماريو باغانو ، وهو بحاثة مشهور في الامور القانونية والاقتصادية والسياسية . وبقيت الجمهورية أشهرا قليلة على قيد الحياة ثم أطيح بها بعودة الملك الذي دعمته الجماهير الفلاحية وجماهير العامة في المدينة ، وذلك في ٢٥ حزيران (يونيو) من العام نفسه .

ونظرا لان هذه العلاقة لم تكن علاقة عضوية طبيعية بين الريف والعاصمة الصناعية ، بل كانت علاقة بين اقليمين واسعين لكل منهما تقاليده الحضارية والثقافية المختلفة عما للآخر ، فقد تزايدت بروزا مظاهر وعناصر النزاع ذو الطابع القومي . وما تجدر ملاحظته بشكل خاص في فترة النهضة هو أن الجنوب كان دوما هو صاحب المبادرة الى العمل في كافة الازمات السياسية : ١٧٩٩ نابولي ، ١٨٢٠ — ٢١ بالرمو ، ١٨٤٧ مسينا وصقلية ، ١٨٤٧ — ٤٨ صقلية ونابولي . الامر الآخر الجدير بالملاحظة هو المظهر الخاص الذي تتخذه كل حركة تقوم في ايطاليا الوسطى ، كخط وسط بين الشمال والجنوب . ان فترة المبادرات الشعبية (النسبية) تمتد من عام ١٨١٥ الى عام ١٨٤٩ . وتصل قمتها في توسكانا وفي دول البابا (رومانيا ولونيجانا (٦١) يجب اعتبارهما دوما جزءا من وسط ايطاليا) . هذه الخصوصية تعود الى الظهور فيما بعد ، فأحداث حزيران (يونيو) ١٨١٤ وصلت قمتها في بعض أقاليم الوسط (رومانيا وماركي) . الازمة التي بدأت في صقلية عام ١٨٩٣ وجهت ضربتها في الجنوب ولوينجانا ، ووصلت الى قمتها في ميلانو عام ١٨٩٨ (٦٢) . في عام ١٩١٩ كانت هناك احتلالات الاراضي الزراعية في الجنوب وصقلية ، وفي عام ١٩٢٠

---

(٦١) دويلتان كانتا تقعان في اقصى شمال وسط ايطاليا (المعرب) .

(٦٢) عن ١٧٩٩ جرى الحديث في هامش سابق ، أما تحركات ١٨٢٠ — ٢١ فقد بدأت في باليرمو ضد الحكومة البوربونية ، وحملت حركة ١٨٤٧ في مسينا وحركتا ١٨٤٧ — ٤٨ في صقلية ونابولي نفس الطابع . أزمة ١٨٩٣ هي أزمة « الحزمات » التي يشير اليها هامش سابق . وفي لونيجابا ١٨٩٦ قامت حركة انتفاضية ذات طابع فوضوي . وفي ١٨٩٨ قامت في ميلانو انتفاضات عمالية انتهت بحملة قمع دموية .

احتلالات المصانع في الشمال . هذا التزامن والتواقت النسبي يدل على وجود بنية اقتصادية — سياسية منسجمة نسبيا بعد عام ١٨١٥ ، من جهة ، ويشير ، من جهة ثانية ، الى كيف أن الجزء الاضعف والمحيطي هو الذي يتحرك أولا في فترات الازمات .

ان علاقة المدينة — الريف بين الشمال والجنوب يمكن أيضا أن تدرس عبر المفاهيم الثقافية والتصرفات العقلية المختلفة . كما أشرنا في مكان آخر ، كان ب . كروتشي وج. فورتوناتو (٦٣) ، في مطلع القرن ، يترأسان حركة ثقافية كانت تعارض ، بطريقة أو بأخرى ، الحركة الثقافية في الشمال (المثالية ضد الوضعية ، والكلاسيكية ضد المستقبلية) . ولا بد من ابراز أن صقلية انفصلت عن الجنوب أيضا فيما يتعلق بالمسائل الثقافية ، واذا كان كريسبي (٦٤) هو رجل تصنيع الشمال ، فان بيراندیلو (٦٥)

---

(٦٣) Benedetto Croca (١٨٦٥ — ١٩٥٢) كان أكبر شخصية عرفتها الثقافة الايطالية في العقود الاولى من هذا القرن . مؤلفاته تغطي المواضيع الفلسفية والتاريخية والاقتصادية ، والنقد الادبي بشكل أخص . كان مركزا لانبعاث المثالية والنيوهيغلية والصراع ضد الوضعية وضد عتق الثقافة الايطالية ، وأثار اهتمام غرامشي الذي عارضه في نقاط كثيرة بعضها وارد في هذه المختارات .

Giustino Fortunato (١٨٤٨ — ١٩٣٢) أحد أشهر محازبي الجنوب الايطالي رغم انه كان يعتقد بان فقر وبؤس الجنوب هما امران طبيعيان ، وانطلق من هذه الفكرة في دراساته الكثيرة عن أوضاع الجنوب الايطالي .

(٦٤) حول كريسبي راجع ما ورد سابقا في المقال نفسه والهوامش الملحقة به .

(٦٥) Luigi Pirandello (١٨٦٩ — ١٩٣٧) ولد في صقلية ، وكتب الشعر والقصة والرواية ، وأكثر ما كتب نشر في كافة اللغات ←

بخطه العام أقرب الى المستقبلية ، وكذلك فان جنتيلي والعفلوية (٦٦) هما أقرب الى الحركة المستقبلية (بالمعنى الواسع ، كنقيض للكلاسيكية التقليدية ، وكشكل من أشكال الرومانتيكية المعاصرة) . بنية وأصول الفئات المفكرة مختلفة : ففي الجنوب ما زال يسيطر نموذج « العرضحالجي » (٦٧) الذي يقيم الصلة بين الجماهير الفلاحية وتلك الملاكة وجهاز الدولة ، أما في الشمال

الاوروبية . ولكن شهرته الكبيرة جاءته من مسرحياته التي بدأ اهتمامه بها في سن متقدمة (منذ الحرب العالمية الاولى) . أشهر تمثيلياته هي : «ست شخصيات تبحث عن مؤلف » و « هذا المساء سنمثل موضوعا » و«هنري الرابع » و « اذا كان هذا يحلو لكم ! » .. الخ ، وجالت تمثيلياته أكبر وأشهر مسارح اوروبا فمنح جائزة نوبل . وقد خص غرامشي بيراندللو بالكثير من ملاحظاته ومذكراته . ولا يؤخذ حكم غرامشي هنا على بيراندللو بالمستقبلية بانه قطعي ، بل هو مجرد حكم تقريبي جدا لا يكاد ينطبق على الواقع .

(٦٦) Giovanni Gentile (١٨٧٥ ــ ١٩٤٤) ولد في صقلية ، ويعتبر اكثر المفكرين الايطاليين انسجاما مع نفسه كواحد من زعماء المثالية المعاصرة . كان يقصر كل الواقع وكل النشاط الروحي على « فعل » التفكير ، ومن هنا جاء تعريف فلسفته « بالفعلوية » Atto (Attualismo) ، مما قربه ــ كما يقول غرامشي ــ من التيارات الفلسفية اللاعقلانية والرومانسية الى أقصى الحدود ، وانتهى بذلك الى أن يصبح من منظري الفاشية .

(٦٧) استخدمنا كلمة « عرضحالجي » التركية الاصل لكثرة شيوع استعمالها الشعبي بمعنى الوسيط الذي يكتب الطلبات الرسمية ويقدمها الى دوائر الحكومة ويلاحقها لصالح الاميين والفلاحين الذين يؤمون المدينة، ولانها الترجمة الوحيدة الممكنة للفظة العامية الايطالية Pagliatta التي يستخدمها غرامشي بين أقواس صغيرة وهي تحمل معنى احتقاريا للمحامي الذي يمتهن ملاحقة الاوراق الرسمية ومعاملات الزبائن في الدوائر الحكومية (المعرب) .

فيسيطر نموذج « تكنيكي » المصنع الذي يعمل كصلة وصل بين العمال وأصحاب العمل ، أما الصلة مع الدولة (في الشمال) فهي وظيفة المنظمات النقابية والاحزاب السياسية التي تديرها فئة من المثقفين جديدة كليا (ان نقابوية الدولة (٦٨) ، مع النتيجة الحتمية بالانتشار المنظم لهذا النموذج على المستوى الوطني ، وبشكل أكثر انسجاما لم يكن ممكنا في النقابوية القديمة ، هي أداة توحيد وجداني وسياسي ، الى حد ما ، وبشكل ما) .

هذه العلاقة المعقدة بين المدينة والريف يمكن أن تدرس من خلال البرامج السياسية العامة التي حاولت تثبيت أقدامها قبل وصول الفاشية الى الحكم . برنامج جوليتي والليبراليين الديموقراطيين كان يتجه الى خلق كتلة « مدينية » في الشمال (مؤلفة من الصناعيين والعمال) تكون هي قاعدة نظام الحماية (٦٩) وتقوم بتقوية الاقتصاد والهيمنة الشماليين . وكان الجنوب قد انتهى الى أن يصبح عند هؤلاء سوقا للبيع شبه مستعمرة ومصدرا للتوفير والضرائب يجب المحافظة عليه منضبطا عبر سلسلتين من الاجراءات : اجراءات بوليسية تقمع بلا شفقة أي تحرك جماهيري بالمجازر الدورية للفلاحين ، واجراءات بوليسية سياسية مثل الخدمات الشخصية التي تقدم « للمفكرين » أو « العرضحالجية » على شكل وظائف في الادارة العامة ، وتصاريح بسلب ونهب الادارة المحلية بلا عقوبة ، وتشريع

---

(٦٨) يشير غرامشي هنا الى النقابات الاجبارية التي أقامها الحكم الفاشي .

(٦٩) الحماية بمعناها المزدوج : حماية الصناعة من المنافسة الاجنبية (بالتعرفة الجمركية وما شابه) ، وتمويل الدولة المباشر وغير المباشر « لحماية » صناعة الشمال بالذات .

كنسي مطبق بحزم أقل مما يطبق به في مناطق أخرى ويترك لرجال الكنيسة ثروات وممتلكات محترمة .. الخ ، أي الابتلاع « الفردي » للعناصر الجنوبية الاكثر نشاطا وضمهم الى مسؤولي الدولة ، مع منحهم امتيازات « قانونية » وبيروقراطية خاصة .. الخ . وهكذا تصبح الشرعية الاجتماعية القادرة على تنظيم الاستياء المزمن في الجنوب ، على العكس من ذلك ، أداة للسياسة الشمالية ، وبوليسا سريا مستاعدا لها . ونظرا لفقدان القيادة لم يكن الاستياء ينجح في اتخاذ شكل سياسي عادي ، وكانت تظاهراته التي تعبر عن نفسها فقط بطريقة الشغب والتشويش ، تعامل في « الاطار البوليسي » القضائي . والواقع أن رجالا مثل كروتشي وفورتوناتو شاركوا عمليا في هذا الشكل من أشكال الافساد ، وان كانت مشاركتهم بقيت سلبية وغير مباشرة ، وذلك بالمفهوم الانحرافي الذي لديهم عن الوحدة..

وواجه برنامج جوليتي بعض « الاضطراب » لسببين اثنين : ١ ــ نجاح متصلبي الحزب الاشتراكي بقيادة موسوليني (٧٠) وغزلهم الذي قام مع الجنوبويين (حول التبادل الحر ، والتعاون الانتخابي .. الخ) مما كان يحطم الكتلة المدينية الشمالية ، ٢ ــ ادخال نظام الانتخاب الشامل مما وسع بشكل هائل القاعدة البرلمانية للجنوب وجعل الافساد الفردي صعبا (كثرة عدد من يجب افسادهم

---

(٧٠) كان موسوليني في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى مباشرة أبرز زعماء الجناح المتطرف في الحزب الاشتراكي ، وكان «متصلبا» و « ثوريا » لا يقدم أية تنازلات ! ، ومن الواضح أن مواقفه التالية تدل بشكل لا يدع مجالا للشك في كيف يمكن للتطرف اليساري أن ينحدر بسهولة الى مواقع مفرقة في الرجعية .

وبالتالي ظهور « حاملي العصي ») (٧١) . وغـــير جوليتي حلفاءه ، واستبدل الكتلة المدينية (او بالاحرى وضع فـــي مواجهتها ليمنع انهيارها) « بحلف جنتيلوني » (٧٢) ، أي أنه خلق ، عمليا ، كتلة « عضوية وطبيعية » تضم صناعة الشمال ومزارعي الريف (كانت القوى الانتخابية الكاثوليكية تتطابق جغرافيا مع تلك الاشتراكية ، وكلتاهما موجودتان في الشمال والوسط) مع امتداد تأثير هذه الكتلة الى الجنوب بمقياس كاف على الاقل « لتصحيح » نتائج توسيع الجماهير الانتخابية ...

من العلاقة بين المدينة والريف يجب أن تنطلق دراسة القوى المحركة الاساسية للتاريخ الايطالي والنقاط البرامجية التي يجب من خلالها ان يدرس ويقيم اتجاه حزب العمل في فترة النهضة . بشكل عام يمكننا أن نحصل على الاطار التالي : ١ ـــ القوة المدينية الشمالية ، ٢ ـــ القوة الريفية الجنوبية ، ٣ ـــ القوة الريفيـــة الشمالية ـــ الوسطى ، ٤ ـــ القـــوة الريفية في صقليـــة ، ٥ ـــ القوة الريفيـــة في ساردينيا . وببقاء وظيفة القوة الاولى ثابتة « كقاطرة » ، يبقى مـــن الواجب دراسة التركيبات المختلفة « الاكثر فائدة » والتـــي يمكنها أن تبني « قطارا » يتقدم باقصى سرعة ممكنة عبر

---

(٧١) هم وكلاء انتخابيون بالاجر ، الهدف من توظيفهم ارهاب خصوم الاحزاب الحكومية حتى بالعنف الجسدي ، وهم مـــا يسمى « الازلام » في لبنان .

(٧٢) الاتفاق الذي تم بين جوليتي والكونت جنتيلوني (رئيس الاتحاد الانتخابي الكاثوليكي الايطالي الذي شكله البابا بيوس العاشر) بمناسبة انتخابات عام ١٩١٣ ، وهي الانتخابات الاولى على أساس الاقتراع الشامل للذكور . بموجب هذا الاتفاق دعمت أصوات الكاثوليك مرشحي الحكومة من موقف معادي للاشتراكية ومحافظ .

التاريخ . على العموم ، يبدو ان القوة الاولى تبدأ بامتلاك مشاكلها الخاصة ، الداخلية ، في التنظيم والتمفصل من اجل الانسجام والقيادة السياسية ــ العسكرية (البيمنتية البييمونتية ، العلاقات بين ميلانو وتورينو.. الخ) ، ولكن الذي يبقى ثابتا ، و« ميكانيكيا » ، هو انه اذا وصلت هذه القوة حدا معينا من الوحدة والقتالية، فانها تمارس وظيفة قيادية « غير مباشرة » على القوى الاخرى . في المراحل المختلفة للنهضة كان يبدو ان طرح هذه القوة نفسها من موقع التصلب والنضال ضد السيطرة الاجنبية سيستثير القوى التقدمية الجنوبية ، من هنا التزامن النسبي ، دون التواقت الدقيق في حركات ١٨٢٠ــ٢١ و١٨٣١و١٨٤٨ . في عامي ١٨٥٩ ــ ١٨٦٠ (٧٣) عملت هذه « الميكانيكية » التاريخية ــ السياسية بكل طاقتها الممكنة لكي يبدأ الشمال النضال ، وينضم اليه الوسط مسالما او يكاد ، وتنهار الدولة البوربونية في الجنوب تحت ضغط قوات غاريبالدي الضعيفة نسبيا . وقد حصل هذا لان حزب العمل (غاريبالدي) تدخل بسرعة بعد ان كان المعتدلون (كافور) قد نظموا الشمال والوسط ، اي ليست هي القيادة السياسية ــ العسكرية ذاتها (المعتدلون او حزب العمل) من نظم التواقت النسبي ، بل هو التعاون (الميكانيكي) للقيادتين ، اللتين تكاملتا بسعادة .

---

(٧٣) ١٨٥٩ ــ ١٨٦٠ هو تاريخ « حرب الاستقلال » الثانية التي تحالفت خلالها البييمونتي مع فرنسا وهزمت النمسا وحررت دولة لومبارديا . وسرعان ما تبعت هذه الانتصارات استفتاءات أجريت في اميليا وتوسكانا وأعلن انضمام هاتين المقاطعتين الى الدولة الجديدة الموحدة . وبدأت في عام ١٨٦٠ حملة الالف التي نظمها غاريبالدي والتي انتهت بسقوط الحكم البوربوني وضم كل جنوب ايطاليا الى المملكة الجديدة الموحدة لكل ايطاليا .

اذن ، فقد كان على القوة الاولى ان تطرح على نفسها مشكلة ، ان تنظم حولها القوى المدينية للقطاعات الوطنية الاخرى ، وخاصة في الجنوب . وكانت هذه هي المشكلة الاصعب ، التي تتكاثف فيها التناقضات والدوافع التي تطلق موجات من المشاعر العاطفية (وكان احد الحلول الهزلية لهذه التناقضات ما سمي بالثورة البرلمانية عام ١٨٧٦) (٧٤) . ولكن الحل كان ، لذلك ، احدى النقاط الاساسية في التطور الوطني . ان القوى المدينية هي قوى منسجمة اجتماعيا ، وبالتالي عليها ان تجد نفسها في موقع المساواة التامة . وكان هذا صحيحا من الناحية النظرية ، أما تاريخيا فكانت المسألة تطرح بشكل مختلف : كانت القوى المدينية في الشمال تتزعم قطاعها الوطني بوضوح تام ، ولم يكن هذا ما يحصل بالنسبة للقوى المدينية في الجنوب ، او لم يكن كذلك بنفس المقياس على الاقل . وبالتالي فقد كان على القوى المدينية في الشمال ان تطلب من مثيلتها في الجنوب قصر وظيفتها القيادية على ضمان قيادة الشمال للجنوب في اطار العلاقة العامة للمدينة ـ الريف ، اي ان الوظيفة القيادية للقوى المدينية في الجنوب ما كان يمكنها ان تتعدى كونها لحظة تابعة للوظيفة القيادية الاوسع للشمال . والتناقض الاكثر حدة يولد من هذا التسلسل للوقائع : ان طرح المشكلة بهذا الشكل كان يعني التأكيد ، بحكم مسبق ، على انشقاق « قوي » لا يمكن اصلاحه ، انشقاق خطر الى حد لا يمكن حتى للاتحاد الفدرالي ان يعيد لحمته ، وكان يعني التأكيد على وجود امم مختلفة لم يكن يمكن ان يتحقق فيما بينها اكثر من تحالف

---

(٧٤) راجع الهامش رقم (٣) في هذا المقال .

دبلوماسي ــ عسكري ضد العدو المشترك الذي هو النمسا (وهكذا يكون العنصر الوحيد للربط والتآزر هـــو العدو « المشترك ») . ولكن ، في الواقع ، كانت هناك بعـض « مظاهر » المسألة الوطنية فقط وليس « كل » المظاهر ، ولا حتى تلك الاساسية ، المظهر الاكثر خطورة كان هـو الموقع الضعيف للقوى المدينية الجنوبية في علاقتها بالقوى الريفية ، وهي العلاقة غير الملائمة التي كانت تظهر فـي بعض الاحيان على شكل خضوع المدينة الفعلي للريف . وكان للروابط الوثيقة بين القوى المدينية فـــي الشمال والجنوب ، والتي تعطي تلك الثانية القوة التمثيلية لهيبة الاولى ، ان تساعد القوى المدينية في الجنوب على ان تحظى باستقلاليتها وان تكتسب الوعي بوظيفتها التاريخية القائدة بشكل « جدي » وليس نظريا وتجريديا فحسب ، من خلال ايحائها بالحلول التي يجـب اعطاؤها للمشاكل الاقليميـة الكبرى . وكان من الطبيعي ان تقوم في الجنـوب انـواع متعددة من المعارضة القوية للوحدة . وكانت المهمة الاكثر خطورة في حل الوضع تقع في كل الاحوال على كاهل القوى المدينية في الشمال التي لم يكن عليها اقناع « اخوتها » في الجنوب فحسب ، بل عليها ايضا ان تبدأ (باقناع) نفسها بهذه العقدية للنظام السياسي . اذن فالمسألة كانت تطرح ، عمليا ، في وجود مركز قوي للقيادة السياسية يجـب ان تتعاون معه ، بالضرورة ، شخصيات قوية وذات شعبيـة من الجنوب والجزر . لقد كانت مشكلة خلق وحدة الشمال ــ الجنوب مرتبطة ارتباطا وثيقا ، وممتصة من قبل مشكلة خلق التماسك والتآزر بين كافة القوى المدينية الوطنية .

وكانت القوى الريفية الشمالية ــ الوسطية تطـرح بدورها سلسلة من المشاكل التي على القوى المدينية فـي الشمال ان تتصدى لها لاقامة علاقة طبيعية بـين المدينـة

والريف ، طاردة كل المداخلات والتأثيرات ذات الاصول الغريبة عن تطور الدولة الجديدة . وكان يجب التمييز بين تيارين في هذه القوى الريفية : التيار العلماني ، والتيار الكنسي الميال الى النمسا . وكانت القوى الكنسية تملك ثقلها الاقصى في مقاطعتي لومبارديا وفينيسيا بالاضافة الى مقاطعة توسكانا وجزء من الدولة البابوية ، بينما كانت القوى العلمانية تتمركز في بييمونتي ولها مداخلات في كافة انحاء ايطاليا ، وفي المفوضيات (٧٥) ، وخاصة من بينها رومانيا ، وفي مناطق اخرى تمتد الى الجنوب والجزر . وكان باستطاعة القوى المدينية الشمالية ، اذا ما حلت هذه العلاقات المباشرة بشكل جيد ، ان تخلق ايقاعا ينطبق على كافة المسائل المشابهة على المستوى الوطني . وقد فشل حزب العمل كليا في معالجة كل هذه السلسلة من المشاكل المعقدة ، فقد اكتفى ، في الواقع ، بان جعل مسألة مبدأ وبرنامج اساسي ما كان ببساطة مسألة الارضية السياسية التي يمكن ان تتمركز فيها هذه المشاكل وتجد حلها الشرعي ، وهي مسألة الدستور . ولا يمكن ان يكون الحزب المعتدل قد باء بالفشل ، وهو الذي كان يرى ضرورة التوسع العضوي للبييمونتي ، وكان يريد جنودا للجيش البييمونتي ولايريد انتفاضات او قوات غاريبالدية كبيرة جدا.

لماذا لم يطرح حزب العمل المسألة الزراعية بكل ابعادها ؟ ان لا يطرح المعتدلون هذه المسألة كان امرا

---

(٧٥) كانت المفوضيات هي أقاليم الدولة البابوية التي تحكم من خلال كاردينال « مرتبط » ، اي موفد من قبل البابا (مثل مقاطعة بولونيا في شمال ايطاليا) .

طبيعيا . فالطرح الذي اعطاه المعتدلون للمشكلة الوطنية كان يتطلب تكتل كل قوى اليمين ، بما فيها طبقة كبار الملاكين ، حول بييمونتي كدولة وكجيش . ان تهديد النمسا بحل المسألة الزراعية لصالح الفلاحين ، وهو التهديد الذي تم تنفيذه في غاليسيا (٧٦) ضد النبلاء البولنديين ولصالح الفلاحين ، لم يؤد فقط الى زعزعة صفوف المهتمين بالامر في ايطاليا ، والى تذبذب الارستقراطية بالتالي (احداث ميلانو في شباط — فبراير ١٨٥٣ (٧٧) وغيرها) ، بل ادى ايضا الى شلل حزب العمل الذي كان يفكر في هذا المجال بنفس عقلية المعتدلين ، وكان يعتبر الارستقراطيين وملاكي الاراضي هم « الوطنيون » وليس ملايين الفلاحين ، فقط بعد شباط — فبراير ١٨٥٣ ظهرت لدى ماتزيني بعض الاشارات الديمقراطية جوهريا ، ولكنه لم يكن قادرا على اجراء تحول راديكالي تقريري في برنامجه التجريدي . وتجب دراسة التصرفات السياسية للغاريبالديين في صقلية عام ١٨٦٠ ، وهي التصرفات التي اشار بها كريسبي ، حيث سحقت انتفاضات الفلاحين ضد البارونات بلا شفقة ولا رحمة ، وانشيء الحرس الوطني المضاد للفلاحين (لمتابعة سحقهم) ، ونموذجية هي الحملة القمعية التي نظمها نينو بوكسيو في اقليم كاتانيا (بصقلية) حيث جرت اعنف

---

(٧٦) غاليسيا هي اقليم في بولندة . في عام ١٨٤٥ عندما ثار نبلاء وبورجوازيو بولندة طلبا للاستقلال الوطني ، استغلت حكومة النمسا ، لمصلحتها ، تناقض المصالح بين هذه الطبقات وفلاحي الاقليم فجندت الفلاحين لقمع الثورة .

(٧٧) ٦ شباط (فبراير) ١٨٥٣ يوم جرت في ميلانو محاولة انتفاضة من قبل الحرفيين والعمال المؤيدين لماتزيني ، وفي العام نفسه أعدم في بلفيوري عدد من الوطنيين الايطاليين من أتباع ماتزيني ايضا .

الانتفاضات (٧٨) . ومع ذلك ، فان في « الملاحظات » التي سجلها ج. ش. آبا (٧٩) عناصر للدلالة على ان المسألة الزراعية كانت النابض الدافع لتحرك الجماهير الكبرى . ويكفي التفكير باحاديث آبا مع الراهب الذي ذهب للقاء الغاريبالديين فور نزول هذه القوات في مرسالا . في بعض قصص ج. فيوغا (٨٠) هناك عناصر رائعة في وصف هذه الانتفاضات الفلاحية التي خنقها الحرس الوطني بالرعب والارهاب والرمي بالرصاص جماعيا . هذا المظهر من مظاهر حملة الالف لم يدرس ولم يحلل ابدا (٨١) .

ان عدم طرح المسألة الزراعية قاد الى ما يقرب من استحالة حل مسألة تسلط الكنيسة وموقف البابا المعادي للوحدة . من وجهة النظر هذه كان المعتدلون اكثر جرأة

---

(٧٨) خلال الحملة الغاريبالدية على صقلية (المشهورة بحملة الالف) عام ١٨٦٠ جرت حوادث عدة لاحتلال الفلاحين للاراضي ، اذ كان الفلاحون يعتقدون ان « الحرية » التي جاء بها الغاريبالديون تعني تحررهم من الاستغلال الذي يمارسه عليهم ملاك الاراضي . وقمعت كل هذه الانتفاضات بدموية وشراسة مطلقة .

(٧٩) Giuseppe Cosare Abba (١٨٣٠ ـ ١٩١٠) ، كاتب ومناضل وطني . اشترك في حملة الالف الغاريبالدية على صقلية ووصفها بعد عشرين سنة في مؤلف بعنوانه « ملاحظات واحد من الالف » . الحادثة التي يشير اليها غرامشي واردة في ذلك المؤلف وتعرض بشكل دقيق ما قاله راهب من الجزيرة عن الطموحات الحقيقية للفلاحين الصقليين بامتلاك الارض .

(٨٠) يشير غرامشي هنا بشكل محدد الى القصة المعنونة « الحرية ». Giovanni Verga (١٨٤٠ ـ ١٩٢٤) هو أشهر القصاصين الايطاليين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وله مؤلفات قصصية عديدة تعتبر من روائع القصة الايطالية .

(٨١) هنالك اليوم ، في الواقع ، دراسات عديدة حول هذا المظهر من مظاهر حملة الالف الغاريبالدية .

من حزب العمل ، صحيح انهم لم يوزعوا املاك الكنيسة على الفلاحين ، ولكنهم استخدموها في خلق فئة جديدة من الملاكين الكبار والمتوسطين المرتبطين بالوضع السياسي الجديد ، ولم يترددوا في وضع يدهم على ملكية الاراضي ؛ رغم ان هذا اقتصر على اراضي التجمعات الكنسية. اضافة الى ذلك ، كان حزب العمل مشلولا ، في نشاطه الموجه نحو الفلاحين ، نتيجة للغباء الماتزيني المهتم بالاصلاح الديني الذي لم يكن بعيدا عن اهتمام الجماهير الريفية فحسب ، بل كان يجعلها عرضة للتحريض ضد الهراطقة الجدد . وكان مثال الثورة الفرنسية قائما هناك للدلالة على ان اليعاقبة ، الذين نجحوا في سحق كل احزاب اليمين بما فيها الجيروندیون على ارضية المسألة الزراعية ، وليس فقط في منع التحالف الريفي ضد باريس بل ايضا في مضاعفة مؤيديهم في الريف ، هزموا في محاولات روبسبيير للاصلاح الديني ، رغم ما كان لها ، في التطور التاريخي الواقعي ، من مبررات وجدية مباشرة .

بعض موضوعات المسألة الجنوبية (*)

جاءت فكرة كتابة هذه الملاحظات انطلاقا مما نشرته « الدولة الرابعة » (١) بتاريخ ١٨ ايلول (سبتمبر) ، في مقال حول المشكلة الجنوبية موقع باسم «اولينشبيغل» (٢)،

---

* كتب غرامشي هذا المقال عام ١٩٢٦ ، قبيل اعتقاله ، ويشكل المقال حلقة في سلسلة من الدراسات حول المسألة الجنوبية ، كان غرامشي قد حضرها لنشرها في مجلة ايديولوجية للحزب الشيوعي كانت ستصدر في مطلع عام ١٩٢٧ . ونشر هذا المقال للمرة الاولى عام ١٩٣٠ في مجلة « الدولة العمالية » التي كان يصدرها الحزب الشيوعي الايطالي في المهجر ، ثم في مجلة « ريناشيتا » الاسبوعية الرسمية للحزب الشيوعي عام ١٩٤٥ ، بعد انهيار الفاشية وتحرير ايطاليا .

(١) « الدولة الرابعة » كانت مجلة يصدرها الحزب الاشتراكي ، وكان من بين محرريها بييترو نيني ، وليليو باسو ، وكارلو روزيلي ، وروبرتو تريميلوني .

(٢) هو اسم مستعار لتوماسو فيوري ، و« اولينشبيغل » الاصلي عبارة عن مهرج الماني من القرن الرابع عشر ، كانت رواياته تجمع وتروى شعبيا ، مثل روايات جحا في العالم العربي ، وأشهرها تلك التي تمثله بطلا وطنيا فلمنكيا في الحرب ضد اسبانيا . أشهر من جمع حوادثه هو الكاتب البلجيكي شارل دي كوستر (١٨٢٧ ــ ١٨٧٩) .

وقدمت المجلة للمقال بمقدمة طريفة ومضحكة . في مقاله، يعلن « اوليشبيغل » عن صدور كتاب غويدو دورسو (٣) (المعنون « ثورة الجنوب » ، والصادر عام ١٩٢٥) ويشير الى رأي دورسو حول موقف حزبنا من مسألة الجنوب . في المقدمة ، تقول هيئة تحرير « الدولة الرابعة » ، التي تعلن انها مؤلفة « من شباب يعرفون المسألة الجنوبية جيدا في خطوطها العامة (كذا !) » . انها تحتج جماعيا على حقيقة ان يمكن الاعتراف باي « فضل » للحزب الشيوعي. حتى هنا ليس في الامر ما يسيء ، فالشباب من نوع شباب « الدولة الرابعة » كتبوا على الورق . في ازمنة واماكن اخرى ، الكثير في تأييد افكار اخرى دون ان يثور الورق عليهم . ولكن هؤلاء « الشباب » اضافوا قائلين ، حرفيا : « اننا لا ننسى ان المعادلة السحرية لشيوعيي تورينو كانت : تقسيم الاقطاعات بين البروليتاريين الريفيين. وتتناقض هذه المعادلة كليا مع اية رؤية واقعية سليمة للمشكلة الجنوبية » . وهنا لا بد من وضع الامور في نصابها ، لانه ليس هنالك من « السحر » سوى الوقاحة وسطحية الهواة عند « الشباب » ، محرري « الدولة الرابعة » .

ان « المعادلة السحرية » ليس سوى اختراعا من نسج الخيال . ولا بد ان « شباب » هذه « الدولة الرابعة» لا يكنون الا احتراما ضئيلا جدا لقرائهم المثقفين جدا اذا كانوا يظنون انهم يستطيعون قلب الحقيقة بهذه البلاغة البلهاء . وندرج هنا فقرة مأخوذة من صحيفة « النظام

---

(٣) Guido Dorso (١٨٩٢ ـ ١٩٤٧) رجل سياسة واعلام ، كان خلال أزمة الفاشية من قادة حزب العمل .

الجديد » (عدد ٣ كانون الثاني ــ يناير ١٩٢٠) ، تلخص وجهة نظر الشيوعيين التورينيين :

« لقد اخضعت البورجوازية الشمالية ايطاليا الجنوبية والجزر ، وجعلتها مستعمرات للاستغلال . وبروليتاري الشمال ، بتحريره نفسه من العبودية الرأسمالية ، سيحرر جماهير فلاحي الجنوب الذين هم في خدمة المصرف وفي خدمة الصناعوية الطفيلية في الشمال. ولا يجب البحث عن اعادة التوليد الاقتصادي والسياسي للفلاحين في تقسيم للاراضي غير المزروعة او المزروعة بشكل سيء ، بل في دعم البروليتاريا الصناعية التي تحتاج ، بدورها ، الى دعم الفلاحين ، والتي لها مصلحة اساسية في عدم انبعاث الرأسمالية ، اقتصاديا ، من جديد عبر ملكيات الاراضي ، والتي لها مصلحة اساسية في الا تصبح ايطاليا الجنوبية والجزر قاعدة عسكرية للثورة المضادة الرأسمالية . ان فرض الاشراف العمالي على الصناعة ، يجعل البروليتاريا توجه الصناعة الى انتاج الآلات الزراعية للفلاحين ، والاقمشة والاحذية للفلاحين ، والطاقة الكهربائية للفلاحين ، ويمنع بعد ذلك الصناعة والمصارف من استغلال الفلاحين ومن اخضاعهم كعبيد لصناديق الاموال . ان العمال ، بتحطيمهم للاوتوقراطية في المصنع ، وبتحطيمهم لجهاز القمع التابع للدولة الرأسمالية ، وباقامة الدولة العمالية التي تخضع الرأسماليين لقانون العمل المفيد ، يكونوا قد حطموا كل السلاسل التي تقيد الفلاح ببؤسه وبيأسه . ان البروليتاريا ، باقامتها الديكتاتورية العمالية ، ووضع يدها على الصناعات والمصارف ، سوف توجه القدرة الهائلة لتنظيم الدولة الى دعم الفلاحين في نضالهم ضد ملاكي الاراضي وضد الطبيعة وضد البؤس ، فتعطي الفلاحين القروض ، وتؤسس التعاونيات ، وتضمن السلامة

الشخصية وتضمن الممتلكات ضد السلب ، وتنفذ الاشغال العامة للاستصلاح والري . وستفعل كل هذا لان من مصلحتها زيادة الانتاج الزراعي ، ولان من مصلحتها الحصول والمحافظة على دعم الجماهير الفلاحية ، ولان من مصلحتها توجيه الانتاج الصناعي نحو العمل المفيد للسلام والاخوة بين المدينة والريف ، وبين الشمال والجنوب » .

هذا ما كتبنا في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠ . وقد مضت سبع سنوات وكبر عمرنا اكثر من سبع سنوات ، سياسيا ايضا . بعض المفاهيم صار يمكن التعبير عنه بشكل افضل ، وصار يمكن ، بل يجب ، ان يزداد تمايز الفترة التي تلي مباشرة الاستيلاء على الدولة ، والتي تتسم ببساطة بالاشراف العمالي على الصناعة ، عن الفترات اللاحقة . ولكن ما تجب ملاحظته هنا هو ان المفهوم الاساسي عند الشيوعيين التورينيين لم يكن «معادلة سحرية» لتقسيم الاقطاعات ، بل كان ذلك المتعلق بالتحالف السياسي بين عمال الشمال وفلاحي الجنوب للاطاحة بالبورجوازية من سلطة الدولة . وليس هذا هو كل شيء . فالشيوعيون التورينيون بالذات (الذين كانوا يقولون بان تقسيم الاراضي يبقى خاضعا للعمل المتآزر بين الطبقتين) كانوا يحذرون من الخيالات « المعجزية » حول التقسيم الميكانيكي للاقطاعات. في نفس المقال الذي يرجع تاريخه الى ٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠ ، ورد ما يلي : « ما الذي سيحصل عليه الفلاح الفقير اذا ما اجتاح ارضا غير مزروعة او مزروعة بشكل سيء ؟ اذا كان بلا آلات ، وبلا مسكن في موقع العمل ، وبلا قروض تمكنه من انتظار الموسم ، وبلا مؤسسات تعاونية تشتري المحصول (اذا وصل الفلاح الى المحصول قبل ان يشنق نفسه على اضخم شجرة في الحرش او — على الاقل — على شجرة تين في الارض غير

المزروعة) وتنقذه من مخالب المرابين ، ماذا يحقق الفلاح الفقير من احتلاله للارض ؟ » على العموم ، كنا مع المعادلة الاكثر واقعية التي تقول بالارض للفلاحين والتي ليست « سحرية » بتاتا . ولكنا كنا نريد لهذه المعادلة ان تؤطر في عمل ثوري يشمل الطبقتين المتحالفتين ، تحت قيادة البروليتاريا الصناعية . ان كتاب « الدولة الرابعة » اخترعوا من نسيج خيالهم « المعادلة السحرية » التي نسبوها الى الشيوعيين التورينيين ، مدللين بذلك على ضآلة جديتهم الصحفية وعلى قلة الذمة الثقافية الفكرية التي هي اشبه بذمة صيدليات القرى . وهذه كلها ، هي ايضا ، عناصر سياسية لها ثقلها وتؤدي الى نتائج .

في الميدان البروليتاري ، كان للشيوعيين التورينيين « فضل » لا يناقش ، وهو انهم فرضوا المسألة الجنوبية على اهتمامات الطليعة العمالية ، وطرحوا هذه المسألة كاحدى المشاكل الاساسية للسياسية الوطنية للبروليتاريا الثورية . بهذا المعنى ، ساهم الشيوعيون عمليا في اخراج المسألة الجنوبية من مرحلتها الفكرية ، غير المتميزة ، المسماة « التحديدية » (٤) ، وفي جعلها تدخل مرحلة جديدة . وهكذا اصبح العامل الثوري في تورينو وميلانو صاحب دور في المسألة الجنوبية ، ولم يعد مثله مثل جوستينو فورتونانو او غايتانو سالفيميني واوجينو آزيمونتي

---

(٤) « تحديدية » Concretista بمعنى دراسة الشروط المحددة الملموسة ، الطبيعية والاقتصادية ، دون طرح المشكلة السياسية للقوى التي يمكنها ان تغير هذه الشروط .

وآرتورو لابريولا (٥) ، هـذا حتـى لا نستشهد باسماء « القديسين » العزيزين على قلوب « شباب » مجلة «الدولة الرابعة » .

كان الشيوعيون التورينيون قد طرحوا على انفسهم بشكل جدي مسألة « هيمنة البروليتاريا » ، اي القاعـدة الاجتماعية لديكتاتورية البروليتاريا والدولـة العماليـة . والواقع انه يمكن للبروليتاريا ان تصبـح الطبقة القائـدة والمسيطرة بمقدار ما تنجح في ايجاد نظام للتحالفات الطبقية يسمح بتعبئة اكثرية السكان العاملين في ايطاليا ضـد الرأسمالية والدولة البورجوازية ، وهذا يعني ، بموجب العلاقات الطبقية الحقيقية في ايطاليا ، بمقدار ما تنجح في الحصول على موافقة اوسع الجماهير الفلاحية . ولكـن المسألة الفلاحية في ايطاليا مسألة محددة تاريخيا ، انهـا ليست « المسألة الفلاحية والزراعيـة عمومـا » . اذ ان المسألة الفلاحية في ايطاليا ، نتيجـة للتقاليد الايطاليـة المحددة ، ونتيجة لتطور المحدد للتاريخ الايطالي ، اتخذت لنفسها شكلين نموذجيين وخاصـين ، همـا : المسألـة الجنوبية ، والمسألة الفاتيكانية . ولذلك ، فـان اكتساب اكثرية الجماهير الفلاحية يعنـي ، بالنسبـة للبروليتاريا الايطالية، تبني هاتين المسألتين من وجهة النظر الاجتماعية،

---

(٥) حول جوستينو فورتوناتو Giustino Fortunato وآرتـورو لابـريولا Arturo Labriola راجع الهامش رقم (٦٣) فـي المقـال السابـق ، والهامش رقـم (١٨) فـي هذا المقال . اما Gaetano Salveminili (١٨٧٣ ـ ١٩٥٧) فهو مؤرخ وصحفي وكاتب سياسي ، وكان من كبار المفكرين حـول مسألة الجنـوب . وكـان Eugenio Azimonti (١٨٨٠ ـ حيا) ، وهو خبير زراعي ، ولـه مقالات ومؤلفات ذات صفة تقنية حول الجنوب .

وفهم احتياجات الطبقة التي تمثلها هاتان المسألتان ، وضم هذه الاحتياجات الى البرنامج الثوري الانتقالي ، وطرحها بين المطالب النضالية .

المشكلة الاولى التي يجب على الشيوعيين التورينيين حلها هي مشكلة تعديل الاتجـاه السياسي والايديولوجية العامة للبروليتاريا نفسها كعنصر وطني يعيش حياة الدولة بكل تعقيداتها ، ويخضع بوعـي لكـل تأثيرات المدرسة والصحيفة والتقاليد البورجوازية . كلنـا نعرف ماهيـة الايديولوجيا التي يبثها شعريا دعاة البورجوازية بين جماهير الشمال ، والتي تقول بان الجنوب هو « كرة الرصاص » التي تمنع تحقيق تقدم اسرع في التطور الحضاري لايطاليا، وتقول بان اهل الجنوب متخلفون مـن الناحية البيولوجية وانهم اشباه برابرة او برابرة فعلا ، وان هذا هو قدرهم ، وتقول بانه اذا كان الجنوب متخلفا فان تخلفه ليس ناجما عن النظام الرأسمالي او عن اي سبب تاريخي اخر بل هو ناجم عن الطبيعة التي جعلت الجنوبيين كسالى عاجزيـن ومجرمين برابرة ، وعدلت الطبيعة هـذا المصير (الـذي فرضته على الجنوبيين) بالانفجار الفردي البحت لعبقريات كبيرة هي اشبه بشجيرات النخيل المتناثرة في صحـراء قاحلة عقيمة . وكان الحزب الاشتراكي الى حد كبير هـو الممر الذي عبرته هذه الايديولوجيا البورجوازية الىبروليتاريا الشمال ، فقـد اعطى الحزب الاشتراكي البركة والتعميد لادبيات كاملة « جنوبوية » وضعتها جماعة من كتاب مـا يسمى بالمدرسة اليقينية ، مثل فيري وسيرجي ونيشيفورو واورانو (٦) واتباعهم الاقل شأنا الذين كرروا نفس النغمة

---

(٦) راجع ما ورد حول هذه المدرسة « الجنوبوية » في المقال السابق « مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا » ، فـي الجزء الثاني مـن هـذه المختـارات .

في مقالات وابحاث وقصص وروايات وكتب الانطباعات والذكريات . واتجه « العلم » مرة اخرى ، ومجددا ، لسحق البائسين والمستغلين ، ولكنه جاء هذه المرة مرتديا لبوس الاشتراكيين زاعما كونه علم البروليتاريا .

لقد تحرك الشيوعيون التورينيون للرد بقوة على هذه الايديولوجيا ، في تورينو بالذات ، حيث التأثير الكبير لهذه الروايات والوصفيات التي يطلقها العائدون من الحرب ضد « العصابوية » في الجنوب والجزر على التقاليد والروح الشعبية . تحرك الشيوعيون التورينيون للرد بقوة ، وباشكال عملية ، ونجحوا في التوصل الى نتائج ملموسة ذات اهمية تاريخية ضخمة ، ونجحوا ، في تورينو بالذات، في ايجاد اجنة ما سيكون في المستقبل حلا للمشكلة الجنوبية .

ومن ناحية اخرى ، ومنذ ما قبل الحرب ، وقع في تورينو حادث يحمل كل امكانات العمل والدعاية اللذين قام بهما الشيوعيون بعد الحرب . في عام ١٩١٤ ، عندما خلا مقعد الدائرة الرابعة في المدينة (المقعد البرلماني) بموت بيلادي غي ، وطرحت مسألة المرشح للمقعد ، لوحت جماعة من الفرع الاشتراكي ، كان منها من اصبحوا في المستقبل جماعة تحرير صحيفة « النظام الجديد » ، بمشروع لترشيح غايتانو سالفيميني . وكان سالفيميني آنئذ هو الزعيم الاكثر تقدما ، بالمعنى الراديكالي ، للجماهير الفلاحية في الجنوب. وكان خارج الحزب الاشتراكي ، بل كان يقود هذا الحزب الاشتراكي حملة حادة وخطرة (٧) لان تصريحاته واتهاماته

---

(٧) كان سالفيميني يتهم الحزب الاشتراكي بالتآمر مع صناعيي الشمال للحصول على افضل الاجور وعلى الامتيازات الخاصة للتعاونيات العمالية على حساب فلاحي الجنوب .

كانت تصبح لدى الجماهير العاملة في الجنوب سببا للحقد، ليس فقط على امثال توراتي وتريفيس وداراغونا (٨) ، بل ايضا على البروليتاريا الصناعية بمجموعها ، (اكثر الرصاصات التي اطلقها رجال الحرس الملكي في الاعوام ١٩١٩ ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٢ على العمال كانت مصنوعة من نفس الرصاص الذي استخدم لطباعة مقالات سالفيميني) . على العموم ، كانت هذه المجموعة التورينية تريد استصدار تصريح حول اسم سالفيميني بنفس المعنى الذي عرضه الرفيق اوتافيو باستوري عندما ذهب الى فلورنس للحصول من سالفيميني على الموافقة على ترشيحه: « ان عمال تورينو يريدون انتخاب نائب عن فلاحي مقاطعة بولبي . ان عمال تورينو يعرفون ان فلاحي مولفيتا وفلاحي بيتونتو كانوا يؤيدون باكثريتهم المطلقة سالفيميني في الانتخابات العامة لعام ١٩١٣ ، ولكن الضغط الذي مارسته حكومة جوليتي ، والعنف الذي مارسه « حاملو العصي » ومارسه البوليس آنئذ منع فلاحي بولبي من التعبير عن رأيهم . ان عمال تورينو لا يطلبون من سالفميني اي التزام، لا بالحزب ، ولا ببرنامج وانضباط المجموعة البرلمانية . وعندما يتم انتخاب سالفيميني ، فان عليه التوجه الى فلاحي بولبي وليس الى عمال تورينو ، على ان يقوم هؤلاء بتنظيم الدعاية الانتخابية حسب مبادئهم ، ولن يلتزموا بتاتا بالنشاط السياسي لساليفيميني » (٩) .

وكان سالفيميني قد رفض قبول الترشيح رغم انه اصيب بصدمة اثرت فيه نتيجة لهذا الاقتراح (في تلك

---

(٨) أي الحقد على الجناح الاصلاحي في الحزب الاشتراكي .

(٩) كان سالفيميني قد رد على ما قاله غرامشي في وقت لاحق ، ومتأخر جدا ، في مقدمة كتابه المعنون « كتابات حول المسألة الجنوبية».

الايام لم يكن هنالك بعد كلام عـــن طبيعة « الغـدر » الشيوعية ، وكانت تصرفاتهم شريفة ومرحب بها) ، واقترح بالمقابل ترشيح موسوليني ، والتزم بالمجيء الى تورينو لدعم الحزب الاشتراكي في المعركة الانتخابية . والواقع انـه اقام ندوتين جماهيريتين كبيرتين في غرفة العمل وفي ساحة « التشريع » (ستاتوتو) ، حيث كانت الجماهير ترى فيـه ممثل الفلاحين الجَنوبيين المضطهدين والمستغلين باشكـال اكثر وحشية وشراسة من تلك التي تمارس على البروليتاريا الشمالية ، وترحب به لهذا السبب .

الاتجاه الذي تمثله هذه الحادثة ، كامكانية لم تتطور نتيجة فقط لارادة سالفيميني نفسه ، استعاده الشيوعيون وطبقوه في فترة ما بعد الحرب . ونريد هنا ان نذكر بالنقاط الاكثر بروزا وتعبيرا :

في عام ١٩١٩ تشكلت جمعية « ساردينيا الفتاة » ، كبداية ومقدمة لما اصبح فيما بعـــد « حزب العمـــل الساردیني » (١٠) . وكانت جمعية « ساردينيا الفتاة » تريد توحيد كافة سكان الجزيرة والارض القارية من اصل ساردیني في كتلة اقليمية قادرة على ممارسة ضغط فاعل على الحكومة لتنفيذ الوعود المقطوعة للجنود خلال الحرب. وكان تنظيم « ساردينيا الفتاة » في الارض القارية باشراف استاذ يدعى بييترو نورا (١١) ، اشتراكي ، ويحتمل ان يكون اليوم في عداد مجموعة « الشباب » التي تكتشف كل

---

(١٠) حركة ديمقراطية استقلالية تأسست بعد الحرب العالمية الاولى بزعامة اميليو لوسو ، وهو رجل سياسة معادي للفاشية ، وأصبح الان اشتراكيـا .

(١١) Pietro Nurra كان احد مؤسسي حركة ساردينيا الفتـاة « اللاسياسية » .

اسبوع ، في « الدولة الرابعة » ، افقا جديدا للاستطلاع. وبالحماسة التي يخلقها كل احتمال جديد لاصطياد الصلبان والاوسمة والميداليات ، انضم الى هذه الجمعية عدد من المحامين والاساتذة والموظفين . ودعيت الجمعيةالتأسيسية في منطقة بييمونتي الى عقد اجتماعها الاول في مدينة تورينو ، وكان اجتماعا ضخما بالنسبة الى عدد الحاضرين. وكان الحاضرون ، في اكثريتهم، من الناس الفقراء، والعامة الذين لا صفة مميزة لهم ، والعمال اليدويين في المصانع ، وصغار المتقاعدين ، ورجال الشرطة السابقين ، وحراس السجون السابقين ، وجنود الجمارك السابقين الذين افتتحوا لانفسهم دكاكين صغيرة لبيع مختلف الاشياء. كان الكل في غاية الحماسة لفكرة الاجتماع باهل البلد ، والاستماع الى كلمات وخطابات عن ارضهم التي ما انفكوا يرتبطون بها باكثر من صلة قرابة وصداقة وذكريات وآلام وآمال ، وخاصة امل العودة الى بلدهم ، ولكن الى بلدهم الاكثر ازدهارا وثراء ، والذي يمكنه ان يوفر لهم شروط الحياة ، ولو بتواضع .

وكان الشيوعيون الساردينيون قد ذهبوا للمشاركة في هذا الاجتماع ، وكانوا ثمانية عددا . وقدم هؤلاء الشيوعيون الى رئاسة الاجتماع اقتراحا يقضي بتقديمهم تقريرا مضادا لتقرير الجمعية التأسيسية . بعد الخطاب الملتهب والبلاغي للمتكلم الرسمي في الاجتماع ، والمزين بكل كلمات الاهابة والمحبة للخطابة الاقليمية ، وبعد ان تكاثر المتكلمون نواحا على ذكريات الآلام الماضية والدم المهدور في الحرب من قبل الافواج الساردينية ، وبعد ان تحمس الجميع حتى نقطة الهيجان لفكرة الكتلة المتماسكة المؤلفة من كل ابناء الجزيرة البررة ، كان من اصعب ما يكون « تسويق » التقرير المضاد . وكانت التوقعات الاكثر تفاؤلا

تشير الى امكانية السحل ، او ـ في احسن الحالات ـ امكانية الذهاب الى مركز الشرطة بعد الانقاذ من نتائج « الاستياء النبيل للجمهور » . ورغم ان التقرير المضاد اثار دهشة كبيرة ، فقد استمع اليه الجميع بانتباه واضح ، وما ان مرت لحظة الذهول حتى تم التوصل بسرعة ، ولكن بمنهجية ايضا ، الى الخاتمة الثورية . وكانت المشكلة (المطروحة في التقرير المضاد) هي : « انتم ، ايها الشياطين الساردينيين المساكين ، هل تؤيدون التكتل مع سادة ساردينيا الذين دمروكم ، والذين يقومون بدور الحارس المحلي للاستغلال الرأسمالي ، ام تؤيدون التكتل مع العمال الثوريين في القارة الذين يريدون تحطيم كل اشكال الاستغلال وتحرير كافة المضطهدين ؟ » ، هذه المشكلة خرقت عقول الحاضرين . وكان التصويت بالانحياز نجاحا رائعا ، فقد تجمعت في احدى الزوايا جماعة ضئيلة من السيدات المبهرجات والموظفين ذوي القبعات العالية والاخصائيين المحتقني الوجوه من الخوف ، تحيط بها قوة بوليس مؤلفة من حوالي اربعين رجل ، وتجمعت في الجهة الاخرى الاعداد الكبيرة للشياطين المساكين والنساء الشابات المرتديات ثياب العيد حول الخلية الشيوعية الصغيرة جدا . بعد ساعة واحدة ، في غرفة العمل ، كان قد تشكل النادي التثقيفي الاشتراكي الساردیني باعضاء وصل عددهم الى ٢٥٦ عضوا ، وتأجل تأسيس « ساردينيا الفتاة » الى اجل غير مسمى لم يحن موعده ابدا .

وكانت هذه هي القاعدة السياسية للعمل الذي تم بين أفراد كتيبة ساساري ، وهي كتيبة ذات تشكيل اقليمي بحت تقريبا . وكانت كتيبة ساساري قد شاركت في قمع الحركة الانتفاضية في تورينو خلال شهر آب (اغسطس)

١٩١٧ (١٢) . كانت هنالك ثقة تامة بان جنـود الكتيبة لا يمكن ان يقيموا علاقات اخوة مع العمال نظـرا لذكريات الحقد التي تبقى عند الجمهور ضد الادوات المادية للقمع ، والحقد عند افراد الكتيبة نظرا لذكرى الجنود الذين سقطوا تحت ضربات الثائرين . ووجـدت كتيبـة ساساري فـي استقبالها السادة والسيدات الذين كانوا يقدمون الزهور والسيغار والفواكه للجنود . احد عمال دباغة الجلود مـن ساساري اصبح مسؤولا عن السبر الاولي للدعاية، ووصف الحالة النفسية للجنود بقوله : « اقتربت من معسكر فـي ساحة « س » (كان الجنود الساردينيون يعسكرون خلال الايام الاولى في الساحات العامة كما لو كانوا في مدينة محتلة) وتحدثت الى فلاح شاب استقبلني بحرارة لانه من ساساري مثلي ، فجرى بيننا الحديث التالي :

ـ ماذا جئتم تفعلون في تورينو ؟

ـ جئنا نطلق النار على السادة المضربين .

ـ ولكن السادة ليسوا مضربين ، العمال هم المضربون وهم كلهم فقراء .

ـ كل من هنا هم سادة ، كلهم ذوي ياقات وربطات عنق ، كلهم يكسب ثلاثين ليرة في اليوم . انا اعرف الفقراء واعرف ازياءهم . في ساساري هنالك الكثير من الفقراء . كل « الحارثين » ، كلنا فقراء ونكسب ليرة ونصف الليـرة في اليوم .

ـ ولكني انا ايضا عامل وفقير .

ـ انت فقير لانك من ساردينيا .

ـ واذا اشتركت في الاضراب مع الاخرين ، هـل

---

(١٢) راجع مقالة غرامشي حول « الحركـة التورينية للمجالـس العمالية » في الجزء الاول من هذه المختارات . أما ساساري فهي احدى اكبر مدن جزيرة ساردينيا .

تطلق النار علي ؟

وفكر الجندي قليلا ، ثم اراح كفه على كتفي وقال :

ــ اسمع ! عندما تشترك في الاضراب مع الاخرين ابق في بيتك ! » .

كانت هذه هي الروحية المسيطرة على الاكثرية المطلقة من جنود الكتيبة التي لم يكن فيها الا عدد ضئيل من عمال مناجم حوض اغليسياس . ومع ذلك ، فبعد أشهر قليلة ، وعشية الاضراب العام في ٢٠ــ٢١ تموز (يوليو) ١٩٢٠، ابعدت الكتيبة عن تورينو ، وسرح جنودها الاقدم، وقسمت التشكيلة الى ثلاث فارسل ثلث الى آوستا وثلث الى ترييسته وثلث الى روما . وجعلت الكتيبة تغادر تورينو فجأة ليلا ، ولم يكن هنالك اي جمهور انيق لتحية جنودها في المحطة ، ولم يعد لاناشيد الجنود ــ رغم كونها اناشيد حربية ــ نفس المحتوى الذي كان لها ساعة الوصول .

هل بقيت هذه الاحداث بلا نتائج ؟ كلا . كانت لها نتائج ما زالت قائمة حتى اليوم ومستمرة في التفاعل في أعماق الجماهير الشعبية . فقد أنارت هذه الاحداث،للحظة معينة ، عقولا لم تكن قد فكرت أبدا في هذا الاتجاه ،فتأثرت بها وتغيرت بشكل جذري . لقد ضاع أرشيفنا ، وقمنا نحن أنفسنا بابادة بعض الاوراق حتى لا تتسبب في اعتقالات وملاحقات ، ولكننا ما زلنا نذكر عشرات ومئات الرسائل التي وصلتنا من ساردينيا الى هيئة تحرير صحيفة «أفانتي» في تورينو ، وكان كثير من هذه الرسائل رسائل جماعية موقعة من المحاربين القدماء في ساساري ، ومن ضواحيها. كان موقفنا السياسي الذي وقفناه في تورينو قد انتشر بطرق لا نعرفها ولا تمكن معرفتها ، وتأثر تأسيس حزب العمل الساردیني بذلك تأثرا قويا على مستوى القاعدة ، ويمكن التذكير في هذا المجال بحوادث غنية بمحتواها ومعانيها .

وكان آخر ما نعرف من أصداء هذا العمل يعود الى عام ١٩٢٢ عندما أرسل ٣٠٠ جندي بوليس من فرقةكالياري الى تورينو لنفس الهدف الذي كانت قد أرسلت من أجله كتيبة ساساري . واستلمنا يومها في ادارة تحرير صحيفة « النظام الجديد » تصريحا مبدئيا ، موقعا من الاغلبية العظمى لهؤلاء الجنود ، يشيد بطرحنا للمشكلة الجنوبية ، وكان هذا التصريح هو الدليل التقريري على صحة اتجاهنا.

وكان على البروليتاريا أن تتبنى هذا الاتجاه لاعطائه الفعالية السياسية ، وهذا أمر مضر ، اذ لا يمكن القيام بأي عمل جماهيري اذا لم تكن الجماهير نفسها مقتنعة بالاهداف المراد الوصول اليها والطرق المتبعة لتحقيقها . ولكي تكون البروليتاريا قادرة على ان تحكم ، كطبقة ، عليها ان تتخلص من كل بقايا الكوربوراتيفية ، ومن كل أحكام مسبقة أو تجمد نقابوي . ما معنى ذلك ؟ انه يعني أن من غير الكافي تجاوز التمايزات القائمة بين مهنة ومهنة بل ، لكي يجري اكتساب ثقة وموافقة الفلاحين وبعض الفئات شبه البروليتاريا في المدينة ، يجب تجاوز بعض الاحكام المسبقة والتغلب على أنانيات معينة قد توجد ، وهي موجودة فعلا ، لدى الطبقة العمالية كطبقة حتى عندما تكون قد اختفت من داخل هذه الطبقة الخصوصيات المهنية . ان على عامل الصناعة المعدنية ، وعامل النجارة ، وعامل البناء .. الخ ، ألا يكتفوا بالتفكير كبروليتاريين وليس كعمال صناعةمعدنية ونجارة وبناء فحسب ، بل عليهم أن يتقدموا خطوة أخرى الى الامام ، عليهم أن يفكروا كعمال أعضاء في طبقة تتجه الى قيادة الفلاحين والمفكرين ، وكأعضاء في طبقة لا يمكنها أن تنتصر وأن تبني الاشتراكية الا اذا ساعدتها وتبعتها الاكثرية العظمى لهذه الشرائح الاجتماعية . واذا لم يتم التوصل الى ذلك لن تصبح البروليتاريا طبقة قائدة ، بل ان

هذه الطبقات ، التي تشكل في ايطاليا أكثرية السكان ، ببقائها تحت قيادة البورجوازية ، تقدم للدولة امكانية الصمود أمام الزخم البروليتاري وتضعفه .

حسنا ، هذا الذي حدث بالنسبة للمسألة الجنوبيةيدل على أن البروليتاريا فهمت واجباتها هذه . ويجب هنا التذكير بحادثتين ، الاولى وقعت في تورينو ، والاخرى في ريجو ايمليا ، أي في بلد الاصلاحية ، وبلد كوربوراتيفية الطبقة ، وبلد الحماية العمالية التييتخذ منها «الجنوبويون» مثالا لدعايتهم بين فلاحي الجنوب .

بعد احتلال المصانع ، اقترحت ادارة شركة فيات على العمال القيام بتسيير المؤسسة كتعاونية. ومن الطبيعي ان ايد الاصلاحيون هذه الفكرة . وكانت تهب آنذاك رياح أزمة صناعية ، وكان شبح البطالة يرهب العائلات العمالية . واذا ما أصبحت شركة فيات تعاونية فان هذا قد يعطي العمال ضمانة معينة للعمل ، وخاصة بالنسبة للعمال الاكثر نشاطا سياسيا الذين كانوا مقتنعين بأن مصيرهم هو التسريح الحتمي .

وتدخل الفرع الاشتراكي الذي يقوده الشيوعيون بقوة في هذه المسألة ، وقيل للعمال ان تحول مؤسسة كبرى من حجم مؤسسة فيات الى تعاونية يديرها العمال لا يمكنه أن يحصل الا اذا قرر العمال دخول نظام القوى السياسية البورجوازية الذي يحكم ايطاليا اليوم . وكان اقتراح ادارة شركة فيات يشكل جزءا من المخطط السياسي الذي وضعه جوليتي . واذا كان هذا المخطط ؟ (فكرة المخطط) تتلخص في أن البورجوازية ، منذ ما قبل الحرب ، لم تكن قادرة على أن تحكم بهدوء . وكانت انتفاضات الفلاحين الصقليين عام

١٨٩٤ وانتفاضة ميلانو عام ١٨٩٨ (١٣) هي التجارب الفاصلة (١٤) بالنسبة للبورجوازية الايطالية . بعد السنوات العشر الدموية ١٨٩٠ — ١٩٠٠ (١٥) اضطرت البورجوازية الى التخلي عن الديكتاتورية المغرقة في الضيق، المغرقة بالعنف ، المغرقة بممارستها المباشرة ، اذ كان قد ثار ضدها ، في آن واحد وان كان بشكل غير منسق ،فلاحو الجنوب وعمال الشمال . ومع مجيء القرن الجديد بدأت الطبقة المسيطرة سياسة جديدة تقوم على تحالف الطبقات وعلى التكتلات السياسية الطبقية ، أي على الديموقراطية البورجوازية . وكان على البورجوازية أن تختار بين الديموقراطية الريفية ، اي ديموقراطية التحالف مع فلاحي الجنوب وسياسة الحرية الجمركية والانتخابات الشاملة واللامركزية الادارية والاسعار المنخفضة للمنتجات الصناعية (١٦) ، وبين التكتل الصناعي الرأسمالي — العمالي ، بلا انتخابات شاملة ومع الحماية الجمركية والمحافظة على مركزية الدولة (تعبيرا عن سيطرة البورجوازية على الفلاحين وخاصة في الجنوب والجزر)

---

(١٣) حول انتفاضات ١٨٩٤ و ١٨٩٨ راجع الهامش رقم (٦٢) في مقال « مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا » ، في الجزء الثاني من هذه المختارات .

(١٤) التعبير الاصلي هنا باللاتينية : Experimentum Crucis ويعني « تجربة الصليب » ، أي التجربة او الامتحان الذي يؤدي الفشل فيه الى الموت (ملاحظة المعرب) .

(١٥) هي السنوات العشر التي تميزت بالحكومات الرجعية التي ترأسها كريسبي وبيلوكس ، وبالحملات الاستعمارية الكارثية الاولى والانتفاضات الشعبية الوارد ذكرها هنا .

(١٦) كانت هذه هي بالذات مطالب الجنوبيون الذين اعتبروها كافية لرفع مستوى حياة الجماهير الفلاحية وتطوير الاقتصاد في الجنوب .

وسياسة اصلاحية للاجور والحريات النقابية . ولم يكن من قبيل الصدفة أن اختارت البورجوازية الحل الثاني ، فقد جسد جوليتي السيطرة البورجوازية ، وأصبح الحزب الاشتراكي الاداة المنفذة لسياسته (١٧) . واذا دققتم جيدا رأيتم أنه خلال السنوات العشر ١٨٩٠ — ١٩٠٠ مرت بالحركة الاشتراكية والعمالية أكثر الازمات جذرية ، وتحركت الجماهير عفويا ضد سياسة الزعماء الاصلاحيين. وولدت النقابوية ، التي هي التعبير الغريزي والاولي والبدائي ، والصحيح ، لرد الفعل العمالي ضد التكتل مع البورجوازية والى جانب التكتل مع الفلاحين ، وبشكل أخص مع الفلاحين الجنوبيين . نعم ، هذه هي الحقيقة ، بل أكثر من ذلك : ان النقابوية كانت محاولة ضعيفة من قبل الفلاحين الجنوبيين ، الممثلين بمفكريهم ، لقيادة البروليتاريا. ممن تتألف النواة القائدة للنقابوية الايطالية ، وما هو الجوهر الايديولوجي للنقابوية الايطالية ؟ ان النواة القائدة للنقابوية تكاد تتألف كلها من الجنوبيين ، مثل : لابريولا وليوني ولونغوباردي وأورانو (١٨)،أما الجوهر الايديولوجي

---

(١٧) حول كل هذه الفقرة راجع الهامش رقم (٣١) حول جوليتي في مقال « مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا » ، في الجزء الثاني من هذه المختارات .

(١٨) Arturo Labriola (١٨٧٣ — ١٩٥٩) رجل سياسة واقتصاد ولد في نابولي وكان عضوا في الحزب الاشتراكي ومن أبرز زعماء التيار النقابوي الثوري . طرد من الحزب عام ١٩٠٨ وأصبح وزيرا للعمل عام ١٩٢٠ . وكان مخلصا لمعاداته للفاشية ونفي لمدة عشر سنوات ، ثم عاش في انعزالية تامة بعد عودته الى ايطاليا في عام ١٩٣٦ . بعد تحرر ايطاليا من الفاشية انتخب عضوا في الجمعية التاسيسية ثم عضوا في مجلس الشيوخ. أما Enrico Leone و Ernesto Longobardi و Paolo Orano فكانوا من زعماء النقابويين الذين غازلوا فيما بعد الفاشية أو انضموا اليها .

للنقابوية فهو عبارة عن الليبرالية الاكثر حيوية والاكثر عدوانية والاكثر ايلاما من الليبرالية التقليدية . اذا دققتم جيدا وجدتم أن هناك سببين أساسيين تتركز حولهما الازمات التالية للنقابوية والانتقال التدريجي للقادةالنقابويين الى المعسكر البورجوازي ، وهما : الهجرة (١٩) والتبادل الحر (٢٠) ، وهما سببان مرتبطان ارتباطا وثيقا بالجنوبوية. ان الهجرة تولد مفهوم « الامة البروليتارية » الذي أطلقه انريكو كوراديني . وتبدو الحرب الليبية لشريحة كاملة من المفكرين على أنها بداية هجوم « البروليتاريا الكبرى » ضد العالم الرأسمالي والبلوتوقراطي (٢١) . وانتقلت مجموعة كاملة من النقابويين الى مواقع قومية ، بل بالتحديد الى الحزب القومي الذي أسسته في البداية جماعة من المفكرين النقابويين السابقين (مثل مونيشيلي ، فورجس — دافانزاتي ، ميرافيليا) (٢٢) . ان كتاب لابريولا المعنون

---

(١٩) يشير غرامشي الى ظاهرة الهجرة الواسعة بين العمال ، وخاصة من الجنوب ، والتي وصلت ذروتها في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى مباشرة .

(٢٠) هو المبدأ الاقتصادي لاحدى تيارات الليبرالية والقائل بالتبادل الحر كليا للسلع بلا ضرائب ولا جمارك سواء ضمن أراضي الدولة الواحدة أم بين الدول ، وقد طبقت انكلترا هذا المبدأ لفترة طويلة . ويشير غرامشي هنا بشكل خاص الى الجدل الحامي الذي قام ضد جوليتي تحت شعار التبادل الحر الذي لم يتبناه الجنوبيون فقط بل ايضا كبار الاقتصاديين الايطاليين .

(٢١) راجع الهامش رقم (٢٩) في مقال « مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا » في الجزء الثاني من هذه المختارات . والاشارة المحددة هنا الى خطاب ألقاه باسكولي بمناسبة غزو ليبيا وقال فيه : « لقد تحركت البروليتاريا الكبرى » .

(٢٢) الانتقال من النقابوية الى القومية (وفي حالات كثيرة الى الفاشية) كانت ظاهرة انتشرت بين معظم قادة النقابوية الثورية ، وساهم في ذلك دافع دخول الحرب العالمية الاولى .

« تاريخ عشر سنوات » (سنوات ١٩٠٠ ـ ١٩١٠) هو التعبير الاكثر نموذجية وتمثيلا لهذه النيوليبرالية الجنوبوية المعادية لجوليتي .

في هذه السنوات العشر قويت الرأسمالية وتطورت ، وخصصت جزءا من نشاطاتها في زراعة فالي بادانا . وكانت السمة الاكثر تمييزا لهذه السنوات العشر هي الاضرابات الجماهيرية للعمال الزراعيين في فالي بادانا . وحصل لدى فلاحي الشمال انقلاب عميق ، حيث جرى تحول طبقي لديهم (زاد عدد العمال الزراعيين بنسبة ٥٠٪ ، حسب احصاءات عام ١٩١١) وأثر هذا التحول في اعادة توضيب التيارات السياسية والمواقف العاطفية والروحية . والديموقراطية المسيحية (٢٣) والموسولينية هما أبرز نتاج تلك المرحلة . وكانت مقاطعة رومانيا هي البوتقة الاقليمية لهذين النشاطين الجديدين ، وكان العامل الزراعي يبدو وكأنه أصبح صاحب الدور الاساسي ، اجتماعيا ، في الصراع السياسي . وسرعان ما سقطت الديموقراطية الاجتماعية ، بأجهزتها اليسارية (الممثلة بجريدة « العمل » في شيزينا) ، وكذلك الموسولينية ، تحت سيطرة « الجنوبويين » . وكانت صحيفة « العمل » (آتسيوني)في شيزينا هي الطبعة الاقليمية من صحيفة « الوحدة »

---

(٢٣) حركة سياسية كاثوليكية قامت في أواخر القرن الماضي ، منظرها الاول هو رومولو موري . وكان برنامج الديمقراطية المسيحية مستوحى من المبادىء التجديدية المعتدلة ، وقد ادانته الكنيسة آنذاك بقوة . ولكن الحزب ، بعد تعديلات كثيرة طرأت على مواقفه ومواقف الكنيسة ، أصبح اليوم التعبير الحي المجسد عن ارادة الكنيسة في ميدان السياسة الايطالية .

(أونيتا) (٢٤) التي كـــان يصدرها سالفيميني . وراحـــت صحيفة « آفانتي » ، التي كان يديرهـــا موسوليني (٢٥) ، تتحول ببطء ، ولكن بشكل ثابت ، الى حلبة للكتاب النقابويين والجنوبويين . وأصبح أمثـــال فانشيلو ولانزيلو وبانونزيو وشيكوتي هم المحررون الاساسيون في الصحيفة ، وحتـــى سالفيميني نفسه لم يكن يخفي تعاطفه مع موسوليني الذي أصبح أيضاً الاب الروحي لصحيفة «الصوت» (لا فوشي) (٢٦) التي يديرها برتيزوليني . والجميع يذكر أنه عندما خـــرج موسوليني من صحيفة « آفانتي » ومن الحـــزب الاشتراكي كان محاطا بهذا البلاط من النقابويين والجنوبويين .

وكانت النتيجة الاكثر بروزا لهـــذه الفترة في الميـــدان الثوري هي الاسبوع الاحمر في حزيران (يونيو) ١٩١٤ (٢٧) . وكانت مقاطعتا رومانيا وماركه هما المركز الرئيسي للاسبوع الاحمر . أما في الميدان البورجوازي فقد كانت النتيجة الاكثر بروزا لهذه الفترة هـــي حلف جنتيلوني (٢٨) . ونظـــرا لان

---

(٢٤) كانت صحيفة « أونيتا » هي الصحيفة التي أسسها وأشراف على ادارتها سالفيميني بين عامي ١٩١١ و ١٩٢٠ وتوقفت خلال فترة الحرب العالمية الاولى ، وهي غير الصحيفة الرسمية للحـــزب الشيوعي التي صدرت بعد ذلك حاملة نفس الاسم ، وما زالت حتى اليوم .

(٢٥) كان موسوليني مديرا لصحيفة « افانتي » التي تصدر رسميا باسم الحزب الاشتراكي بين عام ١٩١٢ و ١٩١٤ . أما فانشيلو ولانزيلو وبانونزيو وسيكوني هم رجال سياسة اشتراكيين من الجنوب .

(٢٦) كانت صحيفة « الصوت » ، التي صـــدرت بين عامي ١٩٠٨ و ١٩١٦ ، شهرية وأسبوعية ، تعتبر في تلـــك الايام مـــن الصحـــف التجديدية .

(٢٧) حول الاسبوع الاحمر راجع الهامش رقم (١٤) في مقال «الحزب السياسي » في الجزء الثاني من هذه المختارات .

(٢٨) راجع الهامش رقم (٧٢) في مقال « مظاهر صراع الطبقـــات في ايطاليا » في الجزء الثاني من هذه المختارات .

الحزب الاشتراكي بعد عام ١٩١٠ كان قد عاد ، نتيجة للحركات الزراعية في فالي بادانا ، الى تكتيك التصلب والتكتل الصناعي ، الذي تبناه ومثله جوليتي ، فقد فقد الحزب فعاليته ، اذ كان جوليتي قد نقل بندقيته من كتف الى آخر ، فاستعاض عن التحالف بين البورجوازيين والعمال بتحالف بين البورجوازيين والكاثوليكيين الذين يمثلون الجماهير الفلاحية في ايطاليا الشمالية والوسطى . وبسبب هذا التحالف فقد دمر الحزب المحافظ الذي يتزعمه سونينو (٢٩) كليا ولم تبق منه سوى خلية صغيرة جدا في ايطاليا الجنوبية متحلقة حول أنطونيو سالاندرا (٣٠) . وكانت فترتا الحرب وما بعد الحرب قد شهدتا وقوع سلسلة من العمليات التحولية في الطبقة البورجوازية في غاية الاهمية . وكان سالاندرا ونيتي (٣١) هما أول رئيسي حكومة جنوبيين (باستثناء الصقليين طبعا مثل كريسبي الذي كان ممثل الديكتاتورية البورجوازية في القرن التاسع عشر) ، وحاول كلاهما اتباع وتنفيذ الخطة البورجوازية الصناعية ـ الزراعية الجنوبية ، فحاول سالاندرا ذلك على الارضية

---

(٢٩) Giorgio Sidney Sammino (١٨٤٧ ـ ١٩٢٤) رجل سياسة وبحاثة في المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية . اصبح مرتين رئيسا للوزراء (١٩٠٦ ـ ١٩٠٩) ، وكان وزيرا للخارجية اثناء الحرب العالمية الاولى . ومثل المعارضة الدستورية والمحافظة ضد كل حكومات جوليتي .

(٣٠) Antonio Salandra (١٨٥٣ ـ ١٩١٣) ، رجل سياسة يميني صديق ومساعد لسونيني . اصبح رئيسا لمجلس الوزراء عامي ١٩١٤ و ١٩١٥ ، أي للحكومات التي حضرت لدخول ايطاليا الحرب العالمية الاولى .

(٣١) راجع الهامش رقم (٦) في مقال « التوقع والمنظور » في الجزء الثاني من هذه المختارات .

المحافظة ، بينما حاول نيتي الامر نفسه على أرضية الديموقراطية (وساهمت صحيفة « كوريري ديلا سيرا »، الممثلة لصناعات النسيج اللومباردية ، في دعم كليهما بقوة). ومنذ فترة الحرب حاول سالاندرا تحويل القوى التكنيكية لتنظيم الدولة الى صالح الجنوب ، بدفع نوعية جديدة من الموظفين الذين يجسدون الخط السياسي الجديد للبورجوازية . ولا شك أنكم تتذكرون الحملة التي نظمتها صحيفة « لا ستامبا » ، وخاصة خلال عامي ١٩١٨ — ١٩١٩ لاقامة تعاون وثيق بين أتباع جوليتي والاشتراكيين لمنع « سيطرة مقاطعة بولبي » على الدولة ، وقاد هذه الحملة في صحيفة « لا ستامبا » فرانشيسكو شيكوتي ، مما يعني أن الحملة كانت تعبيرا عن الاتفاق القائم بين جوليتي والاصلاحيين . ولم تكن القضية قليلة الاهمية ، حتى أن أتباع جوليتي ، في دفاعهم المستميت (عن هذا الموقف) ، تجاوزوا كثيرا الحدود التي يسمح بها حزب البورجوازية الكبيرة ، فوصلوا حتى الى التظاهرات المعادية للوطنية المتعصبة والانهزامية التي ما زال يذكرها الجميع . واليوم (٣٢) ، عاد جوليتي الى السلطة مجددا ، ومجددا أوكلت اليه البورجوازية الكبيرة نفسها نظرا للرعب الذي يسيطر عليها أمام حركة الجماهير الشعبية المندفعة بزخم هائل . ان ما يريده جوليتي هو تدجين عمال تورينو .وكان قد انتصر عليهم مرتين : الاولى في اضراب نيسان (ابريل) الماضي (٣٣) والثانية في احتلال المصانع ، وانتصر عليهم في

---

(٣٢) أي في عام ١٩٢٠ (وليس عام ١٩٢٦ الذي كتب غرامشي خلاله مجموعة فرع تورينو للحزب الاشتراكي ، الشيوعية ، من اراء ضد هذا البحث) ، اذ ان غرامشي ما زال يتحدث هنا حول ما طرحته التسيير التعاوني لشركة فيات .

(٣٣) اضراب نيسان (ابريل) ١٩٢٠ الذي جرى الحديث عنه اكثر من مرة في مقالات سابقة .

كلتي المرتين بمساعدة الاتحاد العام للعمل ، أي بمساعدة الاصلاحية الكوربوراتيفية . واليوم ، يعتقد جوليتي أن باستطاعة تأطيرهم في نظام الدولة البورجوازي . في الواقع ، ماذا سيحصل اذا ما قبل عمال شركة فيات اقتراحات ادارة الشركة ؟ اذا قبل العمال هذه الاقتراحات ستصبح الاسهم الصناعية عبارة عن سندات ، أي أنه سيتوجب على التعاونية أن تدفع لاصحاب الاسهم أرباحا ثابتة ، مهما كانت نتائج سير الاعمال في الشركة .وستصبح مؤسسة فيات هدفا لكل أنواع الابتزاز من قبل المصارف ومؤسسات الاقراض التي ستبقى بأيدي البورجوازيين الذين لهم كل المصلحة في اخضاع العمال لارادتهم . وسيضطر العمال ، بالضرورة ، الى الارتباط بالدولة التي «ستسارع الى مساعدة العمال » عبر نشاط النواب البرلمانيين الممثلين للعمال ، وعبر اخضاع الحزب السياسي العمالي لسياسة الحكومة . هذه هي خطة جوليتي في تطبيقها الشامل . (واذا ما نفذت) فان البروليتاريا التورينية لن تستطيع المحافظة على بقائها كطبقة مستقلة بل ستصبح ذنبا للدولة البورجوازية. وبذلك تكون كوربواتيفية الطبقة قد انتصرت أما البروليتاريا فتكون قد فقدت موقعها وفقدت مهمتها كقائدة وموجهة ، وسوف تبدو كصاحبة امتيازات أمام جماهير العمال الاكثر فقرا ، وتبدو أمام الفلاحين كمساهمة في الاستغلال مثلها مثل البورجوازيين تماما ، لان البورجوازية ستقدم الاندية العمالية ذات الامتيازات للجماهير الفلاحية — كما فعلت دوما — على أنها السبب الوحيد لكل آلامها وبؤسها .

وقبل عمال فيات بالاجماع تقريبا وجهة نظرنا ، ورفضت بذلك اقتراحات ادارة الشركة . ولكن هذه التجربة لم تكن كافية . وقد دللت البروليتاريا التورينية عبر سلسلة

من أعمالها على كونها وصلت الى درجة عالية جدا من النضوج والقدرة السياسية . ولم يكن باستطاعة تقنيي وموظفي المصانع ، في عام ١٩١٩ ، تحسين أوضاعهم الا باستنادهم الى دعم العمال . ولكي يضع الصناعيون حدا لتحركات التقنيين اقترحوا على العمال أن يقوموا هم أنفسهم ، وعن طريق الانتخاب ، باختيار رؤساء فرق العمل ورؤساء الاقسام في المصانع ، ولكن العمال رفضوا هذا الاقتراح رغم كل ما لديهم من أسباب النزاع مع التقنيين الذين كانوا دوما أداة لارباب العمل في الاضطهاد والملاحقة ضد العمال . يومها ، دنت الصحف حملة قاسية تستهدف عزل التقنيين ، مبرزة ضخامة الرواتب التي يتقاضونها ، والتي كانت تصل الى ٧٠٠٠ لير ايطالي في الشهر . وساعد العمال المختصون العمال اليدويين في تحركهم أيضا ، وهكذا فقط نجحوا في فرض أنفسهم ، فألغيت داخل المصنع كافة الامتيازات ووسائل الاستغلال التي كانت تتوفر للعمال المختصين على حساب العمال الاقل تخصصا . عبر مثل هذه المواقف حققت الطليعة البروليتاريا موقعها الاجتماعي كطليعة ، **وكانت هذه هي قاعدة تطور الحزب الشيوعي في** تورينو . ولكن ، ما الذي حصل خارج تورينو ؟ حسنا ، لقد أردنا نحن ، وعن قصد ، نقل المسألة الى خارج تورينو ، وبالتحديد الى ريجو ايميليا ، حيث كان يوجد أكبر تمركز للاصلاحية ولكوربوراتيفية الطبقة .

لقد كانت ريجو ايميليا باستمرار هدفا «للجنوبويين» . وكانت جملة كاميلو برامبوليني (٣٤) القائلة « ايطاليا تنقسم

---

(٣٤) Camillo Prampolini (١٨٥٢ ـ ١٩٣٠) **منظم اشتراكي معروف في منطقة ريجو ايميليا ، انتخب نائبا عدة مرات ، وكان ذو اتجاهات اصلاحية .**

الى شماليين وجنوبيين » (٣٥) « قذرين » أبرز تعبير عن الحقد العميق والعنيف الذي يكنه الجنوبيون ضد عمال الشمال . في ريجو ايميليا طرحت مسألة مشابهة لمسألة شركة فيات ، حيث كان أحد المصانع الكبرى سينتقل الى أيدي العمال كتعاونية صناعية . وكان اصلاحيو ريجو ايميليا متحمسون لهذا الحدث ، وراحوا يطبلون ويزمرون في صحفهم واجتماعاتهم . وذهب شيوعي توريني (٣٦) الى ريجو ايميليا ، وتحدث في اجتماع عام في المصنع فعرض تعقيدات المسألة القائمة بين الشمال والجنوب ، ووقعت « المعجزة » ، اذ رفض العمال بغالبيتهم العظمى الاطروحة الاصلاحية الكوربوراتيفية . وكان هذا دليل على أن الاصلاحيين لم يكونوا يمثلون روحية عمال ريجو ايميليا ،بل كانوا يمثلون فقط الاستسلامية ونواح سلبية أخرى . وكان الاصلاحيون قد نجحوا في اقامة مؤسسة احتكارية Monopolio سياسية نظرا لكثافة تمركز المنظمين والدعاويين من مستوى مهني معين في صفوفهم ، ونجحوا بالتالي في منع تطور وتنظيم تيار ثوري ، ولكن وجود ثوري واحد جدي كان كافيا لهزيمتهم ولكشف ان عمال ريجو ايميليا هم مقاتلون شجعان وليسوا خنازير تربت في المزرعة الحكومية .

في نيسان (ابريل) ١٩٢١ ، قامت شركة فيات بتسريح ٥٠٠٠ عامل ثوري من عملهم ، كما حلت مجالس المعامل

---

(٣٥) في الجملة الايطالية الاصلية تلاعب بازدواجية معنى كلمة Sudici ، فبينما تعني كلمة Nordici شماليين ، فان كلمة Sudici تعني ، في آن معا ، « جنوبيين » ، وتعني كذلك « قذرين » . وهكذا فان الجملة التي تعني ظاهرا ان ايطاليا تقسم الى شماليين وجنوبيين ، انما تعني ضمنا انها « تقسم الى شماليين وقذرين » .. (ملاحظة المعرب) .

(٣٦) هو أومبرتو تيراشيني Umberto Terracini

والغتها ، وخفضت الرواتب الفعلية . ويحتمل أن يكون قد حصل شيء مماثل في ريجو ايميليا . وبكلمة مختصرة ، لقد هزم العمال . ولكن ، هل بقيت تضحياتهم بلا فائدة ؟ اننا لا نعتقد ذلك ، بل اننا متأكدين من أن التضحيات لم تكن بلا فائدة . لا شك أنه من الصعب تسجيل سلسلة طويلة من الاحداث الجماهيرية الكبرى التي تثبت الفعالية الفورية والسريعة لهذه الاعمال . ومن ناحية أخرى ، وفيما يتعلق بالفلاحين ، فان تسجيل مثل هذه الاحداث كان دوما من الامور الصعبة وشبه المستحيلة ، ويبقى أكثر صعوبة عندما يتعلق الامر بفلاحي الجنوب .

يمكن وصف الجنوب بأنه تشتت اجتماعي كبير ، والعمال الذين يشكلون الاغلبية العظمى من سكان الجنوب ليس بينهم أي تماسك أو ترابط (٣٧) . (من الواضح أن هنالك حالات استثنائية مثل حالات بولبي وصقلية وساردينيا ، وهي المناطق ذات السمات الخاصة في الاطار العريض للبنية الجنوبية) . ان المجتمع الجنوبي عبارة عن كتلة زراعية ضخمة مؤلفة من ثلاث شرائح اجتماعية : الجماهير الواسعة الفلاحية الهلامية والمشتتة ، ومثقفو أو مفكرو البورجوازية الريفية الصغيرة والمتوسطة ، وكبار ملاكي الاراضي وكبار المفكرين . وفلاحو الجنوب يعيشون حالة غليان دائم ، ولكنهم — ككتلة جماهيرية — عاجزين عن اعطاء طموحاتهم واحتياجاتهم تعبيرا ممركزا . وتتلقى الشريحة الوسطى من المثقفين نبضات نشاطها السياسي والايديولوجي من القاعدة الفلاحية . أما كبار الملاكين في

---

(٣٧) لا بد من أخذ المرحلة التاريخية التي كتب فيها غرامشي هذه السطور بعين الاعتبار ، اذ أن أوضاع الجنوب الايطالي تغيرت ، نسبيا، خلال سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية .

الميدان السياسي وكبار المثقفين المفكرين في الميدان الايديولوجي فيمركزون ويسيطرون ، في التحليل الاخير ، على كل هذه المجموعات . وكما هو طبيعي ، فالميدان الايديولوجي هو الذي تتم فيه المركزة بفعالية ودقة أكبر . ولهذا فان جوستينو فورتوناتو وبينيدتيو كروتشي (٣٨) يمثلان حجر الزاوية في قبة النظام الجنوبي ، وهما ، بطريقة معينة ، الشخصيتان الاكبر في الرجعية الايطالية .

المثقفون الجنوبيون هم شريحة اجتماعية من أكثر الشرائح الاجتماعية اثارة للاهتمام ، بل انهم أهم شريحة في الحياة الوطنية الايطالية . يكفي التذكير بأن ثلاثة أخماس بيروقراطية الدولة تتألف منهم لكي نقتنع بذلك . والآن ،لكي نفهم النفسية الخاصة للمثقفين الجنوبيين يجب ان تؤخذ في الاعتبار وقائع معينة هي :

١ ــ لقد شهدت شريحة المثقفين ، في كل بلد ، تحولا جذريا ناجما عن تطور الرأسمالية . فقد كان النموذج القديم للمثقف هو العنصر التنظيمي لمجتمع قائم على أساس فلاحي وحرفي في غالبيته . ولكن الطبقة المسيطرة كانت تربي نوعا معينا من المثقفين من أجل تنظيم الدولة وتنظيم التجارة . وأدخلت الصناعة نموذجا جديدا من المثقفين ، هو المنظم التقني ، أو اختصاصي العلوم التطبيقية . في المجتمع ،حيث نمت القوى الاقتصادية وتطورت باتجاه رأسمالي الى حد امتصاص الجزء الاكبر من النشاط الوطني ، هذا النوع الجديد من المثقف هو الذي ساد بكل ما يتصف به من نظام وانضباط فكري . أما في البلاد التي ما زالت الزراعة تمارس فيها دورا واضحا أو مسيطرا ، فقد بقي النموذج القديم هو

---

(٣٨) راجع الهامش رقم (٦٣) في مقال « مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا » في الجزء الثاني من هذه المختارات .

السائد ، وهو النموذج الذي يعطي القسم الاعظم من موظفي الدولة والذي يمارس محليا ، في القرية والموقع الريفي ، وظيفة الوسيط بين الفلاح والادارة بشكل عام .في ايطاليا الجنوبية ، هذا النموذج من المثقف هو المسيطر بكل صفاته : فهو ديموقراطي في وجهه الفلاحي ، ورجعي في وجهه الذي يطل على الملاك الكبير والحكومة ، وهو متلاعب سياسي ، وفاسد ، وغير مخلص . ولا يمكن فهم طبيعة الاحزاب السياسية الجنوبية اذا لم تؤخذ سمات هذه الشريحة الاجتماعية في الاعتبار .

٢ ــ المثقف الجنوبي يأتي عموما من فئة اجتماعية ما زالت واسعة الانتشار في الجنوب ، وهي فئة البورجوازي الريفي ، أي ملاك الارض الصغير أو المتوسط الذي ليس فلاحا ، ولا يعمل في الارض ، ويخجل من أن يكون مزارعا، ولكنه يؤجر أرضه القليلة أو يناصف (انتاجها مع من يفلحها) ، ويريد أن يخرج من ريعها هذا بما يكفيه للمعيشة بشكل ملائم ، ولارسال أبنائه الى الجامعة أو المعهد ،وجمع مهر (دوطة) لبناته اللواتي يجب أن يتزوجن ضابطا أو موظفا في الدولة . من هذه الفئة الاجتماعية يتلقى المثقفون عداءهم للفلاح الشغيل الذي يعتبرونه آلة عمل يجب انهاكها حتى العظم ويمكن استبدالها بسهولة نظرا لكثرة السكان العاملين . ومن هذه الفئة الاجتماعية يتلقى المثقفون خوفهم الجنوني ، المتوارث والغريزي ، من الفلاح ومن عنفه التدميري ، وبالتالي لبوس النفاق الانيق وفن خداع وتدجين الجماهير الفلاحية .

٣ ــ ونظرا لان رجال الكنيسة هم جزء من المجموعة الاجتماعية للمثقفين ، فانه يجب ملاحظة الاختلاف في السمات بين رجال الكنيسة الجنوبيين بمجموعهم ورجال الكنيسة الشماليين . فالكاهن الشمالي هو ، عموما ، ابن

حرفي أو فلاح ، وذو عواطف ديموقراطية ، وهو أكثر ارتباطا بجماهير الفلاحين ، وأكثر استقامة أخلاقية من الكاهن الجنوبي الذي كثيرا ما يعاشر امرأة علنا ، وهو يمارس بذلك مسؤولية روحية أكثر اكتمالا اجتماعيا باعتباره مسؤولا عن كل نشاطات عائلة كاملة . في الشمال ، كان الفصل بين الكنيسة والدولة واستملاك الاملاك الكنسية أكثر راديكالية مما جرى في الجنوب حيث حافظت الابرشيات والاديرة ، أو أعادت بناء ، ملكيات منقولة وغير منقولة واسعة جدا . في الجنوب يرى الفلاح في الكاهن : ١ ــ اما مديرا للاراضي يدخل معه الفلاح في نزاع على الايجار ، أو ٢ ــ مرابيا يتقاضى فوائد غاية في الارتفاع ويتلاعب بعنصر الدين لكي يضمن حصوله على الايجار أو الفائدة ، أو ٣ ــ كرجل خاضع للذائذ الحياة العادية (نساء أو أموالا) ولا يوحي من الناحية الروحية لا بالقدرة على كتمان السر ولا بالحياد . ومن هنا فان الدين يمارس مسؤولية قيادية ضئيلة جدا ، ورغم كون الفلاح الجنوبي تطيري بشكل وثني فانه لا يؤمن بالكنيسة . كل هذه التعقيدات تفسر لماذا لم يشغل الحزب الشعبي في الجنوب (باستثناء منطقة صقلية) موقعا بارزا ، ولم يمتلك أية شبكة من المؤسسات والمنظمات الجماهيرية . ويتلخص موقف الفلاح تجاه رجال الكنيسة في المثل الشعبي القائل : « الكاهن كاهن في المذبح ، أما في الخارج فهو رجل كالآخرين » .

أن فلاح الجنوب يرتبط بالملاك الكبير للاراضي عبر الوسيط المثقف . والحركات الفلاحية ، التي لا تعبر عن نفسها بمنظمات جماهيرية مستقلة ولو شكليا (أي قادرة على اختيار أطر فلاحية من أصول فلاحية وعلى تسجيل ومراكمة التباينات والتقدمات التي تتحقق في الحركة) تنتهي دوما الى أن تنظم نفسها ضمن التمفصلات العادية لجهاز

الدولة ــ مثل البلديات والمحافظات والبرلمان ــ عبر تشكل وتحلل الاحزاب المحلية التي يتألف اعضاؤها ومسؤولوها من المثقفين ، ولكن من يسيطر عليها فعلا هم كبار الملاكين ورجالهم الثقة، مثل سالاندرا وأورلاندو ودي شيزارو(٣٩). وكان يبدو أن الحرب ستدخل عنصرا جديدا في هذا النوع من التنظيم عبر حركة المحاربين القدماء التي شكل فيها الفلاحون ــ الجنود والمثقفون ــ الضباط كتلة أكثر توحيدا فيما بينهما وعلى خصومة ، الى حد ما ، مع كبار الملاكين (٤٠) .ولكن هذا التكتل لم يدم طويلا ، وكان آخر بقاياه هو « الاتحاد الوطني » (٤١) الذي حبل به آميندولا ، والذي كان ذو وجود وهمي بسبب معاداته للفاشية . وعلى العموم ، ونظرا لغياب تقليد التنظيم **المكشوف** للمثقفين **الديموقراطيين** في الجنوب ، فانه يجب أن يؤخذ هذا التجمع أيضا في الحساب لانه يمكنه أن يتحول من خيط رفيع للماء الى جدول ممتلىء في حال تغير شروط السياسة العامة . الاقليم الوحيد الذي اتخذت فيه حركة المحاربين القدماء مظهرا أكثر تحديدا ونجحت فيه بخلق بنية اجتماعية أكثر تماسكا ، هو اقليم جزيرة ساردينيا . وهذا واضح ، وبالتحديد لان طبقة كبار الملاكين في ساردينيا ضئيلة جدا ، وهي لا تمارس أية وظيفة، وليست لها تلك التقاليد الثقافية والفكرية والحكومية

---

(٣٩) حول سالاندرا راجع الهامش رقم (٣٠) في هذا المقال . أما Vittorio Emanuele Orlando (١٨٦٠ ــ ١٩٣٥) فكان قانونيا شهيرا ورجل سياسة ، وأصبح رئيسا للوزراء عام ١٩١٧ في فترة الهزيمة الماحقة في كابوريتو ، وبقي في منصبه حتى نهاية الحرب . وكان Di Cesaro رجل سياسة صقلي معروف .

(٤٠) الواقع أن حركة المحاربين القدماء طالبت بالاصلاح الزراعي .

(٤١) تحالف معادي للفاشية أسسه جوفاني آميندولا في النصف الثاني من عام ١٩٢٤ .

القديمة جدا التي للجنوب القاري . ان الدفع من الاسفل ، الممارس من قبل جماهير الفلاحين والرعاة لا يجد موازنته الخانقة عند الشريحة الاجتماعية العليا لكبار ملاكي الاراضي، والمسؤولون المثقفون هم الذين يتلقون كل تأثير هذا الدفع ويسيرون خطوات الى الامام أوسع من خطوات « الاتحاد الوطني » . أما أوضاع صقلية فلها سمات تختلف كليا سواء عن ساردينيا أم عن الجنوب القاري ، فكبار الملاكين فيها أكثر تلاحما وأكثر صلابة من أمثالهم في الجنوب القاري، ثم ان هنالك في صقلية بعض الصناعة وتجارة نامية جدا (ان صقلية هي أغنى أقاليم الجنوب وأحد أغنى أقاليم ايطاليا) ، وتشعر الطبقات العليا فيها كثيرا بأهميتها في الحياة الوطنية وتعمل أيضا على ابراز هذه الأهمية . والواقع أن اقليمي صقلية وبييمونتي هما الاقليمان اللذان أعطيا أكبر عدد من القادة السياسيين للدولة الايطالية ، وهما الاقليمان اللذان مارسا الحكم بشكل مستمر منذ عام ١٨٧٠ وما بعد . والجماهير الشعبية الصقلية أكثر تقدما من مثيلتها في الجنوب القاري ، ولكن تقدمها اتخذ شكلا صقليا بحتا ، حيث هنالك اشتراكية جماهيرية صقلية ذات تقليد وتطور خاصين ، وكانت هذه الاشتراكية الجماهير قد قدمت الى برلمان عام ١٩٢٢ حوالي ٢٠ نائبا من أصل ٥٢ نائبا منتخب عن الجزيرة .

قلنا أن الفلاح الجنوبي يرتبط بملاك الاراضي الكبير عبر الوسيط الذي هو المثقف . هذا النوع من التنظيم هو الاكثر شيوعا في الجنوب القاري وفي جزيرة صقلية ، وهو يحقق تكتلا زراعيا رهيبا يعمل بمجموعه كوسيط وكحارس للرأسمالية الشمالية والمصارف الكبرى . ان الهدف الوحيد لهذا التكتل هو المحافظة على الاوضاع القائمة ، وليس في داخله أي نور فكري أو برنامج أو أي دفع باتجاه التحسين

والتقدم . واذا كانت قد ظهرت بعض الافكار والبرامج فان أصولها انما أتت من خارج الجنوب ومن مجموعات سياسية زراعية محافظة ، وخاصة من مقاطعة توسكانا ، تحالفت في البرلمان مع محافظي تكتل الجنوب الزراعي . وكان أشباه سونينو وفرانكيتي (٤٢) هم البورجوازيون الاذكياء القلائل الذين طرحوا مشكلة الجنوب كمشكلة وطنية ورسموا خطة حكومية لحلها . ماذا كانت وجهة نظر سونينو وفرانكيتي ؟ (انهما يقولان) بضرورة خلق شريحة متوسطة مستقلة في ايطاليا الجنوبية ذات طبيعة اقتصادية يمكنها أن تشكل — كما كان يقال آنذاك — « الرأي العام » والحد من اعتباطية الملاكين من جهة ، وتخفف من انتفاضية الفلاحين الفقراء من جهة ثانية . وكان سونينو وفرانكيتي قد ارتعدا خوفا من مدى انتشار أفكار باكونين (٤٣) العائدة الى الاممية الاولى في الجنوب . هذا الخوف جعلهما يتخذان مواقف المبالغة والتضخم الخياليين . وكمثال على ذلك ، تشير احدى النشرات التي أصدراها الى أن مطعما شعبيا في مقاطعة كالابريا جعل اسمه مطعم شوبيرانتي ، (أي « مطعم المضربين ») ، وذلك للدلالة على مدى انتشار وتجذر الافكار الاممية . هذه الواقعة ، اذا كانت صحيحة (وكيف لا تكون وللمؤلفين ما لهما من الامانة الفكرية !) ، لها تفسير أكثر بساطة ، فالكل يعرف أن هنالك مستوطنات

---

(٤٢) Leopoldo Franchetti (١٨٤٧ — ١٩١٧) ، بحاثة في المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، كان صديقا لسونينو وساهم معه في دراسات واسعة عن الجنوب .

(٤٣) Michele Bakunin (١٨١٤ — ١٨٧٦) قائد فوضوي خلال مرحلة الاممية الاولى . أفكار باكونين التي ناقشها وانتقدها ماركس بحدة انتشرت بشكل خاص في المناطق الفلاحية والحرفية وشبه البروليتارية في اوروبا تلك الايام (سويسرا ، اسبانيا ، ايطاليا) . في ايطاليا بالذات كان الانتشار الاوسع لهذه الافكار قد ظهر في مقاطعات رومانيا وفي الجنوب وصقلية .

البانية كثيرة في الجنوب ، والكل يعرف كيف تحولت كلمة سكيبتاري (٤٤) في اللهجات المحلية الى أغرب وأبعد التحريفات (في بعض وثائق جمهورية فينيسيا نقرأ عن تشكيلات عسكرية من الـ « سشوبيتا ») . والواقع أن أفكار باكونين لكن واسعة الانتشار في الجنوب ، بل يحتمل أن أوضاع الجنوب نفسها هي التي أوحت لباكونين بنظريته، ومن المؤكد أن فلاحي الجنوب الفقراء فكروا « بالانهيار » قبل أن يكتشف عقل باكونين نظرية « الدمار الشامل » بكثير .

الخطة الحكومية التي وضعها سونينو وفرانكيتي لم تدخل أبدا مرحلة التنفيذ ، ولم يكن باستطاعتها أن تفعل . كانت عقدة العلاقات بين الشمال والجنوب في تنظيم الاقتصاد الوطني والدولة قد وصلت حدا تكاد تستحيل معه ولادة طبقة متوسطة واسعة ذات طبيعة اقتصادية (وهو ما يعني بالتالي ولادة بورجوازية رأسمالية واسعة) . كان أي تراكم لرأسمال في الموقع واي تراكم للتوفير امرا يكاد يكون مستحيلا بسبب النظام الضرائبي والجمركي ونتيجة لان الرأسماليين أصحاب الشركات لم يكونوا يحولون الارباح في الموقع الى رأسمال جديد لانهم ، هم انفسهم ، ليسوا من ذلك الموقع (٤٥) . وعندما اتخذت الهجرة في مطلع القرن

---

(٤٤) Skipetari تعني : الالباني ، والواقع أن لها تحريفات كثيرة في اللهجات الايطالية لا يستبعد أن تكون كلمة Scioperanti هي احداها ، رغم أنها تعني كذلك « المضربين » .

(٤٥) عمل النظام الضرائبي الايطالي لسنوات طويلة على نقل ثروات الجنوب الى الشمال لصالح الرأسماليين فيه . وكذلك الامر بالنسبة للنظام الجمركي الداخلي الذي أشير اليه أكثر من مرة قبل ذلك . وأكثر من ذلك فان أغلب صناعات الجنوب هي فروع للصناعات الام في الشمال ، وبالتالي فان الارباح في الجنوب تذهب الى المراكز الاساسية في الشمال وتساهم في تطويره .

العشرين الابعاد العملاقية التي أصبحت لها ، وبدأت أولى التحويلات المالية تأتي من أمريكا (٤٦) ، راح الاقتصاديون الليبراليون يصيحون انتصارا ، اذ اعتقدوا ان حلم سونينو سيتحقق . وقامت في الجنوب ثورة صامتة عملت ببطء ولكن بثبات على تحويل كل البنية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد. ولكن الدولة تدخلت ، وخنقت الثورة الصامتة فور ولادتها. ذلك ان الحكومة طرحت سندات للخزينة بفائدة مضمونة ، وتحول المغتربون وعائلاتهم من عناصر للثورة الصامتة الى عناصر تقدم للدولة الوسائل المالية لدعم الصناعات الطفيلية في الشمال . وكان فرانشيسكو نيتي يمكنه ان يبدو ، في الخط الديمقراطية والخارجية شكلا عن الكتلة الزراعية الجنوبية ، المنفذ الفعلي لبرنامج سونينو ، ولكنه كان — عوضا عن ذلك — افضل عميل للرأسمالية الشمالية في جمع اخر موارد التوفير الجنوبي . والمليارات التي ابتلعها « بنك الخصومات » (٤٧) كانت قد اتت بأكملها تقريبا من الجنوب ، وكانت الاغلبية العظمى لاصحاب الودائع البالغ عددهم ٤٠٠٠٠٠ شخص هي من اصحاب التوفيرات في الجنوب .

فوق الكتلة الزراعية في الجنوب هنالك الكتلة الفكرية التي عملت حتى الان على منع ان تصبح تشققات الكتلة

---

(٤٦) هي الاموال التي كان المهاجرون يحولونها الى عائلاتهم في الوطن. وكما يشير غرامشي ، فان هذه الاموال أيضا كانت تذهب لتغذية خزائن الدولة ، وعبرها صناعات الشمال ، وليس الى تنمية وتطوير الجنوب .

(٤٧) « بنك الخصومات الايطالي » تأسس في نهاية عام ١٩١٤ واصبح في غاية القوة عبر تمويله الصناعة الحربية . ونظرا لعدم تسديد هذه الصناعة ما عليها من ديون وقروض ، فقد وصل البنك الى حالة عجز وافلاس فقد فيها اصحاب الودائع حوالي ثلث ودائعهم .

الزراعية على درجة من الخطورة تقود الى الانهيار. وابرز زعماء هذه الكتلة الفكرية هما جوستينو فورتوناتو وبينيديتو كروتشي اللذين يمكن وصفهما ، لذلك ، بانهما اكثر الرجعيين نشاطا وعملا في الجزيرة .

قلنا ان ايطاليا الجنوبية عبارة عن تشتت اجتماعي ضخم . وهذه الصيغة تنطبق ايضا على المثقفين بالاضافة الى انطباقها على الفلاحين . ومن المعروف انه الى جانب الملكيات الزراعية الكبيرة جدا في الجنوب ، هنالك تراكمات فكرية ضخمة وتراكمات ضخمة للذكاء عند اشخاص افراديين او عند مجموعات ضيقة من كبار المفكرين ، في حين ان ليس هنالك تنظيم للثقافة المتوسطة . هنالك في الجنوب دار نشر « لا تيرزا » (٤٨) ، وهنالك مجلة « النقد » (٤٩) (لا كريتيكا) ، وهنالك اكاديميات ومؤسسات ثقافية ذات معرفة نظرية واسعة ، ولكن ليست هنالك مجلات صغيرة ومتوسطة، وليست هنالكدور نشر تتحلق حولها التشكيلات المتوسطة للمفكرين الجنوبيين . الجنوبيون الذين حاولوا الخروج عن الكتلة الزراعية وطرح المسألة الجنوبية بشكل جذري وجدوا الضيافة وتحلقوا حول مجلات تطبع خارج نطاق الجنوب . بل يمكن القول ان كل المبادرات الثقافية التي ابتدعها مفكرون متوسطون والتي تمركزت في ايطاليا

---

(٤٨) دار « لا تيرزا » هي اكبر دور النشر في الجنوب ومركزها في مدينة باري ، وهي احدى اهم دور النشر في ايطاليا كلها . ويعود نموها السريع وتثبيت اقدامها الى مطلع هذا القرن اذ قامت بنشر مؤلفات بينيديتو كروتشي ، وبعض المؤلفات الاخرى المستوحاة من الاتجاه نفسه . وما زالت الدار من انشط دور النشر الايطالية حتى اليوم .

(٤٩) مجلة « النقد » (لا كريتيكا) اسسها بينيديتو كروتشي ونشرتها دار « لا تيرزا » ، واستمرت في الصدور بلا انقطاع لمدة اربعين سنة (سنة ١٩٠٣ — ١٩٤٣) واثرت تأثيرا كبيرا في الثقافة الايطالية .

الوسطى والشمالية في مطلع القرن العشرين كانت تتسم بالجنوبيوية نظرا لتأثرها الكبير بمفكري الجنوب ، والمثال على ذلك كل مجلات مجموعة المفكرين الفلورنسيين ، مثل «لا فوتشي» و«اونيتا» ، ومجلات الديمقراطيين المسيحيين ، مثل « العمل » (آتسيوني) الصادرة في شيزينا ، ومجلات الشباب الليبراليين من ريجو ايميليا وميلانو اتبـــاع ج. بوريي ، مثل « الوطن » (لا باتريا) الصادرة في بولونيا ، او « العمل » الصادرة في ميلانو ، واخيرا مجلة « الثورة الليبرالية » التي كان يصدرها غوبيتي . حسنا ، والان : الوسطاء السياسيون ومفكرو كل هذه المبادرات كان الثنائي جوستينو فورتوناتو وبينيديتو كروتشي . وفي حلقة اوسع من تلك الحلقة الخانقة للكتلة الزراعية تمكـن (هـــذان المفكران) من منع خروج طرح المسألة الجنوبية عن حدود معينة ، ومنعها من التحول الى ثورة . رجال ذوي ثقافـة وذكاء واسعين نشأوا عـــلى الارضية التقليدية للجنوب ولكنهم مرتبطون بالثقافة الاوروبية ، وبالتالي العالمية ، كان لديهم كل المؤهلات لارضاء الحاجات الفكرية لاشرف ممثلي الشباب المثقف في الجنوب ، ومواساة الطموحات السخيفة القلقة للثورة ضد الشروط القائمة ، لتوجيههم بموجب خط متوسط من الهدوء الفكري والعمل . اولئـك المدعويـن النيوبروتستانتيين او الكالفينيين (٥٠) لم يفهموا انه نظـرا لانه لم يكن ممكنا نجاح اي اصلاح ديني جماهيري فـــي ايطاليا نتيجة للشروط العصرية للحضارة فقد تحقق الاصلاح الوحيد الممكن تاريخيا عبر فلسفة بينيديتو كروتشي ، التي غيرت اتجاه ومنهجية الفكر ، وبنت مفهوما جديدا للعالـم

---

(٥٠) حركة اصلاح ديني حققت انتشارا ضئيلا جدا في ايطاليا .

تجاوز الكاثوليكية وتجاوز كل ديانة ميثولوجية اخرى . في هذا الاتجاه ، قام بينيديتو كروتشي بوظيفة « وطنية » سامية ، فقد نجح في فصل المفكرين الراديكاليين الجنوبيين عن الجماهير الفلاحية ، وجعلهم يساهمون في الثقافة الوطنية والاوروبية ، وجعل البورجوازية الوطنية، وبالتالي الكتلة الزراعية ، تمتصهم عبر هذه الثقافة .

واذا كان يمكن ربط مجموعة « النظام الجديد » ، والشيوعيون التورينيون ، بطريقة ما ، بالتشكلات الفكرية التي اشرنا اليها ، واذا تأثروا هم ايضا — الى حد ما — بالنفوذ الفكري لجوستينو فورتوناتو وبينيديتو كروتشي ، فانهم يمثلون — في الوقت نفسه — انقطاعا كاملا او انكسارا كليا لذلك التقليد ، ويمثلون بداية تطور جديد اعطى بعض ثماره وما زال سيعطي . انهم ، كما قلنا ، طرحوا البروليتاريا المدينية كصاحبة الدور الاساسي العصري في التاريخ الايطالي ، وبالتالي بالنسبة للمسألة الجنوبية . ونظرا لان الشيوعيين عملوا كوسطاء بين البروليتاريا وشرائح محددة من المفكرين اليساريين ، فقد نجحوا في تحويل الاتجاه العقلي عندهم ، ان لم يكن كليا فالى حد ملحوظ . وهذا هو العنصر الاساسي في شخصية بييرو غوبيتي ، اذا دقق الانسان في الامر . فغوبيتي ، الذي لم يكن شيوعيا ، ويحتمل انه لن يصبح كذلك ابدا ، كان قد فهم الموقع الاجتماعي والتاريخي للبروليتاريا وما عاد يستطيع ان يفكر مستبعدا هذا العنصر . لقد وضعنا غوبيتي ، من خلال العمل العادي للصحيفة ، على علاقة بعالم حي لم يكن قد عرفه قبلا الا من خلال الصيغ الواردة في الكتب . وكانت سمته الاوضح امانته الفكرية وتخليه عن كل غرور وعن الصغائر المتدنية المستوى ، ولهذا لم يكن في وسعه الا يقتنع بزيف ولا عدالة سلسلة كاملة من

وجهات النظر والتفكير التقليدية نحو البروليتاريا . ما هي النتائج التي خلفتها عند غوبيتي هـذه العلاقات بعالـم البروليتاريا ؟ لقد كانت هذه العلاقات هي الاصل والنبضة الدافعة نحو مفهوم لا نريد مناقشته والتعمق فيه ، نحـو مفهوم يلتزم في جزئه الاكبر بالنقابوية وبطريقة تفكير المثقفين النقابويين . في هذا المفهوم تتحول مبادىء الليبرالية مـن مستوى الظاهرات الشخصية الـى مستـوى الظاهـرات الجماهيرية . صفات التمايز والتفوق في حياة الافراد تنتقل الى الطبقات التي تصبح معتبرة اشبه بشخصيات جماعية. هذا المفهوم يؤدي عادة بالمفكرين الذين يعتنقونه الى التأمل البحت ، والى تسجيل الافضال والمساوىء ، والى الموقـع المقيت والخجول للحكم بين المتنازعين ، ولموزع الجوائـز والعقوبات . عمليا ، كان غوبيتي قد نجح في الهرب مـن هذا المصير . واظهر غوبيتي كونه منظما للثقافة مـن مستوى رفيع جدا ، وكانت له في هـذه المرحلة الاخـيرة وظيفة يجب الا يقوم العمال باهمالها او بالتقليل من قيمتها. لقد حفر غوبيتي خندقا لا يمكن ان تتراجع الى ما وراءه تلك المجموعات من المفكرين الاكثر امانة واخلاصا والتي شعرت خلال اعوام ١٩١٩ ــ ٢٠ ــ ٢١ ان البروليتاريا ، كطبقة قائدة ، يمكنها ان تتفوق على البورجوازية . وراح البعض يردد بحسن نية وبامانة ، والبعض الاخر بسوء نيـة وبلا امانة ، ان غوبيتي ليس سوى شيوعي متخفي ، وانـه عميل ، ان لم يكن للحزب الشيوعي فللمجموعة الشيوعية « النظام الجديد » ، على الاقل . ولا حاجة حتى الى نفي هذه الشائعات الحمقاء . ان شخصية غوبيتي والحركةالتي يمثلها كانتا نتاجا عفويا للخط التاريخي الايطالي الجديد ، وفي هذا تكمن اهميتها ويكمن معنى وجودهما . لقد وجه الينا رفاق الحزب اللوم بعض الاحيان لاننا لم نحارب ضد

تيار افكار مجلة « الثورة الليبرالية » ، بل ان عدم دخولنا هذا الصراع كان يبدو تعبيرا عن ترابط عضوي ذو طبيعة مكيافيلية (كما يقال عادة) بيننا وبين غوبيتي . لم نكن نستطيع ان نحارب ضد غوبيتي لانه كان يشكل ويمثل حركة يجب الا تحارب ، من ناحية المبدأ على الاقل ، وان عدم فهم هذه النقطة معناه عدم فهم مسألة المفكرين — المثقفين والوظيفة التي يقوم بها هؤلاء في الصراع الطبقي . لقد كان غوبيتي يخدمنا ، عمليا ، كصلة وصل : ١ — مع المثقفين الذين ولدوا على ارضية التقنية الرأسمالية الذين اتخذوا موقفا يساريا مؤيدا لديكتاتورية البروليتاريا في عامي ١٩١٩ — ١٩٢٠ ، ٢ — مع سلسلة من المثقفين الجنوبيين الذين كانوا يطرحون المسألة الجنوبية ، نتيجة لاتصالات اكثر تعقيدا ، على ارضية مختلفة عن تلك التقليدية ، مدخلين فيها بروليتاريا الشمال ، وبين هؤلاء يعتبر غويدو دورسو (٥١) هو الشخصية الاكثر اكتمالا والاجدر بالاهتمام . ثم ، لماذا كان علينا ان نحارب حركة « الثورة الليبرالية » ؟ ألانها لم تكن مشكلة من شيوعيين صافين قبلوا برنامجنا وعقيدتنا من الالف الى الياء ؟ ان هذا الطلب لا يبدو معقولا لانه يعتبر ، سياسيا وتاريخيا، منافيا للمنطق . الواقع ان المثقفين يتطورون ببطء ، ببطء يفوق بكثير بطء اية مجموعة اجتماعية اخرى ، وذلك بسبب طبيعتهم ووظيفتهم التاريخية . انهم يمثلون كل التقليد الثقافي لشعب بكامله ، ويسعون الى تلخيص وتركيب التاريخ كله، ويقال هذا بشكل أخص عن المفكر — المثقف من النوع القديم ، عن المفكر — المثقف الذي ولد على الارضية

---

(٥١) راجع الهامش رقم ٣ في هذا المقال .

الفلاحية . ان الظن ان باستطاعته ان ينفصل ، عن كتلة الماضي لكي يطرح نفسه كليا على ارضية ايديولوجية جديدة، هو امر منافي للمنطق . من المنافي للمنطق بالنسبة للمفكرين ككتلة ، وقد يكون كذلك ايضا بالنسبة لكثير من المفكرين اذا اخذوا كافراد ، رغم كل الجهود المخلصة التي يبذلون ويريدون ان يبذلوا . ان ما يهمنا الان هم المفكرون — المثقفون ككتلة وليس كافراد . من المهم والمفيد للبروليتاريا طبعا ان يقوم مفكر او اكثر ، فرديا ، بالانضمام الى برنامجها وعقيدتها ، وان ينصهر هؤلاء بالبروليتاريا ويصبحوا، جزءا متكاملا منها ويشعروا بذلك . البروليتاريا ، كطبقة ، فقيرة بالعناصر القادرة على التنظيم ، وليس عندها ولا يمكنها ان تشكل شريحة لها من المفكرين الا ببطء كبير ، وبصعوبة كبيرة ، وبعد الاستيلاء على سلطة الدولة . ولكن من المهم والمفيد ايضا ان يتحقق انشقاق عضوي الطابع وذو سمات تاريخية داخل كتلة المفكرين ، وان يتشكل — كتشكيل جماهيري — اتجاه يساري ، بالمعنى الحديث والعصري للكلمة ، اي اتجاه ينحو منحى البروليتاريا الثورية . ان التحالف بين البروليتاريا والجماهير الفلاحية يحتاج الى هذا التشكل ، وبشكل اخص يحتاجه التحالف بين البروليتاريا والجماهير الفلاحية الجنوبية . وسوف تتمكن البروليتاريا من تحطيم الكتلة الزراعية الجنوبية بمقدار ما تنجح ، عبر حزبها ، بتنظيم جماهير فلاحية فقيرة اوسع بشكل متزايد في تشكيلات مستقلة . ولكنها يمكنها ان تنجح ، اكثر او اقل، بمقياس واسع في مهمتها الاجبارية هذه بحسب مقدرتها على تفكيك الكتلة الفكرية التي هي السلاح المرن ، والمقاوم جدا ، للكتلة الزراعية . بييرو غوبيتي ساعد البروليتاريا في حل هذه المهمة ، ونحن نعتقد ان اصدقاء المتوفى سوف يتابعون ، بدون قيادته ، العمل الذي بدأه . وهو العمل

العملاق والصعب ، وهذا بالذات ما يجعله يستحق كـــل التضحيات (حتى بالحياة ، كما كان الامر بالنسبة لغوبيتي) من قبل المفكرين (وهم كثيرون ، اكثر مما يعتقد البعض) الشماليين والجنوبيين الذين فهموا كونهم ، جوهريا، وطنيين وحاملين لمستقبل قوتين اجتماعيتين فقط ، هما البروليتاريا والفلاحين (٥٢) .

---

(٥٢) عند هذه النقطة يتوقف غرامشي عن الكتابة دون اتمام الموضوع.

تشكل المفكرين (*)

هل المفكرون هم مجموعة اجتماعية مستقلة ، ام ان لكل مجموعة اجتماعية فئتها المخصصة من المفكرين ؟ ان المشكلة معقدة بسبب الاشكال المختلفة التي اتخذها حتى الان التطور التاريخي الحقيقي لتشكل الفئات المختلفة من المفكرين .

اهم هذه الاشكال اثنين :

١ ــ كل مجموعة اجتماعية ، بولادتها على الارضية الاصلية لوظيفة اساسية في عالم الانتاج الاقتصادي، تخلق معها ، عفويا ، فئة او اكثر مــن المفكرين الذين يعطوها التجانس والوعي لوظيفتها لا في الميدان الاقتصادي فحسب، بل ايضا في الميدان الاجتماعي والسياسي . ان الرأسمالي صاحب المؤسسة يخلق معه تقني الصناعة وعالم الاقتصاد السياسي ومنظم الثقافة الجديدة ، والقانون الجديد.. الخ.

(*) من « المفكرون والتنظيم الثقافي » .

ولابد من ملاحظة ان صاحب المؤسسة يمثل الحالةالاجتماعية الارقى التي تتسم بمقدرة قيادية وتقنية معينة (اي فكرية) ، اذ ان عليه ان يتمتع بالاضافة الى المقدرة التي يحتاجها في الميدان الذي يحطيه به نشاطه وتحيطه به مبادراته ، بمقدرة في ميادين اخرى اقلها تلك الاقرب الى الانتاج الاقتصادي (عليه ان يكون قادرا على تنظيم جمهرة من الرجال ، وعليه ان يكون قادرا على تنظيم « ثقة » الموفرين في مؤسسته ، والشارين في بضاعته .. الخ) .

وان لم يكن كل اصحاب المؤسسات ، فنخبة منهم على الاقل ، لا بد الا ان تكون عندها القدرة على تنظيم المجتمع بشكل عام ، وبكل تعقيدات جهازه من الخدمات ، وحتى جهاز الدولة ، وذلك لضرورة ايجاد الشروط الاكثر ملاءمة لتوسع الطبقة .. او ان هذه النخبة تمتلك على الاقل القدرة على اختيار «البائعين» (الموظفين الاختصاصيين) الذين يعهد اليهم بهذه النشاطات التنظيمية للعلاقات العامة الخارجية للمؤسسة . ومن الممكن ملاحظة ان المفكرين « العضويين » (١) الذين تخلقهم كل طبقة معها وتشكلهم من خلال نموها المتطور ، هم — على الاغلب — « اختصاصات » لمظاهر جزئية من النشاط البدائي للنوع الاجتماعي الجديد الذي تبرزه الطبقة الجديدة .

حتى السادة الاقطاعيون كانوا يمتلكون مقدرة تقنية محددة ، هي تلك العسكرية ، ولهذا السبب بالذات . فمنذ ان فقدت الارستقراطية احتكارها للمقدرة التقنية — العسكرية بدأت ازمة الاقطاع . ولكن تشكل المفكرين في العالم الاقطاعي وفي العالم الكلاسيكي السابق هو مسألة

---

(١) راجع الهامش رقم ٨ في مقال « مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا » في الجزء الثاني من هذه المختارات .

يجب بحثها على حدة اذ ان هذا التشكل والتطور يتبع سبلا وطرقا تجب دراستها بشكل جدي . وهكذا يجب ملاحظة ان جماهير الفلاحين ، رغم انها تقوم بوظيفة جوهرية في عالم الانتاج ، فانها لا تصنع مفكريها « العضويين » ، ولا « تمتص » اية فئة من المفكرين « التقليديين » ، رغم ان مجموعات اجتماعية اخرى تأخذ من جماهير الفلاحين مفكريهم ، وان جزءا كبيرا من المفكرين التقليديين هم من اصول فلاحية .

٢ — ولكن كل مجموعة اجتماعية « اساسية » (٢)، بنشوئها من تاريخ البنية الاقتصادية السابقة لها وكتعبير عن تطور (تلك البنية) ، وجدت ، على الاقل في التاريخ المعروف حتى الان ، فئات مفكرين موجودة قبلا ، بل وكانت هذه الفئات تبدو كممثلة لاستمرارية التاريخ غير المنقطعة ولا حتى من قبل التحولات الاكثر تعقيدا وجذرية للاشكال السياسية والاجتماعية .

الفئة الاكثر نموذجية بين فئات المفكرين هذه هي فئة الكنسيين الذين احتكروا لزمن طويل (مرحلة تاريخية كاملة تتميز فعلا بهذا الاحتكار) (٣) بعض الخدمات الهامة، مثل الايديولوجية الدينية ، اي الفلسفة وعلوم ذلك العصر ، بما في ذلك المدرسة والتعليم والاخلاق والعدل والاعمال الخيرية .. الخ . ان فئة الكنسيين يمكن اعتبارها الفئة الفكرية المرتبطة عضويا بالارستقراطية الاقطاعية ، وكانت

---

(٢) المجموعات الاجتماعية (الطبقات) الاساسية هي التي تستطيع تاريخيا ان تصل الى السلطة وان تقود الطبقات الاخرى ، مثل البورجوازية والبروليتاريا .

(٣) العصور الوسطى ، اي الفترة الممتدة من سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب (٤٧٦ بعد الميلاد) وحتى اكتشاف اميركا (١٤٩٢) .

تتساوى حقوقيا مع الارستقراطية التي تتقاسم معها ممارسة الملكية الاقطاعية واستخدام امتيازات الدولة المرتبطة بملكية الارض . ولكن احتكار البنى الفوقية (٤) من قبل الكنسيين لم يمارس بلا صراعات وبلا حدود، وبالتالي فقد جاء وقت ولادة فئات اخرى باشكال مختلفة (يجب البحث عنها ودراستها) ، وكان مما يساعد هذه الفئات ويكبر حجمها ازدياد القدة المركزية للملك ، وحتى الوصول به الى الاستبدادية . وهكذا تشكلت ارستقراطية الثوب(٥) بكل امتيازاتها ، وفئة الاداريين .. الخ ، وكذلك تشكلت ايضا فئات العلماء والمنظرين والفلاسفة غير الكنسيين ..الخ (٦) .

ونظرا لان هذه الفئات المختلفة من المفكرين ـ المثقفين التقليديين تشعر « بروحية الجسد » باستمراريتها التاريخية غير المنقطعة و« باهليتها » ؛ فهي تطرح نفسها باعتبارها مستقلة عن المجموعة الاجتماعية المسيطرة . ولا يبقى هذا الموقع ـ الذاتي بلا نتائج في الميدان الايديولوجي والسياسي، وهي نتائج متباينة الاهمية ، ويمكن بسهولة ربط كل الفلسفة المثالية بهذا الموقع الذي افترضته لنفسها الفئة الاجتماعية للمفكرين ، ويمكن تسميته بالتعبير عن هذه الطوباوية الاجتماعية التي ، بموجبها ، يظن المفكرون انفسهم

---

(٤) راجع الهامش رقم (٥) في مقال « التوقع والمنظور » في الجزء الثاني من هذه المختارات .

(٥) « ارستقراطية الثوب » تعبير يشير الى القضاة والمحامين ورجال القانون بشكل أعم .

(٦) يشير غرامشي هنا الى تشكل الثقافة العلمانية (غير الكنسية) الذي تم بالارتباط مع نمو وتطور الملكيات الاستبدادية في اوروبا ، وذلك نظرا للحاجة الى الاداريين والدبلوماسيين .. الخ ، بالاضافة الى متطلبات الهيبة الثقافية للبلاطات .

« مستقلين » ، قائمين بذاتهم ، متسمين بصفات خاصة بهم .. الخ (٧) .

ولكن ، يجب ملاحظة انه اذا كان البابا ورجال المراتب العليا في الكنيسة يعتقدون انفسهم اكثر ارتباطا بيسوع والحواريين من ارتباطهم بالسيناتور آنييلي او السيناتور بيني (٨) ، فليس الامر كذلك بالنسبة لجنتيلي وكروتشي مثلا ، فكروتشي ، بشكل أخص ، يشعر نفسه مرتبطا بشدة بأريسطو وافلاطون ، ولكنه لا يخفي ارتباطه بالسيناتور آنييلي والسيناتور بيني بل العكس هو الصحيح ، وفي هذه النقطة بالذات يجب البحث عن السمة الاكثر بروزا في فلسفة كروتشي (٩) .

ما هي الحدود « القصوى » لمفهوم « المفكر » ؟ هل يمكن العثور على مبدأ موحد يميز بصورة متساوية كل النشاطات الفكرية المختلفة والمتفرقة ولتفريق هذه النشاطات ، في الوقت نفسه ، وبشكل اساسي جوهري ، عن نشاطات بقية التجمعات الاجتماعية ؟ يبدو لي ان الخطأ المنهجي الاكثر انتشارا هو ان البحث عن مبدأ التفريق والتمييز هكذا يجري في ظاهر النشاطات الفكرية وليس في مجموع نظام

---

(٧) ان الرابط بين « الطوباوية » التي تجعل المفكرين يظنون انفسهم مستقلين عن الطبقة المسيطرة والمفاهيم « المثالية » يكمن في ان هذه المفاهيم تقول بان « الفكر » او « الفكرة » هي التي تخلق الواقع وليس العكس .

(٨) اثنان من اكبر زعماء الرأسمالية الايطالية ، الاول يملك القسم الاعظم من شركة فيات والثاني يملك الجزء الاعظم من مونتي كاتيني .

(٩) فيما يخص هذه الفقرة اعلن كروتشي انه لم يتعرف ابدا بآنييلي او بيني . ولكن من الواضح ان غرامشي لا يشير الى علاقة مادية وجسدية بل الى ان غرامشي ترجم ، ثقافيا ، الحاجات الاقتصادية والسياسية للرأسمالية الايطالية الكبيرة في احدى مراحل نموها .

العلاقات التي تجد نفسها (وبالتالي المجموعات التي تجسدها) متداخلة بالنظام العام للعلاقات الاجتماعية . صحيح ان العامل او البروليتاري، مثلا، لا يتميز بخصوصية العمل اليدوى ، او الآلي ، ولكنه يتميز بهذا العمل ضمن اطار علاقات اجتماعية معينة ومحددة (بغض النظر عن الرأي القائل بان ليس هنالك عمل جسدي بحت ، وان قول تيلور (١٠) عن « الغوريلا المدربة » ليس الا استعارة للاشارة الى حد معين في اتجاه معين ، الواقع ان في كل عمل جسدي ، حتى ذلك الميكانيكي والمنحط ، هنالك حد ادنى من المهارة ، اي حد ادنى من النشاط الفكري المبدع). وقد لاحظنا قبلا ان صاحب المؤسسة ، بسبب وظيفته نفسها ، عليه ان يتمتع بمقدار معين وعدد معين من المهارات ذات الطابع الفكري ، وان كانت هذه المهارات ليست هي التي تحدد موقعه الاجتماعي ، بل هي العلاقات العامة الاجتماعية التي تحدد وتميز موقع صاحب المؤسسة في الصناعة .

يمكن القول ان كل انسان هو انسان مفكر ، ولكن ليس لكل انسان في المجتمع وظيفة المفكر (١١) .

عندما يميز المرء بين المفكرين وغير المفكرين فانه في الواقع لا يشير الا الى الوظيفة الاجتماعية الآنية والمباشرة للفئة المهنية للمفكرين ، اي انه يأخذ في اعتباره الاتجاه الذي

---

(١٠) Frederik Taylor (١٨٥٦ ــ ١٩١٥) مهندس اميركي ، مؤسس التنظيم العلمي للعمل ، ويتجه الى زيادة الانتاجية عبر استغلال اكثر عقلانية لعمل العمال وعبر بعض التجديدات في نظام الانتاج .

(١١) « وهكذا ، اذا حصل ان قام كل انسان ، في لحظة ما ، بقلي بيضتين ، او بخياطة فتق في سترته ، لا يمكن القول ان كل انسان هو طباخ او خياط » (ملاحظة غرامشي نفسه) .

يرجح فيه الثقل الاكبر للنشاط المهني المحدد ، واذا ما كان هذا يميل نحو العمل الفكري او نحـو الجهـد العضلي — العصبي . وهذا يعني انه اذا كان من الممكن الكلام عـن المفكرين ، فانه لا يمكن الكلام عن غير المفكرين ، لان غـير المفكرين ليسوا موجودين . ولكن العلاقة نفسها بين جهـد العمل الفكري الذهني والجهد العضلي — العصبي ليست واحدة دوما ، وبالتالي فان هنالك درجات مختلفة للنشاط الفكري المحدد . ليس هنالك نشاط انساني يمكن استبعاد اي تدخل فكري عنه ، ولا يمكـن التفريق بـين « الانسان الحداد » و« الانسان العارف » (١٢) . كل انسان ، في النهاية ، يقوم ، خارج نطاق مهنته ، بنوع من انواع النشاط الفكري ، اي انه يكون « فيلسوفا » وفنانا وذواقة يساهم في مفهوم معين للعالم ويتبع خطا واعيا للسلوك الاخلاقي، وبالتالي فانه يساهم في دعم او تطوير مفهوم معين للعالم، اي في استثارة طرق جديدة للتفكير .

ان مشكلة خلق فئة فكرية جديدة تعني ، عـلى العموم ، التشغيل النقدي للنشاط الفكري الموجود بدرجـة معينة من النمو عند كل انسان ، بحيث يجري تعديـل العلاقة بين هذا النشاط والجهد العضلي — العصبي باتجاه توازن جديد ، وللتوصل الى ان يصبح الجهد العضلي — العصبي ، باعتباره عنصر النشاط العملي عموما والمجدد الدائم للعالم المادي والاجتماعي ، القاعدة الاساسية لمفهوم جديد ومتكامل للعالم . ان النموذج التقليدي والشائـع للمفكر هو ما يمثله الاديب والفيلسوف والفنان. ولهذا فان الصنحفيين ، الذين يعتبرون انفسهم ادباء وفلاسفة وفنانين،

---

(١٢) التعبيرهنا باللاتينية: Homo Faber و Homo Sapiens والمقصود بالاولى ، « الانسان الحداد » ، كل من يقوم بعمل يدوي ، وبالثانية ، « الانسان العارف » ، كل من يقوم بنشاط فكري .

يعتبرون ايضا انهم هم المفكرون « الحقيقيون » . في العالم الحديث يجب ان يشكل التعليم التقني ، المرتبط ارتباطا وثيقا بالعمل الصناعي ، وحتى بالعمل الصناعي الاكثر بدائية والاقل تخصصا ، قاعدة النموذج الجديد من المفكرين (١٣) .

على هذا الاساس عملت مجلة « النظام الجديد » الاسبوعية لتطوير اشكال معينة من الفكرية الجديدة ولتحديد وطرح موضوعات جديدة ، ولم يكن احد الاسباب الاقل اهمية لنجاحها ، لان هذا الطرح كان يتجاوب مع الطموحات الكامنة ، وكان مطابقا لتطور الصيغ الواقعية للحياة . ان شكل وجود المفكر الجديد لم يعد يتلخص في فصاحة الكلام والتحريك الخارجي والآني السريع للعواطف والمشاعر ، بل في الاختلاط الايجابي بالحياة العملية ، كبناء ومنظم ، و« مقنع دائم » — لا خطيب فقط — على مستوى اعلى من مستوى الروحية الرياضية (Matematico) التجريدية . وعلى المفكر أن يصل عبر التقنية — العمل الى التقنية — العلم والى المفهوم الانساني التاريخي الذي يبقى المفكر بدونه « اختصاصيا » ولا يصبح « قياديا » (اختصاصيا + سياسيا) (١٤) .

---

(١٣) وبذلك ، فانه ليس من المستغرب ان يقوم التعليم في الاتحاد السوفياتي على اساس التوجه البوليتكنيكي ، اي العلمي — التقني .

(١٤) نموذج المفكر الذي يرسمه غرامشي هنا هو نموذج المفكر المرتبط عضويا بتطور ونمو التنظيم السياسي للطبقة العمالية . هذا النموذج الجديد للمفكر القائد ليست له اية علاقة ببعض الاشكال التقليدية للزعماء السياسيين الذين كانوا يعتمدون على قدراتهم الخطابية وعلى «العواطف» فحسب . على العكس من ذلك ، فان معرفة مشاكل الانتاج والتكنيك والاقتصاد يجب ان تترافق عند المفكر بالنظرة الشاملة (الانسانية — التاريخية) للواقع الذي يجب تغييره .

وهكذا تتشكل ، تاريخيا، فئات متخصصة في ممارسة الوظيفة الفكرية ، وتتشكل هذه الفئات بالارتباط مع كافة المجموعات الاجتماعية ، ولكن ، وبشكل أخص ، بالارتباط مع المجموعات الاجتماعية الاكثر اهمية ، وتخضع ايضا الى المعالجات الاكثر اتساعا وتعقيدا والمرتبطة بالمجموعة الاجتماعية المسيطرة . ان احدى السمات الاكثر بروزا عند اية مجموعة اجتماعية تتطور باتجاه السيطرة هو نضالها من اجل الامتصاص والاكتساب « الايديولوجي » للمفكرين التقليديين ، وكلما كان هذا الامتصاص والاكتساب اسرع تمكنت المجموعة من صناعة مفكريها العضويين في الوقت نفسه .

ان التطور الهائل الذي نجم عن النشاط والتنظيم المدرسي (المعنى الواسع) للمجتمعات التي انبثقت من العصور الوسطى يشير الى مدى الاهمية التي صارت في العالم الحديث للفئات وللوظائف الفكرية ، وكما جرت محاولة للتعمق والتوسع في « فكروية » الانسان الفرد ، كذلك فقد جرت محاولة لمضاعفة التخصصات اضعافا كثيرة ورفع مستوى هذه التخصصات . وهذا هو نتاج المؤسسات المدرسية على مختلف المستويات وحتى الاجهزة العاملة على ترويج ما يسمى « بالثقافة العليا » في كل ميادين العلم والتقنية .

المدرسة هي اداة صنع المفكر من مختلف المستويات. ويمكن قياس مجموع الوظيفة الفكرية في الدول المختلفة ، موضوعيا ، بكمية مدارس التخصص وتسلسلها المرتبي ، فكلما اتسعت « المساحة » المدرسية وكلما تكاثر عدد « الدرجات » « العمودية » للمدرسة ، ازداد تعقيد الحياة الثقافية والحضارة في دولة معينة . ويمكن استخدام مقياس للمقارنة في اطار التقنية الصناعية : ان تصنيع بلد ما

يقاس بتجهيزاته من الآلات المستخدمة في بناء الآلات ، ومن صناعة الادوات المتزايدة في الدقة دوما لصناعة آلات جديدة تستخدم في بناء الآلات .. الخ . والبلد الذي يمتلك افضل التجهيزات لصناعة ادوات مختبرات التجارب للعلماء ولصناعة ادوات اختبار هذه الادوات ، يمكن اعتباره البلد الاكثر تعقيدا تقنيا ــ صناعيا ، والاكثر حضارة .. الخ . وينطبق الشيء نفسه على تحضير المفكرين والمدارس المختصة بهذا التحضير ، بما في ذلك مدارس ومعاهد الثقافة العليا. في هذا المجال ايضا لا يمكن فصل الكمية عن النوعية . اذ لا يمكن لادق الاختصاصات التقنية ــ الثقافية الا ان تترافق باكبر توسع ممكن لانتشار التعليم الابتدائي وباكبر استثارة ممكنة لتوفير التعليم المتوسط لاكبر عدد ممكن من الناس . من الطبيعي ان هذه الحاجة الى ايجاد أوسع قاعدة ممكنة لاختيار وصناعة اعلى المؤهلات الفكرية (اي لاعطاء الثقافية العليا والتقنية المتقدمة بنية ديموقراطية) ليست بلا سلبيات، اذ انها تخلق امكانيات ازمات بطالة واسعة لدى الشرائح المتوسطة المثقفة كما يحصل فعلا في كل المجتمعات الحديثة .

ومن الجدير بالملاحظة ان صناعة الفئات الفكرية في الواقع الملموس لا تتم على ارضية ديموقراطية مجردة ، بل بموجب عمليات وتطورات تاريخية تقليدية صلبة جدا . لقد تشكلت فئات من النوع الذي « ينتج » تقليديا المفكرين ، وهي الفئات نفسها المختصة عادة « بالتوفير » ، اي البورجوازية الزراعية الصغيرة والوسطى وبعض شرائح البورجوازية المدينية الصغيرة والوسطى . ان التوزيع المختلف الانواع المختلفة من المدارس (الكلاسيكية والاختصاصية) في الارضية « الاقتصادية » والطموحات المختلفة للقطاعات المتباينة لهذه الفئات تحدد ، او تعطي

شكل ، انتاج مختلف فروع التخصص الفكري ، وهكذا ، فان البورجوازية الريفية تنتج ، بشكل اخص ، موظفي الدولة واصحاب المهن الحرة ، في حين ان البورجوازية المدينية تنتج تقنيي الصناعة .و لذلك فان ايطاليا الشمالية تتخصص تقريبا بانتاج التقنيين بينما تتخصص ايطاليا الجنوبية ، تقريبا ، بانتاج الموظفين واصحاب المهن الحرة .

ان العلاقة بين المفكرين وعالم الانتاج ليست علاقة مباشرة ، كما هو الامر بالنسبة للمجموعات الاجتماعية الاساسية ، بل هي علاقة « بالواسطة » ، وبدرجة مختلفة، عبر كل النسيج الاجتماعي ومجموع البنى الفوقية التي يلعب فيها المفكرون دور « الموظفين المسؤولين » . ويمكن قياس « عضوية » مختلف الشرائح الفكرية ومدى وثوق ارتباطها بمجموعة اجتماعية اساسية معينة من خلال تحديد تدرج الوظائف والبنى الفوقية من الادنى نحو الاعلى (اي من القاعدة البنيوية وباتجاه الاعلى) . ويمكن ، حاليا ، تحديد « مستويين » كبيرين للبنى الفوقية ، المستوى الاول هو ما يمكن تسميته « بالمجتمع المتحضر » ، اي مجموع الاجهزة التي تسمى بالعامية « الاجهزة الخاصة » ، والمستوى الثاني هو «المجتمع السياسي او الدولة» ، ويمثل هذان المستويان ، على التوالي ، وظيفة « الهيمنة » التي تمارسها المجموعة المسيطرة على كل المجتمع ، ووظيفة « السيطرة المباشرة » او القيادة التي تعبر عن نفسها بالدولة وبالحكومة « القانونية » (١٥) . هاتان الوظيفتان هما ،

---

(١٥) حول مفهومي « الهيمنة » و« السيطرة » راجع الهامش رقم(٢) في مقال « مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا » في الجزء الثاني من هذه المختارات ، ويميل غرامشي هنا الى توسيع هذين المفهومين واعطائهما دقة اكبر .

بالتحديد ، وظيفتا تنظيم وربط . المفكرون هم « الباعة العاملين » عند المجموعة المسيطرة في ممارسة الوظائف التابعة للهيمنة الاجتماعية وللحكم السياسي . اي : ١ ـ للموافقة « العفوية » التي تمنحها الجماهير الواسعة للاتجاه الذي يطبع الحياة بطابع المجموعة الاساسية المسيطرة ، وهي الموافقة التي تولد « تاريخا » من الهيبة (وبالتالي الثقة) التي تتمتع بها المجموعة المسيطرة نتيجة لموقعها ولوظيفتها في عالم الانتاج ، ٢ ـ في جهاز تماسك وانسجام الدولة الذي يضمن « قانونيا » انضباط تلك المجموعات التي لا تبدي « موافقتها » لا ايجابا ولا سلبا ، ولكنها مؤلفة من كل المجتمع بحيث يمكنها ان تتدخل في لحظة ازمة القيادة بالاتجاه الذي تخف فيه نسبة الموافقة العفوية .

هذا الطرح للمشكلة يؤدي الى توسيع كبير جدا لمفهوم المفكر ، ولكن بدون هذا الطرح لا يمكن الوصول الى تقريب ملموس للواقع . هذه الطريقة لطرح المسألة تصطدم بمفاهيم مسبقة فئوية ، اذ من الصحيح ان نفس الوظيفة التنظيمية للهيمنة الاجتماعية ولسيطرة الدولة تفسح المجال امام تقسيم معين للعمل ، وبالتالي امام تدرج معين في مدى التأهيل الذي لا تبدو في بعضه اية مشاركة قيادية او تنظيمية ، في اجهزة قيادة المجتمع وادارة الدولة هناك سلسلة من الوظائف اليدوية والآلية الطابع (اي انها ذات طابع نظامي وليس مفهومي ، ذات طابع عميل تابع وليس طابع مسؤول .. الخ) . ولكن لا بد من اجراء هذا التمييز كما لا بد من اجراء تمييز اخر . فالواقع ان النشاط الفكري يجب ان يتمايز بدرجات حتى من وجهة النظر الجوهرية او الداخلية ، وهي درجات تعطي في لحظات التعارض الاقصى اختلافا نوعيا حقيقيا ، حيث يحتل

الدرجة الاكثر ارتفاعا مدعو العلوم المختلفة كالفلسفة والفن .. الخ ، اما الدرجة الاكثر تدنيا فيحتلها «الاداريون» الاكثر تواضعا وناشرو الثروات الفكرية الموجودة قبلا ، والتقليدية ، والمتراكمة (١٦) .

في العالم الحديث توسعت فئة المفكرين ، كفئة ،بشكل لم يسبق له مثيل . وصنع النظام الاجتماعي الديموقراطي-البيروقراطي جماهير كبيرة (من المفكرين) لا تبررها الاحتياجات الاجتماعية للانتاج ، وان كانت تبررها الاحتياجات السياسية للمجموعة الاساسية المسيطرة . اذن ، فالمفهوم اللورياني « للعامل » غير المنتج (١٧) (غير منتج بالنسبة الى من والى اية طريقة انتاج ؟) يمكن تبريره اذا أخذ في الحساب أن هذه الجماهير تستغل موقعها للحصول على أتاوات ضخمة من الدخل القومي . ان تشكل الجماهير وحد نموذج الانسان الفرد، سواء كمؤهلات

---

(١٦) « يبدو التنظيم العسكري في هذه الحالة نموذجا لهذه التدرجات المعقدة ، حيث هنالك الضباط المعاونون ، والضباط القادة ، وهيئة الاركان ، ولا يجب ان ننسى الرتباء الذين تفوق اهميتهم الحقيقية ما يظن عادة . ومن الجدير بالملاحظة ان كل هذه الاجزاء تشعر بالتآزر والتلاحم فيما بينها » (من ملاحظة لفرامشي) .

(١٧) ان مفهوم « العامل غير المنتج » وارد ايضا في كتاب « دروس الاقتصاد السياسي » للوريا ، المنشور للمرة الاولى عام ١٩٠٩ والمعاد نشره مرات عديدة فيما بعد . ويرى لوريا ان « العمال غير المنتجين » هم الشعراء والفلاسفة والكتاب بانواعهم والاطباء والمحامون والاساتذة .. الخ . ويرى كذلك ان هؤلاء على تناقض مع الملاكين (الرأسماليين) لان الملاكين يسعون الى زيادة عدد هؤلاء « العمال غير المنتجين » حتى يدفعوا اجورا اقل لخدماتهم ، بينما مصلحتهم هي في العكس تماما . ومن الواضح ان هذه الفكرة ليست الا واحدة من المبالغات التطرفية المجانية .

افرادية أم نفسية ، موجدا نفس الظاهرات الموجودة عند كل الجماهير الاخرى الموحدة النماذج Standardized اي التنافس الذي يطرح ضرورة التنظيم المهني للدفاع ، والبطالة ، وتكاثر الانتاج المدرسي ، والهجرة .. الخ .

المواقع المختلفة للمفكرين من النوع المديني والمفكرين من النوع الريفي : المفكرون من النوع المديني توالدوا مع الصناعة ونشأوا معها ، وهم مرتبطون بأوضاعها ، ويمكن مقارنة وظيفتهم بوظيفة الضباط المعاونين في الجيش ، اذ ليست لهم مبادرات ذاتية في وضع خطط البناء ، بل هم يقيمون العلاقة ، ويمفصلونها ، بين الجماهير الاداتية (١٨) وصاحب الصناعة ، ويقومون بالتنفيذ المباشر لخطة الانتاج التي وضعتها هيئة اركان الصناعة ، وتشرف على ضبط مراحل العمل الاولية . ومفكرو المدينة ، بمتوسطهم العام ، كلهم من نموذج واحد Standardized ، أما البقيةالباقية منهم فتختلط بهيئة الاركان الحقيقية للصناعة .

المفكرون من النوع الريفي هم في غالبيتهم « تقليديون » ، أي أنهم أكثر ارتباطا بالجماهير الاجتماعية الريفية والبورجوازية الصغيرة للمدينة (وخاصة المدن الاصغر) التي لم تصنع بعد ولم تدخل في حركة النظام

---

(١٨) الجماهير الاداتية يقصد بها العمال . وتبقى ملاحظة غرامشي صحيحة عموما ، وبشكل اخص فيما يتعلق بالمرحلة التي كتب فيها ، رغم انه يجب استكمالها اليوم . اذ ان هنالك وظائف جديدة اليوم ، ليست تقنية بحتة بل تتعلق بتنظيم موافقة العمال على ادارة المؤسسة (بهدف زيادة الانتاج ، وبالتالي وفي نظام رأسمالي، زيادة الربح) ، وهي وظائف منسوبة الى تقنيي المصنع ، كما هو الامر في الولايات المتحدة والدول التي نقلت عنها نظامها الصناعي ، وهو ما يحدد لهذه الوظائف تاثيرها السياسي المباشر على العمال .

الرأسمالي ، وهذا النوع من المفكرين يكون صلة الوصل بين الجماهير الفلاحية وادارة الدولة أو الادارة المحلية (وهم مؤلفون من المحامين ومسجلي العقود وما شابه ذلك) ، وبسبب هذه الوظيفة بالذات فان لهم وظيفة سياسية — اجتماعية كبيرة لانه يصعب فصل الوساطة المهنية عن الوساطة السياسية . وبالاضافة الى ذلك ، ان للمفكر في الريف (القس ، المحامي ، الاستاذ ، مسجل العقود ، الطبيب .. الخ) مستوى متوسطا للحياة أعلى ، أو على الاقل مختلف ، عن مستوى حياة الفلاح ، ولذلك فانه يمثل بالنسبة له النموذج الاجتماعي لطموح التخلص من أوضاعه وتحسينها . ويفكر الفلاح بأن ابنه — على الاقل — قد يصبح مثقفا مفكرا (وكاهنا بشكل أخص) ، أي يصبح سيدا ، فيرفع المرتبة الاجتماعية للعائلة ، ويسهل لها الحياة الاقتصادية بكل ما في ذلك من انتماء الى بقية السادة . ان موقف الفلاح من المثقف — المفكر هو موقف ازدواجي ، ويبدو متناقضا ، فهو يعجب بالموقع الاجتماعي للمثقف — المفكر وبالعمل في الدولة بشكل عام ، ولكنه يتظاهر باحتقار هذا المنصب ، أي أن اعجابه يبقى داخليا وحدسيا مجبولا بمشاعر الحسد والغضب . ولا يمكننا أن نفهم شيئا من الحياة الجماعية للفلاحين ، ومن بذور التطور وغلياناته القائمة اذا لم نأخذ في الاعتبار ، ولم ندرس جديا ، ولم نتعمق في هذه التبعية الفعلية للمثقفين — المفكرين ، فكل تطور عضوي للجماهير الفلاحية ، حتى نقطة معينة ، يرتبط بتحركات المفكرين ويعتمد عليها .

أما حالة المفكرين المدينيين فتختلف عن ذلك ، اذ أن تقنيي المصنع لا يقومون بأية وظيفة سياسية بين صفوف الجماهير الاداتية ، أو — على الاقل — فان هذه المرحلة قد تم تجاوزها . ويحصل النقيض تماما في بعض الاحيان ، أي

أن تمارس الجماهير الاداتية تأثيرها السياسي على التقنيين من خلال مفكريها العضويين .

ولكن النقطة المركزية للمسألة تبقى نقطة التمييز بين المفكرين كفئة عضوية لكل مجموعة اجتماعية أساسية ، والمفكرين كفئة تقليدية، وهو التمييز الذي تنبثق منه سلسلة من المشاكل ومن الابحاث التاريخية الممكنة .

المشكلة الاكثر اثارة للاهتمام هي المشكلة التي تتعلق، من وجهة النظر هذه ، بالحزب السياسي الحديث ، وأصوله الحقيقية ، وتطوراته ، وأشكاله . ماذا يصبح الحزب السياسي بالنسبة الى مشكلة المفكرين ؟ لا بد في البداية من اجراء بعض التمييز : ١ ــ بالنسبة لبعض المجموعات الاجتماعية لا يكون الحزب السياسي أكثر من طريقة ذاتية لصنع الفئة الخاصة بهذه المجموعة من المفكرين العضويين (التي تتشكل بهذه الطريقة ولا يمكنها ألا تتشكل نظرا للسمات العامة وشروط التشكل ، ولحياة وتطور المجموعة الاجتماعية المذكورة) ، وتتشكل هذه الفئة مباشرة في الميدان السياسي والفلسفي وليس في ميدان التقنية الانتاجية (١٩) ، ٢ ــ الحزب السياسي ، بالنسبة لكافة المجموعات ، هو الآلية التي تقوم في المجتمع المتحضر بأداء الوظيفة نفسها التي تقوم بها الدولة على مستوى أوسع وأكثر تعقيدا في المجتمع السياسي ، أي أنها توجد اللحمة

---

(١٩) يشير غرامشي هنا الى الطبقة العمالية التي تخلق مفكريها العضويين عبر حزبها السياسي . ويقول غرامشي في احدى ملاحظاته : « في ميدان التقنية الانتاجية تتشكل تلك الشرائح التي يمكن القول انها تماثل رتباء القطعات العسكرية في الجيش ، اي المؤلفة من العمال الاختصاصيين او المؤهلين في المدينة ، والمؤلفة ، بشكل اكثر تعقيدا ، من المناصفين في الريف » .

بين المفكرين العضويين لمجموعة اجتماعية معينة ، هي المسيطرة ، والمفكرين التقليديين . ويقوم الحزب السياسي بهذه الوظيفة بالاعتماد على وظيفته الاساسية التي هي صنع عناصره المشكلة له ، وهي عناصر من مجموعة اجتماعية ولدت وتطورت كمجموعة « اقتصادية » ،وجعلها تصبح عناصر مفكرة سياسية مؤهلة ، وقادة ، ومنظمين لكل النشاطات والوظائف المتعلقة بالنمو العضوي لمجتمع متكامل ، ومتحضر ، وسياسي . بل يمكن القول أن الحزب السياسي يقوم ضمن اطاره بالذات بوظيفته بشكل أكثر اكتمالا وعضوية مما تفعل الدولة في اطارها الاوسع ، فالمفكر الذي يدخل ليصبح جزءا من الحزب السياسي لمجموعة اجتماعية معينة يختلط بالمفكرين العضويين للمجموعة نفسها، ويرتبط ارتباطا وثيقا بالمجموعة ، وهو ما لا يحصل من خلال المشاركة في حياة الدولة الا بشكل ضئيل ، وقد لا يحصل ابدا . بل قد يحصل عند الكثير من المفكرين أن يظنوا أنفسهم هم الدولة ، ونظرا للكتلة الضخمة التي تشكلها الفئة ، فان لهذا الاعتقاد بعض الاحيان نتائج واضحة تؤدي الى تعقيدات مؤسفة جدا بالنسبة للمجموعة الاقتصادية الاساسية التي هي ، واقعا ، الدولة نفسها (٢٠) .

ان الاقرار بأن كل أعضاء حزب سياسي معين يمكن اعتبارهم كمفكرين ، لا يمكن أن يعدو كونه مزاحا وكاريكاتورا مضحكا . ومع ذلك ، واذا فكرنا جديا ، فليس هنالك اقرارا أكثر صحة من هذا الاقرار . وقد يكون هنالك مجال

---

(٢٠) يشير غرامشي هنا تلميحا الى التناقضات التي يمكنها ان تبرز ، بعض الاحيان ، بين رجال سياسة معينين يقودون ، رسميا ، الدولة والقوى الاقتصادية الذين هم ، في الواقع ، عملاؤها (او كما يقول غرامشي : « الباعة ») .

للتمييز في الدرجات ، اذ يمكن أن يتمتع حزب معين بتشكيلة أوسع أو أضيق ، من أولئك المفكرين من الدرجة الاعلى أو الدرجة الادنى ، ولكن هذا ليس هو المهم، المهم هو الوظيفة التي هي قيادية وتنظيمية ، أي تعليمية ، أي فكريـــة . ان التاجر لا يدخل في حزب سياسي ليمارس فيه تجارته ، كمـــا أن الصناعي لا يدخل الحزب لزيادة انتاجه وخفض تكاليفه ، ولا يدخل الفلاح الحزب لتعلم طرق جديدة لزراعة الارض ، وان كان الحزب السياسي قد يرضي بعض هذه الحاجات عند التاجر والصناعي والفلاح . من أجل هذه الاغراض ، والى حد معين ، هنالك النقابات المهنية التي يجـــد التاجـــر أو الصناعي او الفلاح في نشاطاتها الاقتصادية ـــ الكوربوراتيفية الاطار الافضل والانسب لهذه المتطلبات، في الحزب السياسي تتجاوز عناصر المجموعة الاجتماعية الاقتصادية المعنية هذه اللحظة في تطورها التاريخي وتصبح عناصر نشاطات عامة ذات سمة وطنية ودولية . ولا شك أن هذه الوظيفة للحزب السياسي تبدو أكثر وضوحا مـــن التحليل التاريخي الملموس لكيفية تطور الفئات العضوية للمفكرين والفئات التقليديـــة كذلك ، سواء على أرضية التواريخ الوطنية، أم على أرضية تطور مختلف المجموعات الاجتماعية الاهم في اطـــار مختلف الامم ، وببساطة أكثـــر ، لتلـــك المجموعات التـــي كانت نشاطاتها الاقتصادية أداتية بشكل أساسي ...

تنظيم المدرسة والثقافة (*)

بشكل عام ، يمكن ملاحظة أن كافة النشاطات العملية في الحضارة الحديثة أصبحت كثيرة التعقيد ، وأن العلـــوم تشابكت بالحياة الى درجة صار معها كل نشاط عملي يتجه الى اقامة مدرسة لقادته وأخصائييه ، وبالتالي الى خلـــق مجموعة من المفكرين الاختصاصيين (١) من مستوى أرفـــع تقوم بمهمة التعليم في هذه المدارس . وهكذا ، فالى جانب نموذج المدرسة التي يمكن تسميتها « المدرسة الانسانية »، والى جانب المدرسة التقليدية الاقدم التي كانت تتجه الى أن تطور عند الانسان الفرد الثقافة العامة ، التي كانت مـــا زالت واحدة ، والامكانية الاساسية للتفكير ولمعرفة القيادة في الحياة ، الى جانب هذين النوعين مـــن المدارس نشأت

(*) من « المفكرون والتنظيم الثقافي » .

(١) راجع ما جاء في مقال غرامشي السابق « تشكل المفكرين » .

شبكة كاملة من المدارس المعنية من مختلف المستويات تختص بفروع مهنية كاملة أو بمهن تخصصية واضحة التحديد . بل يمكن القول أن الازمة المدرسية الناشبة اليوم انما ترتبط بواقع أن عملية التباين والتخصص هذه انما تتم بشكل مشوش ، وبدون مباديء واضحة ومحددة ، وبدون خطة مدروسة دراسة جيدة ومثبتة بوعي . ازمة البرنامج والتنظيم المدرسيين ، أي أزمة الاتجاه العام في سياسة تحضير الاطر الفكرية العصرية ، هي ، في جزئها الاكبر ، مظهرا وتعقيدا من مظاهر وتعقيدات الازمة العضوية الاكثر شمولا وعمومية (٢) .

ان التقسيم الاساسي للمدرسة الى مدرسة كلاسيكية معدومة مهنية كان اطارا عقلانيا بحيث تبقى المدرسة المهنية للطبقات الاداتية وتلك الكلاسيكية للطبقات المسيطرة وللمفكرين . وكان لنمو القاعدة الصناعية ، سواء في المدينة أم في الريف ، احتياجا متزايدا الى النوع الجديد من المفكر المديني ، وهكذا فقد قامت المدرسة التقنية الى جانب المدرسة الكلاسكيكية (التقنية المهنية وليس اليدوية) (٣) ، وهو ما أدى الى طرح النقاش حول نفس مبدأ الاتجاه الفعلي للثقافة العامة ، والاتجاه الانساني للثقافة المبنية على التقليد الاغريقي ــ الروماني (٤) . وكان مجرد طرح هذا الاتجاه

---

(٢) ازمة المدرسة هذه ازدادت خطورة بعد سقوط الفاشية .

(٣) ملاحظة عدم الخلط بين هذه المدارس والمدارس المهنية للعمال (الطبقات الاداتية) التي هدفها تدريب العمال الاختصاصيين ، وهذه المدارس هي مدارس تحضير الكوادر التقنية الوسيطة (مهندسين، تقنيين، خبراء ، اداريين .. الخ) اللازمة لنمو الصناعة .

(٤) هذا الاتجاه يرجع الى « الفترة الانسانية » لعصر الانبعاث (Humanistic Period) التي شهدت التحول في المبادىء التعليمية نتيجة للعودة الى اكتشاف قيم الحضارة الاغريقية ــ الرومانية القديمة .

للنقاش يعني كونه قد هزم ، لان قدرته التأهيلية كانت تعتمد الى حد كبير على الهيبة العامة، وغير القابلة للنقاش تقليديا، بشكل معين من أشكال الحضارة .

الاتجاه اليوم ينحو منحى الغاء أي نوع من أنواع المدرسة « اللامبالية » (٥) (أو غير المهتمة بشكل مباشر) والمدرسة « التأهيلية » ، أو الابقاء فقط على نموذج مصغر منها لنخبة صغيرة من السادة والنساء الذين ليس عليهم أن يفكروا في تحضير أنفسهم لمستقبل مهني، ونشر المدارس المهنية التخصصية التي تحدد مسبقا ، أكثر فأكثر ، مصير التلميذ وعمله في المستقبل . ولا بد للازمة من حل يتبع ، عقلانيا ، الخط التالي : مدرسة موحدة ابتدائية للثقافة العامة الانسانية والتأهيلية تصقل بشكل صحيح نمو القدرة على العمل اليدوي (تقنيا ، صناعيا) ونمو القدرة على العمل الفكري . من هذا النوع من المدرسة الموحدة ، وعبر خبرات مكررة من التوجه المهني ، يتم الانتقال الى المدارس التخصصية أو الى العمل الانتاجي .

ولا بد من الاخذ في الاعتبار هذا الميل الى التطور الذي يجعل كل نشاط عملي يتجه الى اقامة مدرسة تخصصية له ، كما يتجه كل نشاط فكري الى اقامة نواديه الثقافية ، التي تحمل وظيفة المؤسسات التخصصية ما بعد المدرسية في تنظيم الشروط التي تسمح بالبقاء على اتصال بتيار التقدم الذي يتحقق في الفرع العلمي المعين .

ويمكن كذلك ملاحظة ان الاجهزة التقريرية تميل اكثر فأكثر الى تمييز نشاطاتها بمظهرين « عضويين » ، الاول هو

---

(٥) « لا مبالية » هنا بمعنى أنه لا تحضر التلميذ لنشاط مهني أو حرفي معين بشكل مباشر ، وهي أشبه بالمدارس التكميلية أو الاعدادية في أغلب البلدان العربية (المعرب) .

المظهر التقريري الذي هو مظهرها الاساسي ، والثاني هـو المظهر التقني ـ الثقافي حيث تجري دراسة المسائل التـي يجب اتخاذ القرار بشأنها من قبل الخبراء ويجري تحليلهـا علميا . هذا النشاط ادى الى خلق جسم بيروقراطي قائـم بذاته ذو بنية جديدة، لانه بالاضافة الى المكاتب الاختصاصية التي تضم العناصر القائمة بتحضير المادة التقنية لوضعها في تصرف الهيئات التقريرية ، يقدم جسم (بيروقراطي) ثان من الموظفين ، « المتطوعين » وغير ذوي المصلحة الى حـد ما ، الذين تختارهم الصناعة مرة بعـد مـرة ، أو تختارهم المصارف او المؤسسات المالية . وهذه هي احدى الآليات التي أصبحت البيروقراطية الممتهنة تسيطر من خلالها على الانظمة الديموقراطية والبرلمانية ، أما الآن ، فقـد راحت هـذه الآليـة تتوسع عضويا وتمتص في دوائرهـا كبـار الاختصاصيين في النشاطات العملية الخاصة ، الذيـن يسيطرون بهذه الطريقة سواء علـى الانظمـة أم علـى البيروقراطيات . ونظرا لان الامر يتعلق بنمو عضوي ضروري يتجه الى اقامة التكامل بين المختصين في التقنية السياسية والمختصين بالمسائل الفعلية لادارة النشاطات العمليـة الاساسية للمجتمعات العصرية القومية ، الكبيرة والمعقدة ، فان كل محاولة لبتر هذه الاتجاهات من الخارج لـن يعطي في النتيجة أكثر من المواعظ الاخلاقية والنواح اللفظي .

وهنا تطرح مسألة تعديل طريقـة تحضير العاملـين التقنيين السياسيين عبر تكامل ثقافتهم بحسـب الضرورات الجديدة ، ومسألة صنع أنواع جديدة من الموظفين المختصين الذين يعملون جماعيا علـى استكمال النشاط التقريري . ويصبح النوع التقليدي من « القائـد » السياسي ، المحضر فقط للنشاط القانوني ـ الصيغي ، نوعا قديما مهترئا يمثل خطرا حقيقيا على حياة الدولة ، اذ يجب علـى القائد (أو

المسؤول) أن يمتلك حدا أدنى من الثقافة التقنية العامة اذا لم يمكنه من « اجتراح » الحل الصحيح بنفسه ، فانه يمكنه من أن يصبح الحكم بين الحلول التي يعرضها الخبراء فيستطيع اختيار الحل الصحيح من وجهة النظر التركيبية للتقنية السياسية (٦) .

أحد أنواع الجماعة التقريرية التي تحاول تجسيد الاهلية التقنية اللازمة للعمل بشكل واقعي جاء شرحه في مكان آخر (٧) ، حيث يدور الكلام حول ما يحصل في بعض هيئات تحرير المجلات ، التي تعمل كهيئات تحرير وكنواد ثقافية . فالنادي ينتقد جماعيا ويساهم بذلك في تكوين أعمال المحررين الافراديين الذين ينظم عملهم بموجب خطة وبموجب تقسيم عقلاني مسبق للعمل . من خلال النقاش والنقد الجماعي (المبني على اقتراحات ونصائح ودلالات منهجية ونقد بناء موجه الى التثقيف المتبادل) الذي يجعل كل انسان يعمل وكأنه متخصص في مادته لاستكمال الاهلية الجماعية ، من خلال هذا كله يمكن التوصل ، واقعيا ، الى رفع مستوى المحررين الافراديين ، والوصول الى أعلى مستوى أو الى قدرة الانسان الاكثر تحضيرا ، مما يضمن للمجلة مساهمة أكثر امتيازا وعضوية ، بل انه يخلق — بالاضافة الى ذلك — الشروط الملائمة لانبثاق مجموعة منسجمة من المفكرين المحضرين لانتاج نشاط « كتبي »منتظم ومنهجي (ليس فقط في مجال المطبوعات الصدفية أو الابحاث الجزئية ، بل ايضا في مجال الاعمال العضوية للمجموعة) .

---

(٦) هنا أيضا يطرح غرامشي مشكلة النوع الجديد من القائد الذي يجب أن « تنتجه » الطبقة العمالية .

(٧) يشير غرامشي الى مقالة له بعنوان « المجلة النموذجية » ، غير واردة في هذه المختارات .

مما لا شك فيه أن مثل هـذا النوع مـن النشـاط الجماعي يؤدي بأي عمل كان الى انتـاج قدرات وامكانيات عمل جديدة ، لانه يخلق باستمرار شروطا أكثـر عضويـة للعمل ، مثل وضع البطاقات والارشفة والتوثيق وجمـع المؤلفات الاساسية المختصة .. الخ . ولكن الامر يحتـاج الى نضال صلب وجمـع المؤلفات الاساسية المختصة .. الخ . ولكن الامر يحتاج الى نضال صلب ضد الاعتياد وضد الهواية وضد الفجائية وضد الحلول « الخطابية » وضـد « الكلامية » . يجب أن يجري العمل كله مكتوبا ، كما يجب أن يكون النقد مكتوبا في ملاحظات متماسكـة ومختصرة ، ويمكن التوصل الى هذا بتوزيع المادة في وقت مناسب .. الخ . ان كتابة الملاحظات والنقد هو مبـدأ تعليمي أصبـح ضروريا ولازما نتيجة للحاجة الى محاربة عادات الاسهاب والكلام الخطابي والمغالطة الناجمة كلها عن فن الخطابة . هذا النوع من العمل الفكري ضروري لجعـل « المثقفـين ذاتيا » يكتسبون انضباط الدراسة الـذي تؤمنه الدراسة المدرسية المنتظمة ولتنهيج العمل الفكري . وهكذا يصبـح مفيدا مبدأ « قدماء سانتا زيتا » الذين يتحـدث عنهـم دي سانكتيس في ذكرياته عن مدرسة نابولي التي كان يديرها بازيليو بووتي (٨) ، أي يصبـح مـن المفيد وجود بعـض « التدرج » في قدرات ومواقف وتشكل مجموعات العمـل تحت قيادة الاكثر خبرة وتطورا ، الذين يسرعون في تحضير أولئك الاكثر تأخرا وأقل خبرة (٩) .

---

(٨) يروي de Sanctis في ذكريـات طفولته فـي مدرسة Basilio Puoti في نابولي أن مدير المدرسة كان يمنح التلامذة المتفوقين لقب « قدماء سانتا زيتا » ، وهو اللقب الذي كان يحمله في القرن الثالث عشر أعضاء هيئة حكومة بلدية لوكا في ايطاليا .

(٩) واضح ان الاهتمام الرئيسي ينصب هنا ، عند غرامشي ، علـى تأهيل وتشكيل الكوادر العمالية .

النقطة المهمة في دراسة التنظيم العملي للمدرسة هي تلك المتعلقة بالخبرة المدرسية في كافة مستوياتها المناسبة لعمر التلاميذ ولنموهم الفكري ـ الاخلاقي بحسب الاهداف التي تريد المدرسة الوصول اليها . ان المدرسة الموحدة ، أو مدرسة التأهيل الانساني (بالمعنى العريض وليس بالمعنى الضيق التقليدي) ، أو مدرسةالثقافة العامة، يجب أن تكون مهمتها هي رفد النشاطات الاجتماعية بالشباب بعد أن تكون قد وصلت بهم الى درجة معينة من النضج ومن القدرة ، والى مرحلة الابداع الفكري والعملي، ومرحلة الاستقلالية في التوجه والمبادرة . ان تحديد السن المدرسي الاجباري يعتمد على الشروط الاقتصادية العامة ، لان هذه الشروط قد يمكنها أن تجبر الشباب والاولاد على تلبية مساهمة انتاجية فورية معينة . المدرسة الموحدة تتطلب أن تستطيع الدولة تحمل النفقات التي هي اليوم على عاتق العائلة في اعالة التلاميذ ، وهذا يستدعي قلب ميزانية وزارة التربية الوطنية رأسا على عقب، وتوسيعهاوتعقيدها بشكل لم يسبق له مثيل . ان مجموع وظيفة التربيةوتأهيل الاجيال الجديدة يجب أن تنقلب من خاصة الى عامة ، لان هذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلها تشمل كل الاجيال دونما أي تفريق بين المجموعات أو الفئات (الاجتماعية) . ولكن هذا التحول في النشاط المدرسي يتطلب توسيعا لم يسبق له مثيل في التنظيم العملي للمدرسة ، أي في المباني، والمادة العلمية ، والهيئة التعليمية .. الخ . ويجب زيادة عدد الهيئة التعليمية بشكل خاص ، لان فعالية المدرسة تزداد ازديادا واضحا كلما كانت نسبة عد التلاميذ الى عدد المعلمين صغيرة ، وهذا ما يطرح مشاكل أخرى ليست ذات حل سهل أو سريع . مسألة المباني كذلك ليست بالمسألة السهلة ، لان هذا النوع من المدرسة يجب أن يكون أقرب

الى المدرسة الداخلية ، فيضم أماكن للمنامة وقاعات طعام ومكتبات متخصصة وقاعات للاجتماعات .. الخ . ولذلك فان هذا النوع من المدارس يجب أن يكون في البداية ، ولا يمكنه الا أن يكون ، خاصا بمجموعات ضيقة من الشباب المختارين عبر مسابقات او الذين تتعهدهم على مسؤوليتها مؤسسات مؤهلة .

المدرسة الموحدة يجب أن تقوم مقام المدرسة الابتدائية وتلك الاعدادية (التكميلية) الموجودتين حاليا بعد اعادة تنظيم لا لمحتوى ومنهجية التعليم فحسب ، بل أيضا لترتيب مختلف المستويات التعليمية . ويجب ألا يتجاوز المستوى التعليمي الابتدائي الاول مدة ثلاث أو أربع سنوات ، والى جانب تعليم أولى المباديء « الاداتية » في التربية (مثل القراءة والكتابة والحساب والجغرافيا والتاريخ) ، يجب الاعتناء بشكل أخص بذلك الجانب المهمل حاليا « للحقوق والواجبات » ، أي المباديء الاولى حول الدولة والمجتمع كعناصر أساسية في المفهوم الجديد للعالم الذي يدخل في صراع مع المفاهيم التي تفرضها مختلف الاجواء الاجتماعية التقليدية ، أي الشروط التي يمكن تسميتها بالفولكلورية . المشكلة التعليمية التي يجب حلها هي مشكلة التخفيف من الاتجاه الدوغمائي الذي لا يمكن الا أن تتصف به هذه السنوات الاولى . أما بقية الدراسة فيجب ألا تستمر أكثر من ست سنوات ، بحيث يمكن للتلميذ أن يكمل دراسة المدرسة الموحدة ، بمختلف درجاتها ، وهو في سن تتراوح بين الخمس عشرة والست عشرة سنة .

ويمكن الاعتراض على مثل هذه الدراسة بكونها مرهقة نظرا لسرعتها اذا ما أريد التوصل فعلا الى النتائج التي يقترحها التنظيم الحالي للمدرسة الكلاسيكية ولا يصل اليها . ولكنه يمكن القول أن مجموع التنظيم الجديد يجب أن

يحتوي في ذاته على العناصر التي تجعل النظام الحالي شديد البطء بالنسبة لبعض التلاميذ . ما هي هذه العناصر ؟ في اطار العديد من العائلات ، وخاصة في فئات المثقفين ، يجد الاولاد بعض التحضير في حياة العائلة نفسها ، انهم يجدون امتدادا وتكاملا للحياة المدرسية، أي أنهم«يمتصون» من « الهواء » ــ كما يقال ــ كل تلك الكمية من المباديء التي تسهل عليهم حياتهم المدرسية الفعلية ، فهم يعرفون مسبقا وينمون معرفتهم باللغة الادبية ، أي بوسيلة التعبير والمعرفة ، بمستوى أعلى تقنيا من مستوى الوسائل التي يمتلكها متوسط التلاميذ الذين هم بين السادسة والثانية عشرة من عمرهم . وكذلك ، فان تلاميذ المدينة ، لمجرد كونهم يعيشون في المدينة ، يمتصون خلال الاعوام الستة الاولى من حياتهم كمية من المباديء والمعلومات تسهل لهم حياتهم المدرسية وتجعلها أكثر اثمارا وأكثر سرعة . لذلك، يجب أن توجد في الحياة الداخلية للمدرسة الموحدة مباديء هذه الشروط ، على الاقل ، بالاضافة الى أنه يفترض أن تقام بموازاة المدرسة الموحدة سلسلة من دور حضانة الاطفال ومن المؤسسات التي يعتاد فيها الطفل ، حتى قبل سن الذهاب الى المدرسة ، على الانضباط الجماعي ويكتسب فيها المباديء ما قبل المدرسية . والواقع أن المدرسة الموحدة يجب أن تنظم كمدرسة داخلية ذات حياة جماعية نهارية وليلية ، حرة من الاشكال الحالية للانضباط الثقافي والآلي ، ويجب أن تكون الدراسة فيها جماعية بمساهمة الاساتذة وأفضل التلاميذ ، حتى في ساعات التطبيق المسمى بالتطبيق الفردي .. الخ .

المشكلة الاساسية التي تطرح نفسها هي المشكلة التي تتمثل في النظام المدرسي الحالي بمرحلة الدراسة الثانوية، والتي لا تختلف حاليا في شيء عن سنوات الدراسة التي

تسبقها الا بافتراض تجريدي للنضوج الفكـــري والاخلاقي الاكثر تقدما عند التلميذ يتناسب مع تقدمه في السن ومـــع الخبرة المتراكمة مسبقا .

الواقع أن هنالك اليوم بين المدرسة الثانوية والجامعة، أي بين المدرسة فعلا والحياة ، قفـــزة واسعة ، هنالـــك انقطاع فعلي للاستمرارية وليس انتقالا عقلانيا من الكميـــة (العمر) الى النوعية (النضج الفكري والاخلاقي) . ومن التدريس الدوغمائي كليا تقريبا، حيث للذاكرة دور اساسي، يتم الانتقال الى المرحلة الابداعية أو العمل الذاتي والمستقل. ومن المدرسة ذات الانضباط الدراسي المفـــروض والمسيطر عليه بشكل سلطوي ، يتم الانتقال الى مرحلة الدراسة او العمل المهني الذي يصبح فيـــه الانضباط الذاتي الفكـــري والاخلاقية الذاتية أمرا غير محدود ، نظريا . وكل هـــــذا يحصل فورا بعد أزمة سن البلوغ ، عندما تكون لـــم تنتهي بعد انفجارية العواطف الغريزية والاولية من الصراع مـــع كوابح الشخصية والوعي الاخلاقي التي هي قيد التشكل . ثم ان الانتقال في ايطاليا ، حيث لم ينتشر في الجامعة نظام العمل الجماعي ، يصبح أكثر قسوة ومكانيكية .

كل هذا يستوجب ان تكون المرحلة النهائية فـــي المدرسة الموحدة مفهومة ومنظمة باعتبارها المرحلة التقريرية التي يجري الاتجاه خلالها الـــى خلـــق القيـــم الاساسية « للانسانية » ، والانضباط الذاتي الفكري والاخلاقية الذاتية الضرورية من أجل التخصص المقبل ، سواء كـــان هـــــذا التخصص ذو طبيعة علميـــة (دراسات جامعيـــة) أو ذو طبيعة عملية ــ انتاجية مباشرة (صناعـــة ، بيروقراطية ، تنظيم التبادل .. الخ) . ان دراسة واستيعاب المنهجيات الابداعية في العلوم والحياة يجب أن تبدأ في هـــذه المرحلة الاخيرة للمدرسة ، والا تبقى احتكارا للجامعة او ان تترك

لصدفية الحياة العملية . هذه المرحلة المدرسية يجب أن تساهم في تنمية عنصر المسؤولية الذاتية للافراد ، وأن تكون مدرسة ابداعية . ولا بد من التفريق بين المدرسة الإبداعية والمدرسة الناشطة ، حتى في الصيغة التي تطرحها طريقة دالتون (١٠) . كل المدرسة الموحدة هي مدرسة ناشطة ، رغم أنه يجب فرض حدود معينة للايديولوجيات التحررية في هذا الميدان والمطالبة ببعض الشدة بواجب الاجيال البالغة الراشدة ، أي الدولة ، في « تشكيل » أو « صناعة » الاجيال الجديدة . اننا ما زلنا نجتاز المرحلة الرومانطيقية من المدرسة الناشطةالتي تنتشر فيها عناصر الصراع ضد المدرسة الميكانيكية والجزويتية بشكل عدوى لاسباب تناقضية وجدالية . ويجب الدخولفي المرحلة « الكلاسيكية » ، العقلانية ، والمعثور في الاهداف المراد الوصول اليها على النبع الطبيعي لوضع المنهجيات والصيغ اللازمة .

المدرسة الابداعية هي التتويج الاخير للمدرسة الناشطة : في المرحلة الاولى يكون هنالك اتجاه الى الانضباط ، وبالتالي الى تحديد المستويات ، والحصول على نوع من « الالتزامية » التي يمكن تسميتها « ديناميكية » . أما في المرحلة الابداعية ، وعلى أساس « الجماعية » (أو « التجميع ») من النوع الاجتماعي الذي تم الوصول اليه ، فيكون هنالك اتجاه الى تنمية الشخصية ، التي أصبحت مستقلة ومسؤولة ، ولكن بوعي أخلاقي واجتماعي صلب

---

(١٠) طريقة دالتون ، نسبة الى بلدة دالتون الامريكية ، وهي طريقة أو منهجية تعليمية وضعتها هيلين باركهرست وانتشرت بشكل خاص في انكلترا . بموجب هذه الطريقة تقسم المدرسة الى مختبرات حيث يستطيع كل تلميذ أن يعمل ما يروق له (الحفر ، السيراميك ، النجارة .. الخ).

ومنسجم . وهكذا ، فان المدرسة الابداعية لا تعني مدرسة « للمخترعين والمكتشفين » ، بل انها تشير الى مرحلة والى منهجية بحتة ومعرفة ، وليس الى « برنامج » موضوع مسبقا ومجبر على الاصالة والتجديد مهما كان الثمن . ان تعبير « المدرسة الابداعية » يشير الى أن الاستيعاب يتم بالدرجة الاولى عبر الجهد العفوي والمستقل للتلميذ ، حيث يمارس المعلم فقط وظيفة التوجيه من موقع الصداقة كما يحصل ، أو كما يجب أن يحصل ، في الجامعة . انه يعني أن يكتشف التلميذ الحقيقة بنفسه ، وبدون ايحاءات أو مساعدات خارجية ، انه الابداع والخلق ، حتى وان كانت الحقيقة نفسها قديمة ، وهو يدل على امتلاك المنهجية ، انه يدل على الدخول ، بكل الطرق ، الى مرحلة النضوج الفكري التي يمكن فيها اكتشاف حقائق جديدة . ولذلك ،فان النشاط المدرسي في هذه المرحلة الاساسية يجب أن يجري في ندوات دراسية ، وفي المكتبات ، وفي مختبرات التجارب ، وفي هذه المرحلة يتم التقاط الدلالات المضوية للتوجه المهني . .

ان تحقيق المدرسة الموحدة يعني بداية جديدة للعلاقات بين العمل الفكري والعمل الصناعي ، لا في المدرسة فقط، بل في كل جوانب الحياة الاجتماعية . ولهذا فان مبدأ الوحدة سينعكس على كل التنظيمات الثقافية ، فيغيرها ويمنحها محتوى جديداً .

في البحث عن المبدأ التربوي

مشروع جنتيلي الاصلاحي (١) ادى الى الانقسام بين المدرسة الابتدائية والمدرسة المتوسطة (الاعدادية) من جهة ، والمدرسة العليا (الثانوية) من جهة اخرى ، قبل هذا الاصلاح كان مثل هذا الانقسام قائما فقط ، وبشكل شديد الوضوح ، بين المدرسة المهنية التخصصية من جهة، والمدارس المتوسطة والعليا من جهة اخرى . اما المدرسة الابتدائية فكانت موضوعة في ما يشبه حالة النسيان نظرا لبعض سماتها الخاصة .

في المدرسة الابتدائية هنالك عنصران يشتركان في تربية وتكوين الاطفال ، وهما : المبادىء الاولية للعلوم

---

(١) هذا المشروع الاصلاحي التعليمي ، الذي نفذه النظام الفاشي في عام ١٩٢٣ ، سمح بانشاء المدارس الخاصة ، وبادخال التعليم الديني الى المدارس الابتدائية ، ووسع دراسة اللغة اللاتينية . وكان الاصلاح اصلاحا مدرسيا في الاتجاه المحافظ وقف غرامشي ضده بعنف شديد .

الطبيعية ، والمبادىء الاولية لحقوق وواجبات المواطن ، ويفترض بالمبادىء العلمية ان تعرف الطفل « بمجتمع الاشياء » (٢) ، كما يفترض بالحقوق والواجبات ان تعرفه بحياة الدولة وبالمجتمع الحضاري . وتدخل المبادىء العلمية في صراع مع المفهوم السحري للعالم وللطبيعة الذي يتشربه الطفل من البيئة المطبوعة بطابع الفولكلور ، وكذلك فان الحقوق والواجبات تدخل في صراع مع الاتجاهات البربرية الفردوية والمحلولية التي هي ايضا من مظاهر الفولكلور . والمدرسة ، بتعليمها ، تدخل في صراع ضد الفولكلور، بكل ترسباته التقليدية من مفاهيم للعالم ، لتنشر مفهوما اكثر حداثة لهذا العالم ، تتركز عناصره الاولية والاساسية على وجود قوانين الطبيعة كشيء موضوعي وعاصي يجب التكيف معه للسيطرة عليه ، وعلى وجود القوانين المدنية وقوانين الدولة التي هي من نتاج نشاط الانسان ، والتي وضعها الانسان ، ويستطيع الانسان ان يغيرها لتتناسب مع اهداف ومرامي نموه الجماعي . والقوانين المدنية وقوانين الدولة تأمر الناس، بالشكل الاكثر تناسقا تاريخيا ، للسيطرة على قوانين الطبيعة ، اي بتسهيل عملهم ، وهي الطريقة الخاصة بالانسان للمشاركة الناشطة في حياة الطبيعة لتغييرها وجعلها أكثر اجتماعية في العمق وفي الامتداد . ولهذا يمكن القول بان المبدأ التربوي الذي قامت عليه المدرسة الابتدائية انما يستخلص من فكرة العمل ، العمل الذي لا يمكنه ان يتحقق بكل طاقة توسعه وانتاجيته بدون معرفة دقيقة وواقعية لقوانين الطبيعة وبدون نظام قانوني يضبط عضويا حياة البشر فيما بينهم ، ويجب ان يتم احترام

---

(٢) التعبير باللاتينية Societas Rerum ، ترجمته الدقيقة « مجتمع الاشياء » ويقصد به « عالم الطبيعة » .

هذا القانون نتيجة لاقتناع عفوي وليس فقط نتيجة لفرضه من الخارج ، وان يكون احترامه قائما على الحاجة المعترف بها والمطلوبة ذاتيا كحرية (٣) وليس كتلاحم بحت . ان فكرة وواقع العمل (او النشاط النظري ــ العملي) هو المبدأ التربوي العظيم للمدرسة الابتدائية نظرا لان نظام المجتمع والدولة (الحقوق والواجبات) هو نتيجة للعمل في اطار نظام الطبيعة ، ومعرف به (٤) . ان فكرة التوازن بين النظام الاجتماعي والنظام الطبيعي على اساس العمل،

---

(٣) الحرية ، في المفهوم الماركسي ، ترتبط دوما بالاعتراف بالضرورة التاريخية ــ الطبيعية . وبكلمات اخرى ، فان الناس ليسوا « احرارا في عمل ما يريدون » (كاجتياز المحيط بقفزة واحدة !) ، بل ان معرفة قوانين الطبيعة ، والاعتراف بها ، تشكل القاعدة في عمل هؤلاء الناس، وحتى فيما يتعلق بحياة المجتمع هنالك ايضا عنصر الضرورة . مثال على ذلك : لا تستطيع الجماعة البشرية ان تعيش الا اذا عمل جزء منها على الاقل . في هذه الحالة يصبح الامر متعلقا بمعرفة ما هو ضروري حقا للحياة الاجتماعية لمحاربة ما هو ، على العكس ، ثمرة للعلاقات الاجتماعية التي يجب ، ويمكن ، تغييرها (مثال : الحرب واقع اجتماعي ولكنه ليس ضروريا ، وبالتالي يمكن النضال لازالته) . ومن هنا صيغة كون الحرية وعيا للضرورة .

(٤) من اجل فهم افضل لهذه الفقرة لا بد من التذكير بما يقوله غرامشي قبل قليل من ان « القوانين المدنية وقوانين الدولة تأمر الناس ، بالشكل الاكثر تناسقا تاريخيا ، بالسيطرة على قوانين الطبيعة ، اي بتسهيل عملهم » . وبالتالي ، فان العمل هو نقطة التماس بين النظام الاجتماعي ونظام الطبيعة . وكان ماركس قد كتب حول هذه النقطة يقول: « ان المسالة المهمة للعلاقة بين الانسان والطبيعة تسقط بنفسها عندما نفهم ان « وحدة الانسان والطبيعة » الشهيرة جدا قائمة في الصناعة (العمل) منذ عصور لا تعود الذاكرة اليها ، وانها وجدت في كل عصر بشكل مختلف حسب النمو الاقل او الاكبر للصناعة » (من « الايديولوجيا الالمانية ») .

اي على اساس النشاط النظري ــ العملي للانسان ، تخلق العناصر الاولى لفهم حدسي للعالم متحرر من كل سحر وشعوذة (٥) ، وتعطي ذريعة التطور التالي لمفهوم تاريخي ديالكتيكي للعالم ، لفهم الحركة والنتيجة ، ولتقييم مجموع الجهود والتضحيات التي كانت الثمن الذي دفعه الحاضر للماضي ، وما سيكلف المستقبل ثمنا يدفع للحاضر ، ولاستيعاب الراهن كمركب من الماضي ، ومن كافة الاجيال الماضية التي تسقط على المستقبل (٦) . هذا هو اساس المدرسة الابتدائية . اما ان يكون هذا الاساس قد اعطى كل ثماره ام لا ، وان تكون هيئة المعلمين قد وعت مهمتها والمحتوى الفلسفي لهذه المهمة ام لا ، فهذا امر اخر يرتبط بنقد درجة الوعي المدني لمجموع الامة ، التي ليست هيئتها التعليمية الا تعبيرا عنها اضعف منها ، وليست بالتأكيد طليعتها .

---

(٥) يقصد غرامشي بكلمتي « السحر » و« الشعوذة » المفاهيم غير العلمية للعالم ، سواء كانت هذه المفاهيم مبنية على التطير ام على الدين.

(٦) ان الطابع المميز لكل مفهوم تاريخي هو معرفة تاثير الخبرات التي انجزها الانسان عبر العصور ، في الماضي ، على الحاضر . وهذا انه في الحكم على احداث الماضي يجب الا تؤخذ في الاعتبار معارف وانجازات الحاضر ، بل درجة التطور التي كانت وصلتها الانسانية في تلك اللحظة ، او ذلك الجزء من الانسانية المهتم مباشرة بالحدث (اذ لا يمكننا ان نحكم بمقاييسنا ، مثلا ، على اليونان القديمة ، او على الاعتقادات الفلكية للفراعنة ، ولا يمكننا ان نحكم بنفس المقياس على تصرف افارقة افريقيا وتصرف الافارقة المقيمين في نيويورك) . المفهوم التاريخي ، باعتباره واعيا لهذا التطور للانسان ، لا يمكنه الا ان يكون ديالكتيكيا ، اي ــ ماركسيا ــ فهم الواقع كحركة مستمرة ، وتغير مستمر ، في كل مرحلة من مراحله تتحدد الشروط والتناقضات التي يعمل الانسان على اساسها للانتقال الى المرحلة المقبلة والاعلى مستوى .

ليس صحيحا كليا أن التعليم ليس تربية أيضـــا (٧) ، وقد كان الاصرار على هذا التمييز بينهما خطأ كبيرا من أخطاء « علم التعليم » (البيداغوجيا) الميثالوي ، ويمكن منذ الآن تلمس النتائج في المدرسة المعادة التنظيـــم علـــى هـــذا الاساس (٨) . وحتى لا يكون التعليم تربية أيضا يجب على التلميذ أن يكون سلبا بحتا و « آلية مستوعبة » للمبـــاديء التجريدية ، وهو شيء مناف للعقل والمنطق، ويرفضه كذلك، « تجريديا » ، مؤيدو التربويـــة البحتة فـــي التعليم الآلوي البحت . « المؤكد » يصبح في وعي الطفل « حقيقة » (٩). ولكن وعي الطفل ليس « افراديا » ، بل انه انعكاس لبعض المجتمع المتحضر الذي يشارك الطفـــل فيـــه وللعلاقـــات الاجتماعية المعششة في العائلة ، ولدى الجيران ، وفـــي القرية .. الخ . الوعي الفردي عند الاغلبية العظمى مـــن

---

(٧) التمييز بين « التعليم » و« التربية » كان احد اسس المعركـــة التي قادتها البيداغوجيا المثالوية ضد البيداغوجيا التقليدية ، حيث يعتبـــر « التعليم » اكتسابا بسيطا لعدد معين من المبادىء . اما « التربية » فهي اكتساب لمنهجية ، ونضوج لانفتاح عقلي معين ، يسمحان بالحكم على الاشياء والناس . ويلاحظ غرامشي ، عن حق ، كون هـــذا التعارض ميكانيكيا . لان « المبدأ » المكتسب ، بدخوله الى عقل الطفل ، يصبـــح عنصرا مساهما في التشكيل والتطور . والاهم من هذا انـــه لا يمكن ان تكون هنالك تربية بدون هذه المبادىء الاولية .

(٨) المدرسة بعد اصلاح جنتيلي (راجع ايضا الهامش رقم ١ فـــي هذا المقال) .

(٩) « المؤكد » هو محور « الفيلولوجيا » (او فقه اللغة التاريخي)، ويعني كل ما يمكن استخلاصه ليس فقط من الوثائق المكتوبة بل ايضا من اللغة والعادات والتقاليد وفن الحكم والحقوق والشعر والفن .. الخ. لدى كل من الشعوب . اما « الحقيقة » فهي محور « الفلسفة » التـــي عليها اكتشاف المبادىء الشاملة « للمؤكد » ويجب ان تكون في الوقـــت نفسه مثبتة من خلال « المؤكد » .

الاطفال يعكس العلاقات الحضارية والثقافية المختلفة والمتنازعة مع تلك التي تمثلها البرامج المدرسية ، «فالمؤكد» في ثقافة متقدمة يصبح « حقيقة » في اطارات ثقافة متحجرة ومهترئة ، وليس هنالك أية وحدة بين المدرسة والحياة ، وبالتالي ليست هنالك وحدة بين التعليم والتربية . ولهذا يمكن القول أن الرابط بين التعليم والتربية في المدرسة لا يمكنه أن يتمثل الا في العمل الحي للمعلم ، باعتبار معرفة المعلم ووعيه للتضاد القائم بين نوع المجتمع والثقافة الذي يمثله ونوع المجتمع والثقافة الذي يمثله التلاميذ ، وباعتبار معرفة المعلم ووعيه لمهمته التي تتلخص في ضبط تشكل التلميذ والاسراع به بما يتفق مع النوع الاعلى المتصارع مع النوع الادنى . اذا كانت الهيئة التعليمية غبية ، واذا ما انحل الرابط بين التعليم والتربية لحل مسألة التعليم حسب الاطارات الورقية التي تمجد وتبرز التربوية ، فان عمل المعلم يصبح أكثر غباء ، وهكذا نصل الى مدرسة كلامية ، غير جدية ، لانها تفتقر الى التجسد المادي « للمؤكد » ، وتصبح « الحقيقة » حقيقة الكلمات ، أي حقيقة بلاغية فقط .

ويظهر الانحطاط أكثر وضوحا في المدرسة المتوسطة نتيجة لدروس مادتي الادب والفلسفة . قبل ذلك يكون التلاميذ قد كونوا لانفسهم ، على الاقل ، « جعبة » من المباديء الملموسة ، أما الآن ، حيث يصبح على المعلم أن يكون ، بشكل أخص ، فيلسوفا وعالم جمال (١٠) ، فان التلميذ يهمل المباديء الملموسة و « يملأ رأسه » بصيغ ومعادلات وكلمات لا تحمل أي معنى بالنسبة اليه في أكثر الاحيان ، وينساها فورا . لقد كان النضال ضد المدرسة

---

(١٠) Aesthete : Esteta (بالانكليزية) ، اشتقاقا من علم الجمال (المعرب) .

القديمة صحيحا ، ولكن الاصلاح لم يكن بالسهولة التي بدا بها ، اذ لم يكن الامر يتعلق بالاطارات البرامجية ، بل بالرجال ، ولم يكن متعلقا بالرجال الذين هم المعلمين مباشرة، بل بكل الجماعة الاجتماعية التي ليس الرجال الا تعبيرا عنها . الواقع أن معلما من المستوى المتوسط يمكنه أن ينجح في تخريج تلاميذ أكثر تعلما ، ولكنه لن ينجح في جعلهم أكثر تثقفا ، اذ أنه يطبق بدقة وبضمير بيروقراطي الجزء الميكانيكي من المدرسة ، ويقوم التلميذ ، اذا كان ذو عقل ناشط ، بترتيب « الجعبة » المتراكمة لديه بنفسه وبمساعدة محيطه الاجتماعي بالبرامج الجديدة ، المترافقة بانخفاض عام في الهيئة التعليمية ، لن تكون هنالك لدى التلميذ أية « جعبة » يقوم بترتيبها . كان يجب أن تلغي البرامج الجديدة الامتحانات كليا ، ذلك أن تقديم الامتحان اليوم أصبح أكثر « مقامرة » مما كان في السابق .فالواقعة هي الواقعة كائنا من كان الاستاذ الممتحن ، و « التعريف » هو التعريف ، كائنا من كان الاستاذ الممتحن ، أما الحكم ، او التحليل الجمالي أو الفلسفي ..؟

الفعالية التربوية للمدرسة المتوسطة الايطاليةالقديمة، التي كان قد نظمها قانون كازاتي القديم (١١) ، لم يكنيمكن البحث عنها (أو تقرير غيابها) في ارادة معلنة بأن تكون المدرسة او لا تكون مدرسة تربوية بل في حقيقة أن تنظيمها وبرامجها كانت تعبيرا ، بطريقة تقليدية ، عن الحياةالفكرية والاخلاقية وعن مناخ ثقافي منتشر في كل المجتمع الايطالي نتيجة لتقليد غاية في القدم . ان كون هذا المناخ وهذه الطريقة في الحياة قد دخلا مرحلة النزع الاخير ، وكون المدرسة انفصمت عن الحياة ، هو ما أدى الى أزمة

(١١) هو القانون الذي وضعه الوزير غابريو كازاتي عام ١٨٥٩ والذي حدد الاتجاه التربوي للدولة الايطالية الجديدة الموحدة .

المدرسة . ان نقد برامج المدرسة وتنظيمها الانضباطي يعني فعل أقل من لا شيء اذا لم تؤخذ تلك الشروط في الاعتبار . وهكذا تتم العودة الى المشاركة الفعلية الناشطة للتلميذ في المدرسة ، والتي لا يمكن أن تتحقق الا اذا كانت المدرسة مرتبطة بالحياة . والبرامج الجديدة ، بمقدار ما تؤكد وتنظر لنشاط التلميذ وتعاونه الفاعل مع عمل الاستاذ ، فهي — في الواقع — موضوعة كما لو كان التلميذ سلبيةحقيقية لا عمل لها .

في المدرسة القديمة كانت الدراسة القواعدية للغتين اللاتينية واليونانية القديمة (الاغريقية) موحدة مع دراسة الآداب والتاريخ السياسي على التوالي . وكان هذا مبدأ تربويا نظرا لان المثالية الانسانوية ، التي تجسدت في أثينا وروما ، كانت منتشرة في كل أنحاء المجتمع ، وكانت عنصرا أساسيا في الحياة والثقافة الوطنيتين . حتى ميكانيكية دراسة قواعد اللغة كانت تحييها المنظورات الثقافية . ولم تكن المباديء المفردة تستوعب لانها ذات هدف عملي — مهني مباشر ، وكان الامر يبدو بعيدا عن الاهتمام بهذا الهدف لان الاهتمام كان منصبا على التنمية الداخلية للشخصية ، وعلى تكوين مميزاتها من خلال تشرب وامتصاص كل الماضي الثقافي للحضارة الاوروبية الحديثة . ولم يكن التلميذ يتعلم اللاتينية واليونانية القديمة ليتكلمهما ، أو ليصبح خادمفندق، أو مترجما ، أو مراسلا تجاريا ، بل كان يتعلمهما ليتعرف مباشرة على حضارة هذين الشعبين ، وهي القاعدة الاساسية للحضارة الحديثة ، أي ليكون الانسانهو نفسه، وليتعرف الى نفسه بوعي . وكان تعلم اللاتينية واليونانية القديمة يجري عبر قواعد اللغة ، وبشكل ميكانيكي . ولكن هنالك الكثير من الظلم ومن عدم الدقة في الاتهام بالميكانيكية والضحالة ، فالامر يتعلق بأولاد يجب تعويدهم عاداتمعينة

في حقل الاجتهاد ، والدقة ، والانسجام حتى الجسدي ، والتركيز النفسي على مواضيع معينة ، وهي صفات لا يمكن اكتسابها بدون التكرار الميكانيكي لاعمال انضباطيةومنهجية. والواقع ، هل يستطيع الباحث الذي هو في الاربعين من عمره أن يبقى جالسا الى طاولته مدة ستة عشر ساعة متتالية في اليوم ، لو لم يكن قد اكتسب وهو طفل ، وبالانسجام الميكانيكي ، العادات النفسية ـ الجسدية الملائمة لذلك ؟ اذا أريد اختيار علماء كبار ، ما زال يتوجب البدء من تلك النقطة ، ويجب الضغط على كل المساحة المدرسية لابراز تلك الالوف ، أو المئات ، أو حتى العشرات من الباحثين ذوي القدرات الكبيرة الذين ما من حضارة الا وكانت بحاجة اليهم (وان كان يمكن تحسين الاوضاع كثيرا في هذا الميدان عبر المعونات العلمية الملائمة ودون العودة الى المنهجيات المدرسية الجيزويتية) (١٢) .

ويجري تعلم اللاتينية (أو بالاحرى دراستها) ، ويجري تحليلها حتى في أجزائها الاولية جدا . صحيح أنه يجري تحليلها كشيء ميت ، ولكن أي تحليل يجريه الطفل لا يمكن الا أن يجري على أشياء ميتة . ومن ناحية أخرى يجب ألا ننسى أنه حيث تجري هذه الدراسة بهذه الاشكال،كانت حياة الرومان وما زالت اسطورة اهتم بها الطفل ويهتم ، وبذلك فان هنالك في الميت دوما حيا عظيما . ثم : اللغة ماتت ، وحللت كشيء لا حول له ولا قوة ، كجثة على طاولة

---

(١٢) واضح ان غرامشي لا يؤيد هنا العودة الى مدرسة الحفر على الذاكرة (المدرسة الجيزويتية) ، ولكن في القول تحذير من « المدرسة السهلة » و« مدرسة اللعب » الواسعة الانتشار ، والتي يجب عدم الخلط بينها وبين المدرسة « النائطة » و« الابداعية » في المفهوم الغرامشي لهما .

التشريح ، ولكنها ما أكثر ما تعود الى الحياة في الامثلةوفي روايات الاحداث . هل يمكن فعل الشيء نفسه باللغة الايطالية ؟ لا ، مستحيل ، ما من لغة حية يمكن دراستها كاللاتينية ، ان هذا أمر لا بد أن يبدو منافيا للعقل ، وهو كذلك . ما من طفل يعرف اللغة اللاتينية عندما يبدأ بدراستها بهذه المنهجية التحليلية . اللغة الحية يسهل تعلمها ، ويكفي لذلك أن يعرفها طفل واحد ليكسر طوق سحرها ، ويمكن للجميع عندئذ أن يذهبوا فورا الى مدرسة برليتز (١٣) . ان اللاتينية بالنسبة للخيال (وكذلك الاغريقية) أشبه بالاسطورة ، وحتى بالنسبة للمدرس . فاللغة اللاتينية لا تدرس بهدف تعلمها ، بل هي ، منذ زمن طويل ، ونتيجة للتقاليد الثقافية — المدرسية التي يمكن البحث عن أصولها وتطورها ، تدرس كعنصر مهمته اختصار وارضاء سلسلة من الحاجات التربوية والنفسانية . انها تدرس بهدف تعويد الاطفال على الدراسة بطريقة معينة ، وعلى تحليل جسم تاريخي يمكن معاملته كجثة تستعيد تركيبها دوما ، وباستمرار ، في الحياة اليومية ، أي بهدف تعويد الاطفال على استخدام المنطق ، وعلى التجريد التخطيطي ، مع القدرة على العودة من التجريد الى الحياة الواقعية الآنية ، وتعويدهم على أن يروا في كل واقعة أو حادثة ما هو عمومي وما هو خصوصي : أي حالة المفهوم والحالة الفردية .

خلال السنوات الثمانية من الدراسة الاعدادية والثانوية يدرس الطلاب اللغة الواقعية تاريخيا ، بعد أن رأوها مصورة في لحظة مجردة ، بشكل قواعدي ، حيث يجري تحليل العملية التاريخية منذ ولادتها وحتى موتها مع

---

(١٣) المدارس العملية لتعلم اللغات الاجنبية كتابة وحديثا .

الزمن ، أو موتها الظاهري بالاحرى ، فالايطالية ، كما هو معروف ، هي اللغة اللاتينية الحديثة (١٤) .

يجب الاستعاضة عن اللاتينية واليونانية باعتبارهما نقطة الارتكاز في المدرسة التكوينية ، ولا بد أن يتم ذلك . ولكن ، لن يكون من السهل الحصول على المادة الجديدة أو مجموعة المواد الجديدة (البديلة) بشكلها التعليمي الذي يفترض به اعطاء نتائج مماثلة في التربية والتكوين العام للشخصية ، وذلك انطلاقا من عهد الطفولة وحتى عتبة الاختيار المهني . في الواقع ، ان الدراسة في هذه المرحلة، أو القسم الاكبر منها ، يجب أن يكون بلا هدف (أو هكذا يبدو للمتعلمين) ، أي بلا أهداف عملية فورية أو فورية جدا، بل أن يكون تكوينيا ، بمعنى كونه غنيا بالافكار الملموسة . في المدرسة القائمة حاليا ، ونظرا للازمة العميقة للتراث الثقافي ولمفهوم حياة الانسان ، هنالك عملية تحلل انحطاطي مستمرة . ان المدارس ذات الطابع المهني ، أي تلك المهتمة بارضاء الاهتمامات العملية الفورية ، تتغلب على المدارس التكوينية ، غير الهادفة فورا . الظاهرة الاكثر تناقضا هو أن هذا النوع الجديد من المدارس يبدو ، أو يقال عنه ، أنه ديموقراطي ، في حين أنه لن يحافظ على الفوارق الاجتماعية فحسب ، بل يعمل أيضا على بلورتها في قوالب صينية(١٥) .

لقد كانت المدرسة التقليدية مدرسة أوليغارشية (١٦)

---

(١٤) الايطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية والرومانية ..الخ، كلها لغات مشتقة من اللاتينية ، أو هي ــ بالاحرى ــ التطور التاريخي للاتينية المحكية .

(١٥) بمعنى قوالب جامدة . تعبير يشير الى جمود المجتمع الصيني عبر عصور طويلة .

(١٦) الاوليغارشية تعبير سياسي يعني « حكم القلائل » . وهنا يصف به غرامشي المدرسة ويقصد به مدرسة العدد المحدود من الطلاب ، أو مدرسة النخبة .

لانها مخصصة للجيل الجديد من الجماعات القائدة، المخصص بدوره ليصبح في مركز القيادة ، ولكنها لم تكن أوليغارشية بسبب طريقة تعليمها . ليس اكتساب القدرة على القيادة والادارة ، وليس الميل الى تكوين رجال متفوقين هو ما يطبع نوعا معينا من المدارس بطابع اجتماعي محدد . الطابع الاجتماعي للمدرسة ينبع من أن لكل جماعة اجتماعية نوعها الخاص من المدارس المهيأة لابقاء هذه الشرائح مستمرة في أداء وظيفة تقليدية محددة ، قيادية كانت هذه الوظيفة أم أداتية . فاذا أريد القضاء على هذه المكيدة لا يتطلب الامر زيادة وتدريج أنواع المدارس المهنية ، بل ايجاد نوع واحد من المدرسة التحضيرية (ابتدائية ــ اعدادية) التي تقود الشباب الى عتبة الاختيار المهني ، بحيث يجري تكوينهم ، خلال هذه المدة ، كأشخاص قادرين على التفكير ، وعلى الدراسة ، وعلى القيادة أو الاشراف على من يقوم بدور القيادة .

ان زيادة أنواع المدارس المهنية تقود ، اذن ، الى تخليد الفوارق التقليدية . ولكن ، نظرا لانها بهذه الفوارق تميل الى استثارة ايجاد شرائح داخلية ، فهي تعطي انطباعا يميل الى الديمقراطية ، حيث هنالك فيها العامل اليدوي والعامل المختص ، مثلا ، وفيها كذلك الفلاح والمساح أو مزارع الحمضيات الصغير .. الخ . ولكن الاتجاه الديموقراطي ، داخليا ، لا يمكنه أن يعني فقط أن يصبح العامل اليدوي عاملا اخصائيا أو مؤهلا ، بل أن يتمكن كل « مواطن » من أن يصبح « حاكما » . وأن يضع المجتمع كل « مواطن » ، ولو « تجريديا » ، في الشروط العامة التي تمكنه من أن يصبح « حاكما » . فالديموقراطية السياسية تتجه الى اقامة التماثل بين الحكام والمحكومين (بمعنى الحكم بموافقة المحكومين) ، مع ضمانها ، لكل محكوم ،

حق الحصول المجاني على القدرة وعلى التحضير التقني العام اللازم لتحقيق هذا الهدف . ولكن نوع المدرسة التي تتشكل « كمدرسة للشعب » لا تتجه حتى الى المحافظة على هذا الامل ، اذ أنها تسير نحو تنظيم نفسها بما يساهم في تضييق قاعدة الفئة الحاكمة ، المجهزة تقنيا،في جو اجتماعي سياسي يضيق أكثر فأكثر مجال « المبادرة الفردية » في اعطاء هذه القدرة وهذا التحضير التقني ــ السياسي ، بحيث تتم العودة في الواقع الى التقسيمات ذات الطابع « القانوني » المحدد والمبلور (١٧) أكثر مما يتم تجاوز التقسيم بين الجماعات . ان تعدد المدارس المهنية التي تزداد تخصصا شيئا فشيئا منذ بداية الدراسة انما هو التعبير الاكثر وضوحا عن هذه الاتجاهات .

حول الدوغمائية (١٨) والنقدية ــ التاريخية في المدرسة الابتدائية والمدرسة الاعدادية ، لا بد أن نلاحظ أن علم أصول التدريس ، « البيداغوجيا » ، أراد أن يطرق حديد الدوغمائية حاميا في ميدان التعليم بالذات ، وفي ميدان اكتساب المفاهيم والافكار الملموسة ، أي تحديدا في الميدان الذي لا بد فيه من بعض الدوغمائية التي يجري تشربها واعادة طرحها فقط من خلال الدورة الداخلية للعمل المدرسي (اذ لا يمكن تعليم القواعد اللغوية التاريخية في

---

(١٧) التقسيم ذو الطابع المبلور هو المظهر الاساسي للمجتمع الاقطاعي .

(١٨) « الدوغمائية » هي تلك الطريقة التي تعيد كل المعرفة في الاساس الى عدد من الحقائق التي لا يمكن اثباتها منطقيا ، وكلمة«دوغما» تعني بالدقة « الايمان والاعتقاد بحقيقة ما دون الحاجة الى مناقشة هذه الحقيقة » ، كالايمان ببعض الغيبيات مثلا . مثلا النقدية ــ التاريخية فهي، على العكس من الدوغمائية ، تخضع كل الحقائق الى اعادة نظر مستمرة و « نقدية » لها ، بما في ذلك نفس مباديء الطريقة .

المدارس الابتدائية والاعدادية) (١٩) ، ولكن علم أصول التدريس اضطر بعدئذ الى رؤية الدوغمائية تسيطر على ميدان الفكر الديني (٢٠) ، والى رؤيتها تسهم في جعل كل التاريخ وكل الفلسفة عبارة عن تتابع لحالات جنونية وانفعالية . البرنامج الجديد (٢١) لتعليم الفلسفة (وخاصة في سنوات تعلمها الهامة التي لا يتلقى فيها الطالب أية معونة فكرية من خارج المدرسة ويعتمد تكوينه كليا على المباديء التي يتلقاها في المدرسة) يفقر التعليم ، ويدني من مستواه عمليا، رغم أنه يبدو جميلا جدا من الناحية المنطقية، ولكنه الجمال الطوباوي . الفلسفة الوصفية التقليدية ، المدعومة بدراسة تاريخ الفلسفة وبقراءات لعدد من الفلاسفة ، تبدو عمليا هي الطريقة الافضل .

وقد تكون الفلسفة الوصفية والتعريفية عبارة عن تجريد دوغمائي مثل قواعد اللغة والحساب ، ولكنها ضرورة بيداغوجية وتعليمية . ان المعادلة ١ = ١ هي تجريد ،

---

(١٩) يريد غرامشي هنا القول أنه لا يمكن تعليم قواعد اللغة في السنوات الاولى الا بطريقة دوغمائية ، كما لو كانت هذه القواعد ثابتة الى الابد . أما القواعد التاريخية فهي تلك التي تحلل الاصل والتطور والتبدل الذي يطرأ على كافة القواعد اللغوية .

(٢٠) برنامج جنتيلي الاصلاحي أدخل التعليم الديني الى المدارس الابتدائية . والاتفاق (الكونكورداتو) بين الدولة الفاشية والكنيسة الكاثوليكية ، عام ١٩٢٩ ، أدخل التعليم الديني الى المدارس الاعدادية ، وان لم يكن اجباريا .

(٢١) برنامج جنتيلي الاصلاحي غيّر طريقة دراسة الفلسفة ، ففرض على السنوات الثانوية الثلاث دراسة كل تاريخ الفلسفة . وكما يمكن للانسان أن يتصور ، كانت هذه الدراسة ضرورة سطحية . قبل البرنامج الاصلاحي كانت دراسة الفلسفة تجري حسب المسائل الفلسفية (أي بطريقة وصفية) .

ولكن هـذا ليس سببـا يقود أيـا كان الى التفكير بـأن هي تجريد ، ولكن هذا ليس سببا يقود أيا الى التفكير بأن ذبابة واحدة تساوي فيلا واحدا . وقواعد المنطق الشكلي هي تجريدات من نفس النوع ، فهـي أشبه بقواعد لغـة التفكير الطبيعي ، ومع ذلك لا بد مـن دراستها ، لانهـا لا تولد مع الانسان بـل يجب اكتسابها بالعمـل والتأمـل . البرنامج الجديد يفترض أن المنطق الشكلي هو شيء يمتلكه الانسان بمجرد كونه انسانا يفكر ، ولكنه لا يوضح كيفيـة اكتساب هذا المنطق ، أي كما لو كان يفترض أساسا أنـه يولد بولادة الانسان . ان المنطق الشكلي شبيـه بقواعـد اللغة من حيث يجري تشربه بطريقة « حية » ، وان كـان الاكتساب بالضرورة يحمل طابع التجريد والاختصار فـي التفاصيل ، نظرا لان التلميذ ليس آلـة ترديد (غرامفون) وليس جهاز استقبال ميكانيكي سلبي ، وان كانت الطقوس العرفية للامتحانات تجعله يبدو كذلك في بعض الاحيان .ان العلاقة بين هذه القواعد التربوية من ناحية وروح الطفولة من ناحية أخرى ، هي ، باستمرار ، علاقة نشيطة ومبدعة، كما هي العلاقة نشيطة ومبدعة بين العامل والادوات التي يستخدمها في عمله . فالمقياس ، هو أيضا ، عبارة عـن مجموعة من التجريدات ، ومع ذلك ، لا يمكن انتاج أشيـاء حقيقية وعملية بدون قياسها ، والاشياء الحقيقية والعملية هنا هي العلاقات الاجتماعية التي تحتوي الافكار بوضوح .

ان الطفل الذي يتعلم مباديء عمليات المنطق الشكلي يبذل جهدا واضحا في ذلك بلا شك ، ويجب العمل علـى جعله يبذل الجهد اللازم وحسب ، وليس أكثر من ذلـك . ولكن ، من المؤكد انه سيبذل بعض الجهد ليتعلـم اجبـار نفسه على بعض الحرمان والحد من حركته الجسدية ، أي الخضوع لتدريب نفساني ــ جسدي . ولا بد مـن اقناع الكثير من الناس أن الدراسة ، هي أيضا ، مهنة ، ومهنـة

صعبة جدا ، لها تدريباتها الخاصة ، العضلية ــ العصبية، بالاضافة الى تلك الفكرية . انها عملية تلاؤم مستمرة . انها رداء يكتسب ببـــذل الجهد ، وبالملل ، وحتـــى بالآلام . ان مشاركة أوسع الجماهير في المدرسة الاعدادية تحمل فـــي طياتها التخفيف مـــن الانضباط فـــي الدراســـة ، وتتطلب « تسهيلات » معينة . كثيرون يصلون حـــد التفكير بـــأن الصعوبات هي صعوبات مصطنعـــة ، لان هؤلاء اعتـــادوا اعتبار العمل والتعب أمران يتعلقان فقط بالعمل اليدوي . ولكن المسألة معقدة . فمن المؤكد أن الطفل ابـــن العائلـــة المثقفة تقليديا يتجاوز بسهولة عمليـــة التلاؤم النفساني ــ الجسدي ، وعندما يدخل هذا الطفل قاعة المدرسة للمـــرة الاولى لا بد أنه يبدأ متفوقا بعدة نقاط على أقرانه بإمتلاكـــه توجها اكتسبه مسبقا عبر عادات العائلة ، فينجح في تركيز انتباهه بسهولة أكبر لانه اعتاد الحد مننشاطه الجسدي.. الخ . وكذلك ، فان ابن عامـــل المدينة يعاني بدخوله الـــى المصنع ألما أقل من ذاك الذي يعانيه ابـــن الفلاح أو فـــلاح شاب اعتاد حياة الريف . ولنظام التغذية كذلك أهميته .. الخ . وهذا ما يدعو كثيرا من الناس الى الاعتقاد بأن فـــي صعوبات الدراسة « حيلة » ما مستخدمة ضدهم (هذا اذا لم يعتقدوا أنهم خلقوا أغبياء) . فهم يرون السيد (وكلمـــة « سيد » ، وفي الريف خاصة ، تعني الانسان المثقف)يقوم بسهولة واضحة بتأدية العمل الذي يكلف ابنهم دموعا ودماء كثيرة ، ويعتقدون أن في الامر « خدعة » ما . وفي حالـــة جديدة بديلة ، قد تصبح هذه المسائل غاية فـــي التعقيد ، ويجب مقاومة الميل الى تسهيل ما لا يمكن أن يكون سهلا الا بفصله عن طبيعته . فاذا أريد خلق شريحة جديدة مـــن المثقفين الواصلين الى أعلى مراحل الاختصاص ، من ضمن جماعة اجتماعية بعيدة عن الثقافة تقليديا ، لا بد من تجاوز صعوبات لا حد لها .

بعض نقاط العلام الاساسية (*)

لا بد من تحطيم الحكم المسبق الشائع بـأن الفلسفة هي شيء في غاية الصعوبة لانها النشاط الفكري والثقافي الخاص بفئة معينة ومحددة من العلماء المختصين أو من الفلاسفة المتهنين والمنهجيين . ولا بد من الاثبات في البداية ان كل الناس هم « فلاسفة » ، مع تعريف حدود وسمات هذه « الفلسفة العفوية » العائدة « للجميع » ، أي الفلسفة المحتواة في : ١) اللغة نفسها ، التي هي عبارة عن سلسلة من الافكار والمفاهيم المحددة وليست فقط مجموعة من الكلمات القواعدية الخالية من المحتوى ، ٢ ــ الرأي السائد والرأي الصائب ، ٣ ــ الدين الشعبي ، وبالتالي الفلسفة المحتواة في كل نظام الايمان والتطير والرأي وطريقة الرؤية والعمل ، وكل الامور التي تدخل عادة ضمن اطار ما يسمى عادة بالتقاليد الشعبية ، « الفولكلور » .

(*) من « المادية التاريخية وفلسفة بينيديتو كروتشي » ، بحذف بعض المقاطع القليلة غير ذات الفائدة في تسلسل النص .

بعد اثبات كون الجميع فلاسفة ، وان بطريقتهم الخاصة ودون وعي لذلك ، لان في أقل مظهر لاي نشاط فكري ، أي « اللغة » ، مفهوما محددا للعالم ، يمكن من الانتقال الى اللحظة الثانية ، لحظة النقد والوعي ، أي الى مسألة : هل من الافضل للانسان « التفكير » بدون وعي نقدي ، وبشكل مفكك وصدفي ، أي « المساهمة » في مفهوم للعالم « مفروض » ميكانيكيا من قبل المحيط الخارجي، أي من قبل احدى الجماعات الاجتماعية الكثيرة التي يدخل الانسان احداها اوتوماتيكيا منذ دخوله عالم الوعي (وهذه الجماعة يمكن أن تتثمل بقرية الانسان أو اقليمه ، وقد تستمد أصولها الثقافية من الارشية ومن «النشاط الفكري» لراعي الابرشية أو من الشيخ المسن الذي تصبح «حكمته» قانونا ، أو من المرأة التي ورثت معرفتها عن الساحرات ، أو من المثقف الصغير الذي « حمض » في غبائه وعجزه عن الفعل) ، أم أن الافضل هو أن يبني الانسان مفهومه الذاتي للعالم بالوعي والنقد ، بشكل مرتبط ، بالتالي ، مع العمل الدؤوب لعقله ، وأن يختار نطاقه الخاص لنشاطه ، ويساهم ايجابيا في صناعة تاريخ العالم ، وأن يكون دليلا موجها لنفسه ، فلا يقبل سلبا من الخارج الطابع الذي يطبع شخصيته ؟

ملاحظة ١ : نتيجة للمفهوم الذاتي للعالم ينتمي الانسان دوما الى تجمع معين ، وبالتحديد الى التجمع الذي يضم كافة العناصر الاجتماعية التي تلتقي عند نفس طريقة التفكير والعمل . فالانسان لا بد أن يكون ملتزما بالتزام ما ، انه دوما الانسان — الجمهور أو الانسان — الجماعة. والمسألة هي التالية : من أي نوع تاريخي هو الالتزام ، والانسان — الجمهور الذي هو جزء منه ؟ عندما لا يكون مفهوم العالم نقديا ومنسجما ، ويكون هذا المفهوم صدفيا ومفككا ، ينتمي الانسان الى العديد من انواع الانسان — الجمهور ، وتصبح شخصيته مركبة بشكل عجيب وشاذ ، تجمع بين عناصر

انسان الكهوف ومباديء العلوم الاكثر حداثة وتقدما ، تجمع بين الاحكام المسبقة لكل المراحل التاريخية الماضية والمحلية جدا والحدس الاولي لفلسفة المستقبل التي ستصبح للجيل الانساني الموحد عالميا .. ان نقد المفهوم الذاتي للعالم يعني جعل هذا المفهوم واحدا ومنسجما ورفعه الى أعلى مستوى وصله الفكر العالمي الاكثر تقدما . وهذا يعني ايضا ، وبالتالي ، انتقاد كل الفلسفات التي وجدت حتى الان ، باعتبار انها خلفت وراءها تراكمات ثبتت في الفلسفة الشعبية . ان بداية العمل النقدي هي وعي الواقع ، اي ((معرفة الذات)) (١) كنتاج للعملية التاريخية الجارية حتى الان ، والتي تركت في ذات الانسان اثارا لا حصر لها وبدون ((حق الجرد)) (٢) . ولا بد ، قبل كل شيء ، من اجراء عملية الجرد هذه .

ملاحظة ٢ : لا يمكن فصل الفلسفة عن تاريخ الفلسفة ، ولا فصل الثقافة عن تاريخ الثقافة . وبمعنى اكثر مباشرة وانسجاما مع الموضوع ، فانه لا يمكن للانسان أن يكون فيلسوفا ، أي أن يكون له مفهوم منسجم نقديا للعالم ، دون وعي لتاريخيته ، ولمرحلة النمو التي تمثلها ، وواقع كونها في تناقض مع مفاهيم أخرى أو مع عناصر مفاهيم أخرى . ان المفهوم الذاتي للعالم يجيب على مسائل محددة يطرحها الواقع ، وهي مسائل غاية في التحديد و ((أصيلة)) في آنيتها . اذ كيف يمكن التفكير بالحاضر ، وبحاضر محدد ، بأفكار وضعت لمشاكل ماض غالبا ما يكون بعيدا أو تم تجاوزه ؟ اذا حصل مثل هذا الامر فهو يعني خللا في التوازن الزمني ، ويعني أن صاحبه متحجر أو متفحم وليس انسانا حديثا ، أو — على الاقل — ان هناك ((تركيب)) عجيب وشاذ . والواقع أن بعض الجماعات الاجتماعية تعبر عن منتهى الحداثة المتطورة في معالجة بعض الامور ، وعن التخلف عن موقعها الاجتماعي بالنسبة لامور أخرى ، عاجزة بذلك عن تحقيق الاستقلال التاريخي التام .

---

١ — «معرفة الذات» هو شعار الفلسفة اليونانية القديمة الذي تبناه الفيلسوف العظيم سقراط (٤٧٠ — ٣٩٩ ق. م.) والقائل بأن المهمة الاولى للفلسفة هي دراسة الانسان وعالمه .

٢ — صيغة قضائية في المحاكم الايطالية يعلن الوارث بواسطتها انه قبل الارث ((مع حق الجرد)) ، أي مع الاحتفاظ بحقه في جرد الارث والتأكد من أن قيمة ما يرث تساوي ديون المورث أو تزيد عنها . واذا اكتشف الوارث العكس بعد اجراء الجرد يبقى له حق رفض الارث .

ملاحظة ٣ : اذا كان صحيحا ان كل لغة تحتوي عناصر مفهوم للعالم وعناصر ثقافة ، فمن الصحيح أيضا انه يمكن الحكم على مدى تعقيد مفهوم الانسان للعالم من خلال لغته . فمن يتكلم لهجته المحلية فقط أو يفهم اللغة القومية الى حد ما ، يشارك بالضرورة في فهم حدسي للعالم ، فهم ضيق ، اقليمي ، متحجر ، خارج نطاق الزمن ، بالنسبة للتيارات الفكرية العظمى المسيطرة على التاريخ العالمي . واهتمامات هذا الانسان المصلحية تكون بالتالي ضيقة ذات طابع كوربوراتيفي اقتصادي غير شامل . واذا لم يكن من الممكن دوما تعلم أكبر عدد ممكن من اللغات الاجنبية بهدف الاتصال بأنواع الحياة الثقافية المختلفة ، فلا بد من تعلم اللغة القومية جيدا . فالثقافة العظيمة يمكن ترجمتها الى ثقافة عظيمة أخرى ، بمعنى أن لغة قومية غنية تاريخيا ومركبة يمكنها أن تترجم أية ثقافة عظيمة أخرى ، أي أن تكون تعبيرا عالميا . أما اللهجات المحلية فلا يمكنها أن تفعل ذلك .

ملاحظة ٤ : ان خلق ثقافة جديدة لا يعني الاقتصار على الاكتشافات الفردية « الاصيلة » ، بل يعني أيضا ، وبشكل أخص ، البث النقدي للحقائق المكتشفة ، أي جعلها تصبح حقائق اجتماعية كما يقال ، وتحويلها الى قاعدة للاعمال الحيوية ، وعنصر تنسيق ونظام فكري واخلاقي. أن يستطيع جمهور من الناس التفكير بانسجام وبشكل وحدوي في الواقع الحاضر هو حدث « فلسفي » أكثر أهمية و « أصالة » من عثور «عبقرية» فلسفية ما على حقيقة جديدة تبقى ملكا لمجموعات صغيرة مثقفة .

الرابطة بين الرأي السائد والدين والفلسفة : الفلسفة نظام فكري (٣) ، وهذا ما لا يمكن أن يكون بالنسبة للدين أو بالنسبة للرأي السائد . ويلاحظ أن الدين والرأي السائد لا يتطابقان كذلك في الواقع ، ولكن الدين هو أحد عناصر الرأي السائد المفكك . ومن ناحية أخرى ، فان « الرأي السائد » هو اسم بصيغة الجمع ، مثل « الدين » ، فليس هنالك رأي

---

(٣) أي ، كما يقول غرامشي قبل ذلك ، مفهوما منسجما للعالم ، على العكس من « الرأي السائد » الذي هو « مفكك » (أي غير منظم فكريا) ومركب من فتات مفاهيم مختلفة ، واحيانا متناقضة .

سائد وحيد هو نتاج وعمل تاريخي . الفلسفة هي النقد وهي تجاوز الدين والرأي السائد ، وهي بذلك تنطبق على « الرأي الصائب » الذي يتعارض مع الرأي السائد .

العلاقات بين العلم والدين والرأي السائد : لا يمكن للدين والرأي السائد أن يشكلا نظاما فكريا لانه لا يمكنهما الوصول الى الوحدة والانسجام ولا حتى في الوعي الفردي، بغض النظر عن الوعي الجماعي . لا يمكنهما الوصول الى الوحدة والانسجام « بحرية » ، لان هذا يمكن أن يتم بعمل « سلطوي » (٤) كما حصل فعلا في الماضي الى حد ما . ان مسألة الدين ، عندما يؤخذ الدين لا بمعناه الايماني بل بمعناه العلماني (٥) كوحدة ايمان بين مفهوم للعالم ونظام متلائم معه للسلوك ، هي : لماذا نسمي وحدة الايمان هذه «دينا» ولا نسميها « عقيدة » (ايديولوجيا) ، أو حتى «سياسية»؟

ليس هنالك في الواقع شيء اسمه فلسفة عموما ، فهناك فلسفات ومفاهيم للعالم متباينة يجري الاختيار بينها باستمرار . كيف يتم هذا الاختيار ؟ وهل هذا الاختيار عبارة عن عملية فكرية بحتة أم أنه أكثر تعقيدا ؟ وألا يحصل أن يقوم تناقض ما بين واقع فكري ونظام سلوكي ؟ وأيهما عندئذ هو المفهوم الحقيقي للعالم : ذاك المؤكد منطقيا كواقع فكري ، أم ذاك الناتج عن النشاط الفعلي لكل انسان والمندمج في طريقة عمله ؟ ولان القيام بالعمل هو دوما قيام بعمل سياسي ، أفلا يمكن القول أن الفلسفة الحقيقية لكل

---

(٤) بالفرض الفوقي ، كما حصل ، الى حد ما ، في العصور الوسطى في أوروبا عندما سيطر المفهوم الكاثوليكي سيطرة شبه مطلقة .

(٥) يعرف بينيديتو كروتشي ، وبعض الفلاسفة الآخرين ، الدين « العلماني » بكونه موقفا معينا تجاه بعض المسائل ذات الطابع العام .

انسان هي جزء من سياسته (٦) ؟ هذا التضاد بين التفكير والعمل ، اي هذا التعايش لمفهومين للعالم ، أحدهما مؤكد بالكلمات والآخر متضمن في العمل الفعلي ، لا ينبع دوما من نية سيئة . فالنية السيئة قد تكون تبريرا مرضيا فيما يتعلق ببعض الاشخاص المأخوذين فردا فردا ، أو حتى فيما يتعلق بمجموعات ذات أعداد تزيد أو تقل ، ولكنه ليس تبريرا مرضيا عندما يظهر هذا التضاد كمظهر حياتي للجماهير الواسعة ، فعندئذ يصبح هذا التضاد حتما تعبيرا عن تناقضات أكثر عمقا وذات طابع تاريخي اجتماعي . وهذا يعني أن جماعة اجتماعية ما ، لها مفهومها الخاص للعالم (وان كان هذا المفهوم جنينيا) الذي يظهر من خلال العمل، وبالتالي فانه يظهر في مناسبات معينة ، أي حينما تتحرك الجماعة كوحدة عضوية . وأن هذه الجماعة الاجتماعية استعارت لنفسها ، بسبب الخضوع والتبعية الفكرية ، مفهوما آخر هو أساسا لجماعة أخرى واعتنقته لفظا معتقدة أنها تتبعه عملا لانها تتبعه أيضا في « الازمنة العادية » ، أي عندما لا يكون السلوك مستقلا وحرا ، بل خاضعا وتابعا. ولهذا لا يمكن فصل الفلسفة عن السياسة، بل يمكن البرهان على أن القيام بالاختيار ونقد مفهوم ما للعالم انما هو عملية سياسية أيضا .

اذن ، لا بد هنا من شرح كيف يحصل ، في كل الازمنة ، أن تتعايش أنظمة وتيارات فلسفية عديدة ، وكيف

---

(٦) « سياسة » هنا بمعنى النشاط العملي بالدرجة الاولى والوحيدة. هذا التعريف لهوية « الفلسفة الحقيقية » بكونها النشاط العملي الثوري يعكس واحدا من المفاهيم الاساسية للماركسية ، والوارد في جملة ماركس الشهيرة : « لم يفعل الفلاسفة أكثر من أن يفسروا العالم بطرق مختلفة ، والمهم هو تغيير العالم » (ماركس : « اطروحة حول فويرباخ ») .

تولد هذه الانظمة والتيارات ، وكيف تنتشر ، ولماذا تتبع في انتشارها خطوطا معينة واتجاهات معينة .. الخ . وهذا يدل على مدى ضرورة التنظيم النقدي والمنسجم للحدس الذاتي للعالم وللحياة ، مع التحديد الدقيق لما يقصد بكلمة « النظام » حتى لا تفهم بمعناها اللغوي الضيق والتعليمي .

ولكن هذا الطرح يجب ان يتم ، وأن يتم فقط من خلال اطار تاريخ الفلسفة الذي يفسر أية عمليات مر بها الفكر عبر القرون ، وأي جهد جماعي كان ثمنا لطريقتنا الحالية في التفكير الذي يجمل كل هذا التاريخ الماضي ، حتى بأخطائه وانفعالاته ، التي لا يعني وقوعها في الماضي، ثم تصحيحها، أنها لن تقع مجددا في الحاضر وتحتاج الى تصحيح جديد .

ما هي الفكرة التي يحملها الناس عن الفلسفة ؟يمكن اعادة تكوين هذه الفكرة من خلال الكلمات الشائعة في الحديث العام . ان أحد أكثر التعابير شيوعا هو القول : « لنأخذ الامور بطريقة فلسفية » ، وبالتحليل ، لا يمكننا اهمال هذا القول الشائع ككل . صحيح أن في القول دعوة خفية الى الاستسلام والصبر ، ولكن يبدو أن النقطة الاهم هي — في الواقع — الدعوة الى التأمل والى أن يؤخذ في الحساب أن ما قد يحدث هو — في الاساس — أمر منطقي وأنه من الواجب مواجهته بالتركيز على القوى الذاتية المنطقية دون أن يترك الانسان نفسه ينجرف بتيارات الانفعالات الغريزية المتسمة بالعنف . ويمكن تجميع هذه الاقوال الشعبية الشائعة ذات التعابير المشابهة التي أوردها الكتاب ذوي الطابع الشعبي (ويمكن استخراجها من المعاجم) ، حيث تستخدم تعابير مثل « فلسفة »و«فلسفي»، ورؤية أن لهذه التعابير معنى يتسم بالدقة يتجاوز المشاعر الحيوانية والبدائية الى مفهوم للضرورة يمنح العمل ذاته اتجاها واعيا . هذا هو الجوهر الصحي للرأي السائد وهو

ما يمكن تسميته بالرأي الصائب الذي يستحق التطوير وجعله موحدا ومنسجما . وهكذا يبدو ، ولهذا السبب ،أنه لا يمكن الفصل بين ما يسمى بالفلسفة « العلمية »والفلسفة « الفجة » (أو « المبتذلة ») الشعبية التي هي عبارة عن مجموعة مفككة من الافكار والآراء .

عند هذه النقطة تطرح المشكلة الاساسية لكل مفهوم للعالم ، ولكل فلسفة أصبحت حركة ثقافية ، أو « دينا » ، أو « عقيدة » ، أي كل فلسفة أنتجت نشاطا عمليا وارادة (٧) وأصبحت جزءا من هذا النشاط وهذه الارادة باعتبارها « مقدمة » لهما (ويمكن القول «ايديولوجيا»(٨)، اذا أعطي لكلمة ايديولوجيا المعنى الاكثر سموا لمفهوم للعالم يبرز ضمنا في الفن وفي الحقوق وفي النشاط الاقتصادي ، وفي كل مظاهر الحياة الفردية والجماعية) . وهذه المشكلة هي مشكلة الحفاظ على الوحدة الايديولوجية في كل تلك الكتلة الاجتماعية التي تستمد تماسكها ووحدتها من هذه الايديولوجيا بالذات . ان قوة الاديان ، وقوة الكنيسة الكاثوليكية بشكل أخص ، كانت وما زالت تكمن في شعور هذه الاديان بالحاجة الماسة الى الوحدة العقائدية لكل الجمهور « المتدين » ونضالها ضد انفصال الشرائح المتفوقة فكريا عن تلك الادنى . لقد كانت كنيسة روما هي الاكثر عنادا في النضال لمنع تشكل دينين اثنين « رسميا » ، أي

---

(٧) أي فلسفة لا تبقى ملكا لجماعات فكرية ضيقة ، بل تنتشر بين أوسع الجماهير ، وتصبح بذلك مقدمة لحركة ثقافية ولنشاط عملي يتجه باتجاه تغيير العالم . مثل الماركسية .

(٨) المعنى الذي يعطيه غرامشي هنا لكلمة « ايديولوجيا » لا ينطبق على المعنى الذي يعطيه ماركس للكلمة . فهي بالنسبة لماركس تعني«الوعي الزائف للواقع ، وهي — بالتالي — تعني الفلسفة السيئة .

دين « المفكرين » ودين « البسطاء » . ولم يبق هذا النضال دوما بدون نتائج خطيرة حتى على الكنيسة ذاتها ، ولكن هذه النتائج السلبية بقيت مرتبطة بعملية التطور التاريخي العامل على اجراء التحويل في كل المجتمع المدني الـــذي يحتوي ، ككتلة ، على النقد الداخلي الذي ينهش الاديان . وكـــان الجيزويت ، بلا شكّ ، هم أكثر من نجح في حفظ التوازن بين المفكرين والبسطاء ، وللحفاظ علـــى هـــذا التوازن أعطوا للكنيسة طابع الحركة التقدمية التي تتجه الى ارضاء بعض متطلبات العلم والفلسفة ، ولكن كل هذا كـــان ومـــا زال يحصل بايقاع بطيء جدا ومنهجي دقيق الى درجة أن جمهور البسطاء لم يتمكن من استيعاب هذه التحولات رغم أنها تبدو « ثورية » وديماغوجية في نظر « التكامليين » (٩) .

ان احدى أهم نقاط ضعف الفلسفات الحلوليـــة (١٠) تكمن ، بشكل عام ، في أن هذه الفلسفات لم تستطع ايجاد الوحدة الايديولوجية بين الاسفل والاعلى ، أي بـــــين « البسطاء » والمفكرين (١١) . في تاريخ الحضارة الغربية ظهرت هذه المشكلة على المستوى الاوروبي فـــي الفشـــل الفوري لـــ « النهضة » ، ثم جزئيا في فشل « الاصلاح »

---

(٩) Integralisti اولئك الذين يريدون المحافظة علـــى التراث الدوغمائي للكنيسة دون أي مساس أو تغيير فيه .

(١٠) Immanentismo ، وهي المفاهيم الفلسفية التي تستبعد فكرة « الوجود » (الالوهية) أو البدايـــة الخارجـــة عـــن الانســـان أو الطبيعة . وهي فلسفات تتعارض مع كل المفاهيم الدينية للعالم طبعـــا . والماركسية نفسها فلسفة حلولية ولكنها تتجه بشكل خاص الى « ايجـــاد الوحدة الايديولوجية بين الاسفل والاعلى » .

(١١) نقد غرامشي هنا موجه الى كل الفلسفات الحديثة ، بما فيهـــا بعض تياراتها التقدمية ، من حيث أن من أهم ميزات الماركسية هي قدرتها على تجاوز هذا الفصل بين مفاهيم « البسطاء » ومفاهيم المفكرين .

تجاه الكنيسة في روما . وظهر هذا الضعف في القضايا المدرسية ، فالفلسفات الحلولية لم تبدأ حتى محاولة ايجاد مفهوم يمكنه الحلول محل الدين في تربية وتعليم الاطفال ، ومن هنا ظهرت السفسطة التاريخوية الزائفة التي سمح بموجبها علماء التدريس غير الدينيين ، والملحدين في الواقع ، بتدريس الدين باعتباره فلسفة طفولة الانسانية . وكذلك فقد أثبتت المثالية كونها مناوئة للحركات الثقافية التي « ذهبت باتجاه الشعب » ، والتي عبرت عن نفسها من خلال ما سمي بالجامعات الشعبية والمعاهد المماثلة ، ولم يكن ذلك ناجما فقط عن مظاهر التخلف لان هذا يمكن اصلاحه . وعلى العموم ، كانت هذه الحركات تستحق الاهتمام وتستحق الدراسة ، فقد لقيت نجاحا من حيث أنها استثارت الحماسة الصافية عند « البسطاء » ، واستثارت عندهم ارادة قوية للارتفاع بأنفسهم الى مستوى أعلى من مستويات الثقافة ومفهوم العالم . ولكن هذه الجامعات والمعاهد كانت تفتقر الى العضوية سواء في الفكر الفلسفي أم في التماسك التنظيمي والمركزة الثقافية . كان هنالك انطباع بأن العلاقة أشبه بالعلاقات الاولى بين التجار الانكليز وزنوج افريقيا ، حيث كان يتم تبادل البضائع التافهة بحفنات من الذهب .من ناحية أخرى ، فانه لم يكن ممكنا تحقيق عضوية الفكر والتماسك الثقافي الا اذا كانت هنالك بين المفكرين والبسطاء نفس الوحدة التي يجب أن تكون قائمة بين النظرية والممارسة ، أي اذا كان المفكرون هم المفكرون العضويون لتلك الجماهير ، أي اذا كانوا قد عالجوا ونسقوا تلك المباديء والمشاكل التي كانت تطرحها الجماهير في نشاطاتها العملية ، بحيث يتم تأليف كتلة ثقافية واجتماعية متماسكة. وهنا تطرح المسألة ذاتها التي أشير اليها سابقا : هل تعتبر الحركة الفلسفية حركة فلسفية فقط من حيث امكانية

تطبيقها في تنمية ثقافة مختصة بمجموعات ضيقة من المفكرين ، أم أنها حركة فلسفية فقط باعتبارها لا تنسى أن تبقى على صلة بـ « البسطاء » ، من خلال ايجادها لفكر متميز عن الرأي السائد ومنسجم علميا ، بل أن تجد في هذه الصلة ينبوعا للمشاكل التي تتطلب دراسة وحلا ؟ فقط من خلال هذه الصلة تصبح الفلسفة « تاريخية » وتتطهر من العناصر « الفكروية » ذات الطبيعة الفردية وتدخل ميدان « الحياة » (١٢) .

ان الفلسفة الاجرائية (١٣) (العملية) لا بد لها أن تنطلق في البداية كموقف جدلي ونقدي ، وكتجاوز لطريقة التفكير السابقة وللفكر الملموس القائم (أو العالم الثقافي القائم) ، وبالتالي كنقد لـ « الرأي السائد » (بعد أن تكون قد أعتمدت على الرأي السائد لاثبات كون « الجميع » فلاسفة ، وأن الامر لا يتعلق بادخال علم جديد كليا في الحياة الفردية لـ « الجميع » ، بل بتجديد نشاط قائم وجعله « نقديا ») ، وكنقد لفلسفة المفكرين التي أثمرت تاريخ الفلسفة ، والتي هي ، نظرا لكونها فردية (وتنمو أساسا

---

(١٢) هامش لفرامشي : قد يكون من المفيد « عمليا » التمييز بين الفلسفة والرأي السائد لتوضيح الانتقال من لحظة الى أخرى . ففي الفلسفة تبرز بشكل خاص سمات العمل الفردي للفكر ، أما في الرأي السائد فالسمات الغالبة هي سمات الفكر العمومي لعصر معين في محيط شعبي . ولكن كل فلسفة تميل الى أن تصبح رأيا سائدا لمحيط ضيق أيضا (لكل المفكرين) . وعلى العموم فان المسألة هنا تتعلق بوضع فلسفة ذات انتشار واسع أو امكانية الانتشار الواسع ، لارتباطها بالحياة العملية التي تتضمنها ، بحيث تصبح تجديدا للرأي السائد بالانسجام والحيوية اللتان تتسم بهما الفلسفات الفردية . وهذا لا يمكن أن يحصل اذا لم يكن هنالك شعور دائم بالحاجة الى العلاقة الثقافية بـ « البسطاء » .

(١٣) أي الماركسية .

معتمدة على نشاط أفراد معينين موهوبين) ، يمكن اعتبارها كـ « نقاط » تقدم في الرأي السائد ، وعلى الاقل في الرأي السائد لدى الطبقات الاكثر ثقافة في المجتمع ، وعبر هذه، هي أيضا « نقاط » تقدم في الرأي السائد الشعبي . ولهذا فان البدء بدراسة الفلسفة لا بد وأن يعرض تركيبيا المشاكل الناجمة عن عملية تطور الثقافة العامة، التي تنعكس جزئيا فقط على تاريخ الفلسفة ، الذي يبقى ، في غياب تاريخ للرأي السائد (ان يستحيل بناء هذا التاريخ في غياب وثائقه) ، هو النبع الافضل للاستدلال به ، أي لنقد هذه المشاكل واثبات قيمتها الحقيقة (اذا بقيت لها أية قيمة) أو المعنى الذي حملته كحلقات تم تجاوزها في السلسلة ، ثم تحديد المشاكل الجديدة الآنية أو الطرح الآني للمشاكل القديمة .

ان العلاقة بين الفلسفة « العليا » ، أو « المتفوقة »، والرأي السائد تمر عبر « السياسة » ، كما تمر عبر السياسة العلاقة بين كاثوليكية المفكرين وكاثوليكية « البسطاء » . ولكن الفوارق بين الحالتين أساسية : ان مواجهة الكنيسة لمشكلة « البسطاء » يعني بالدرجة الاولى وجود انشقاق في طائفة « المؤمنين » ، انشقاق لا يمكن اصلاحه برفع « البسطاء » الى مستوى المفكرين (والواقع أن الكنيسة لا تطرح على نفسها هذه المهمة التي لا تتلاءم مع قواها الحالية سواء من الناحية الفكرية أم تلك الاقتصادية) بل بنظام حديدي مفروض على المفكرين يمنعهم من تجاوز حدود معينة للتمايز لكي لا يصبح هذا التمايز كارثيا وغير قابل للاصلاح . في الماضي كانت هذه « الانشقاقات » في طائفة المؤمنين تعالج بواسطة قيام حركات جماهيرية قوية تؤدي الى ولادة ، أو أنها تستوعب ضمن ، تشكيلات مذهبية دينية جديدة تقوم حول شخصيات قوية (مثل « دومينيكو »

و « فرانشيسكو ») (١٤) .

ولكن الحركة المضادة للاصلاح (١٥) أدت الى تعقيم (بمعنى جعله عقيما) هذا التفريغ للقوى الشعبية ، و « جماعة يسوع » هي آخر المذاهب الدينية الكبيرة ،ذات الاصول الرجعية والسلطوية ، والطابع القمعي و « الدبلوماسي » ، وهي التي وسمت بولادتها تصلب الجسم الكاثوليكي . أما المذاهب الجديدة التي ظهرت فيما بعد فكانت تحمل معان « دينية » ضئيلة ومعنى « نظاميا » كبيرا بالنسبة لجماهير المؤمنين ، وهي عبارة عن فروع لـ « جماعة يسوع » أو أنها أصبحت كذلك ، وأدوات«مقاومة» للمحافظة على المواقع السياسية المكتسبة ، وليست قوى تجديدية للتطور . وأصبحت الكاثوليكية هي « اليسوعية » (أو « الجيزويتية ») . أما العصرانية (١٦) فلم تؤد الى قيام « مذاهب دينية » بل أصبحت حزبا سياسيا ، هو حزب الديموقراطيين المسيحيين .

ان موقع الفلسفة الاجرائية هو موقع التناقض مع

---

(١٤) سان دومينيكو (١١٧٠ ــ ١٢٢١) نشط خصوصا في الصراع ضد الهراطقة وأسس المذهب الدومينيكاني . وفرانشيسكو دي آسيزي (١١٨٢ ــ ١٢٢٦) هو القديس الشهير صاحب المذهب المنسوب اليه « الفرانسيسكان » ، والقائل بالعودة الى كنيسة الفقر البدائي .

(١٥) مجموعة الاجراءات التي اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية لمقاومة « الاصلاح » ، وقد بدأت رسميا بالمجمع المسكوني الذي عقد في ترنتو (عام ١٥٤٥) والذي أدينت فيه كافة الاطروحات اللوثرية . وكان اليسوعيون هم القوة الاساسية في الحركة المضادة للاصلاح ، وأسسوا مذهبهم الديني الجديد في عام ١٥٤٠ بقيادة « انياتزيو دي لويولا » .

(١٦) « العصرانية » هو الاسم الذي أطلق على حركة اصلاح الكاثوليكية التي قامت في مطلع هذا القرن والتي أدانتها الكنيسة أيام البابا بيوس العاشر . وكان العصرانيون يريدون أن يكونوا كاثوليكيين « بانسجام مع روح عصرهم » وتكييف الكاثوليكية مع كل مكتسبات العصر الحديث .

الكاثوليكية ، فالفلسفة الاجرائية لا تتجه الى المحافظة على « البسطاء » في اطار فلسفتهم البدائية للرأي السائد ، بل تحاول أن تقودهم الى مفهوم أعلى للحياة . واذا كانت تؤكد الحاجة الى قيام العلاقة بين المفكرين والبسطاء فليس بهدف الحد من النشاط العلمي للمحافظة على الوحدة في المستوى المنخفض للجماهير ، بل لبناء كتلة فكرية ــ وجدانية تجعل التقدم الفكري للجماهير ممكنا سياسيا وليس أمرا مقصورا على جماعات قليلة من المفكرين .

ان الانسان الجماهيري الناشط يعبر عن نشاطه بطريقة عملية ، ولكنه لا يمتلك الوعي النظري لهذا النشاط العملي الذي هو نوع من أنواع فهم العالم ومعرفته لانه يقوم بتغييره . بل ان الوعي النظري لهذا الانسان قد يكون متناقضا تاريخيا مع عمله . وقد يمكن القول أن لهذا الانسان وعيين نظريين (أو وعيا متناقضا مع نفسه) ، أحدهما متضمن في عمله وهو يربطه واقعيا بكل المتعاونين معه على التغيير العملي للواقع ، والآخر سطحي ظاهري ولفظي ورثه عن الماضي واكتسبه دون نقده . وعلى العموم ، فان هذا المفهوم « اللفظي » ليس بلا نتائج ، فهو يرتبط بجماعة اجتماعية معينة ، ويؤثر في السلوك الاخلاقي ، وفي اتجاه الارادة ، بشكل فعال نسبيا قد يصل الى حد يؤدي فيه تناقض الوعي الى المنع من القيام بأي عمل أو اتخاذ أي قرار أو اختيار ، والى حالة من السلبية الوجدانية والسلبية السياسية (١٧) . التفهم النقدي للذات يتم عندئذ من خلال

---

(١٧) يشير غرامشي هنا الى التناقض الممكن بين النشاط العملي للطبقة العمالية الذي يحمل في طياته ، ولو بشكل غير واع أحيانا ، فلسفة ثورية جديدة ، والدرجة غير الكافية من الوعي النظري ، مما قد يؤدي حتى الى استسلام الطبقة العمالية لفلسفة احدى الطبقات الاخرى ، مما يؤدي الى الجمود والسلبية .

صراع « الهيمنات » السياسية ، وصراع الاتجاهات المتعارضة ، في الميدان الاخلاقي أولا ، ثم في ميدان السياسة للوصول الى معالجة ذات مستوى أعلى للمفهوم الذاتي للواقع . ان وعي الانسان لكونه جزءا من قوة هيمنة معينة (أي الوعي السياسي) هو الخطوة الاولى باتجاه الوعي الذاتي الاعلى والاكثر تقدما الذي تتوحد في نهايته النظرية والممارسة . اذن ، فوحدة النظرية والممارسة ليست أمرا ميكانيكيا هي أيضا ، بل هي نتيجة تطور تاريخي تنطلق مرحلته الابتدائية والبدائية من فهم « التمايز » ، و « الانفصال » ، والاستقلال شبه الغريزي ، ثم يتطور هذا الفهم متقدما نحو الامتلاك الفعلي والكامل لمفهوم منسجم ووحدوي للعالم . وهذا هو السبب في ابراز كيف أن التطور السياسي لمفهوم الهيمنة يمثل تقدما فلسفيا الى جانب كونه تقدما سياسيا — عمليا (١٨) ، لانه يفترض بالضرورة وجود وحدة فكرية ووجود أخلاقية مطابقة لفهم معين للواقع تجاوز الرأي السائد وأصبح ، ولو ضمن حدود ما زالت ضيقة ، نقديا .

وعلى العموم ، ففي آخر تطورات الفلسفة الاجرائية ما زال التعمق في مفهوم وحدة النظرية والممارسة في مرحلته الاولية ، وما زالت هنالك آثار للميكانيكية ، لان الكلام يجري عن النظرية وكأنها شيء « كمالي » أو «ملحق» بالممارسة ، وكأنها خادمة للممارسة (١٩) . ويبدو صحيحا أيضا أن هذه المسألة يجب طرحها تاريخيا ، أي كمظهر

---

(١٨) لا يمكن أن تبنى الهيمنة فقط على العناصر الاقتصادية والسياسية بالمعنى الضيق ، فهي عندما توجد تحقق أيضا وحدة فكرية وأخلاقية .

(١٩) ترديد أو تشبيه لصيغة فلسفة العصور الوسطى التي كانت تعتبر أن الفلسفة لا بد وأن تكون في خدمة علم اللاهوت .

للمسألة السياسية للمفكرين . ان الوعي الذاتي النقـدي يعني ، تاريخيا وسياسيا ، خلق نخبة من المفكرين:فالجماعة الانسانية لا « تتميز » ، ولا تصبح مستقلة بـ « الكفايـة الذاتية » وبدون أن تنظم نفسها ، وليس هنالك تنظيم بدون مفكرين ، أي بدون منظمين ومديرين ، أي بدون أن يستطيع المظهر النظري في علاقة النظريـة ـ الممارسة أن يظهـر بشكل ملموس مـن خلال شريحـة مـن الاشخـاص « الاختصاصيين » بالمعالجة المفاهيمية والفلسفة . ولكـن عملية خلق هؤلاء المفكرين عملية طويلة ، صعبة ، مليئـة بالتناقضات ، وبالتقدم والتراجع ، وبالتشتت والعودة الـى التجمع ، بحيث يتعرض « ايمان » الجماهير أحيانا لتجارب صعبة (والايمان والانضباط هما فـي البداية الشكل الذي تتخذه مشاركة الجماهير وتعاونها في تطوير مجموع الظاهرة الثقافية) . ان عملية التطور ترتبط بديالكتيكية المفكرين ـ الجماهير . وشريحة المفكرين تنمو كما ونوعا ، ولكن كـل قفزة نحو « اتساع » جديد ونحو تعقيد لشريحة المفكرين ، ترتبط بحركة مماثلـة لجماهير البسطاء التي ترتفـع الـى مستوى أعلى للثقافة ، وتوسع فـي نفس الوقت دائـرة نفوذها عبر بروزات فردية أو عبر مجموعات ذات أهميـة معينة تنطلق نحو شريحة المفكرين الاختصاصيين . وخلال هذه العملية تتردد باستمرار لحظات يقوم فيها انفصال بين الجماهير والمفكرين (أو بعضهم أو جماعة منهم) ، وتضيع العلاقة ، فيبرز الشعور بـ « الالحـاق » والخضوع . ان الاصرار على عنصر « الممارسة » في علاقـة النظريـة ـ الممارسة ، بعد شق وفصل العنصرين وليس ابعاد أحدهما عن الآخر فقط (وهي عملية ميكانيكية بحتة ومعتادة) ،يعني المرور بمرحلة تاريخية بدائيـة نسبيـا ، مرحلة مـا زالت اقتصادية ـ كوربوراتيفية ، يتحـول فيهـا الاطار العـام

لـ « البنية » كما ، وتكون النوعية ـ البنية الفوقية الملائمة قيد البزوغ ولكنها لم تتشكل عضويا بعد . ولا بد من ابراز الاهمية والمعنى اللذين يلتصقان ، في العالم الحديث ، بالاحزاب السياسية في معالجة وبث مفاهيم للعالم باعتبار أنها تعالج أساسا الاخلاق والسياسة التي تتفق معها . أي أن هذه الاحزاب تكاد تعمل في « الاختبار » التاريخي لهذه المفاهيم . فالاحزاب تختار فرديا جماهيرها العاملة ، ويأتي الاختيار في الميدان العملي والنظري معا ، عبر علاقة أكثر متانة بين النظرية والممارسة عندما يكون المفهوم أكثر حيوية وجذرية في تجديده وابداعه ومتعارضا مع الطرق القديمة للتفكير . ولهذا يمكن القول أن الاحزاب تخلق فكرا جديدا متكاملا وسلطويا ، أي أنها أشبه ببوتقة لتوحيد النظرية والممارسة ، اذا فهم هذا التوحيد كعملية تاريخية حقيقية ، وهو ما يوضح ضرورة التشكل على أساس الانضمام الفردي وليس على طريقة حزب العمال البريطاني (٢٠) ، لانه اذا كان الامر يتعلق بقيادة عضوية « لكل الجماهير الناشطة اقتصاديا » ، فهو يتعلق بقيادتها لا بالطرق القديمة ، بل بتجديد في الطرق ، والتجديد لا يمكن ان يكون جماعيا في مراحله الاولى الا من خلال نخبة أصبح المفهوم المضمر في النشاط الانساني عندها ، والى حد ما ، وعيا قائما ، منسجما ، منظما ، وارادة محددة وقوية .

ويمكن دراسة احدى هذه المراحل من خلال المناقشة التي أثمرت آخر تطورات الفلسفة الاجرائية، وهي المناقشة التي جرى اختصارها في مقال د . س . ميرسكي في مجلة

---

(٢٠) في حزب العمال البريطاني ، وفي أحزاب اشتراكية ديموقراطية أخرى ، يسمح بانضمام منظمات بكاملها (كالنقابات ، والنوادي الثقافية وغيرها) الى الحزب ، بالاضافة الى انتساب الافراد اليه .

« الثقافة » Cultura . من الممكن رؤية كيف تم الانتقال من مفهوم ميكانيكوي وقشري بحت الى مفهوم فاعل يقترب أكثر فأكثر ، كما هو ملاحظ ، من الفهم الصحيح لوحدة النظرية والممارسة ، رغم أن هذا المفهوم لم يمتد بعد الى كل المعنى التركيبي . من الممكن ملاحظة كيف أن العنصر الحتموي ، القدري ، الميكانيكوي كان أشبه بـ « النكهة » الايديولوجية المباشرة للفلسفة الاجرائية (٢١) ، وشكلا من أشكال الدين ، والمثيرات (على شكل مخدر) التي أصبحت ضرورية ، ومبررة تاريخيا بالسمة « التابعية » لشرائح اجتماعية معينة .

عندما يظهر العجز عن امتلاك المبادرة في النضال ، وينتهي النضال نفسه ، بالتالي ، الى أن يصبح سلسلة من الهزائم ، تصبح الحتمية الميكانيكية قوة هائلة للصمود النفسي ، وللتماسك ، والمواظبة الصابرة والعنيدة: « لقد هزمت مؤقتا ، ولكن قوة الاشياء تعمل لصالحي على المدى الطويل .. الخ » . وتلبس الارادة الحقيقة في هذه الحالة لبوس فعل الايمان بعقلانية معينة للتاريخ ، نابعة من تجريبية بدائية ، وغائية ملتهبة ، تبدو بديلة للمصيرية وللعناية الالهية و .. و .. الخ ، النابعة من الاديان العقائدية . ولا بد من الاصرار هنا على أنه حتى في هذه الحالة هنالك في الواقع نشاط ارادي قوي ، وتدخل مباشر

---

(٢١) التفسير الميكانيكوي للماركسية يقول بأن التطور الطبيعي للاقتصاد الرأسمالي لا بد وأن يؤدي حتما الى انهيار الرأسمالية وحلول الاشتراكية محلها . هذا التفسير ، رغم كونه خاطئا ، يمكنه أن يشكل ، كما يقول غرامشي ، « ايمانا » عميقا ، وأن يصبح بالتالي « مثيرا » ودافعا للعمل عند الجماهير التي ما زالت تابعة ، والعاجزة عن الفهم الكلي لدور الانسان ، وبالتالي لدور الحزب .

في « قوة الاشياء » ، ولكن بشكل ضمني ، مستتر ، يكاد يخجل من نفسه ، وبالتالي يكون الوعي متناقضا ، يفتقر الى الوحدة النقدية .. الخ . ولكن ، عندما يصبح «التابع» قائدا ومسؤولا عن النشاط الاقتصادي للجماهير ، تحصل عنده مراجعة تامة لكل طريقة التفكير نظرا لحصول تغير في الوضع الاجتماعي لنفس الوجود ، وتضيق حدود وسيطرة « قوة الاشياء » ، لماذا ؟ لان التابع كان البارحة شيئا ما ، ولم يعد اليوم شيئا ما ، بل أصبح شخصا تاريخيا ، أصبح صاحب دور . واذا كان التابع البارحة غير مسؤول لانه كان « مقاوما » لارادة خارجية ، فهو يشعر اليوم بكونه مسؤولا لانه لم يعد مقاوما بل فاعلا ، وفاعلا ناشطا بالضرورة . ولكن ، هل كان هذا الانسان ، البارحة ، « مقاومة » بحتة ، و « شيئا » بحتا ، و « لا مسؤولية » بحتة ؟ بالطبع لا ، بل العكس هو الصحيح ، اذ يجب ابراز كيف أن القدرية ليست سوى تمويها يفتعله الضعفاء لتغطية الارادة النشطة والحقيقية . وهذا ما يستدعي التدليل باستمرار على عبثية الحتمية الميكانيكية ، التي يمكن تفسيرها كفلسفة ساذجة عند الجماهير وعلى أساس كونها عنصرا داخليا للقوة ، أما عندما يتم تبني هذه الحتمية الميكانيكية كفلسفة منسجمة جرى التأمل بها عند المفكرين فانها تصبح عامل سلبية واكتفاء ذاتي غبي ، وكل هذا دون انتظار أن يصبح التابع قائدا ومسؤولا . ان جزءا من الجماهير التابعة هو دوما قائد ومسؤول ، وفلسفة الجزء تسبق دوما فلسفة الكل ، لا كاستباق نظري فحسب ، بل أيضا كحاجة قائمة ..

لماذا وكيف تنتشر المفاهيم الجديدة للعالم وتصبح شعبية ؟ في عملية الانتشار هذه (التي هي في الوقت ذاته عملية استبدال للقديم وغالبا ما تكون عملية مزج القديم بالجديد) هل يلعب الشكل العقلاني دوره (وكيف والى أي

حد ؟) الذي يعرض من خلاله ويقدم المفهوم الجديد ، وما هو الدور الذي يلعبه نفوذ العارض (نفوذ معترف به ومشهود له بشكل عام) والمفكرون والعلماء الذين يستدعيهم لدعمه ، والانتماء الى نفس التنظيم الذي يدعم هذا المفهوم الجديد (بعد أن يكون العارض قد دخل التنظيم لاسباب أخرى غير المشاركة في المفهوم الجديد) ؟ تختلف أهمية هذه العناصر في الواقع باختلاف المجموعة الاجتماعية والمستوى الثقافي لهذه المجموعة . ولكن البحث هنا يزداد أهمية فيما يتعلق بالجماهير الشعبية ، التي لا تغير مفاهيمها الا بصعوبة ، والتي لا تغير مفاهيمها أبدا وفي أية حال الى مفاهيم جديدة تتقبلها بصيغتها « النقية » ، اذا جاز القول ، بل لا تتقبلها الا كمزيج مختلط الى حد ما ، ان الصيغة العقلانية المنسجمة منطقيا ، وكمال المحاكة الذي لا يغفل أي موضوع ، ايجابي أو سلبي ، ذي وزن ما ، أمران لهما أهميتهما ، ولكنهما ليسا تقريريان . يمكنهما أن يكونا تقريريان بشكل تابع فقط ، أي عندما يكون الانسان المعين يعيش شروط أزمة فكرية ، متأرجحا بين القديم والجديد ، فيكون قد فقد ثقته في القديم ، ولم يقرر الوقوف الى جانب الجديد بعد .

ويمكن قول الشيء نفسه حول نفوذ المفكرين والعلماء. فهذا النفوذ غالبا ما يكون عظيم التأثير على الشعب ،ولكن الواقع هو أن لكل مفهوم للعالم مفكريه وعلمائه الذين يطرحونه على الشعب ، وبالتالي يصبح هذا النفوذ مقسما. ويمكننا الوصول هنا الى استنتاج يقول بأن عملية نشر المفاهيم الجديدة انما تتم لاسباب سياسية ، أي لاسباب اجتماعية في التحليل الاخير ، وأن عنصر الصيغة ، والمنطق المنسجم ، وعنصر النفوذ ، والعنصر التنظيمي ، لها كلها في هذه العملية وظيفة كبيرة جدا تأتي مباشرة بعد أن يكون

الاتجاه العام قد وجد فعلا سواء عند الافراد أم عند المجموعات . ولكننا نستنتج من هنا أيضا أنه لا يمكن للجماهير ، كجماهير ، أن تعيش الفلسفة الا كايمان وعقيدة . ولنتصور ، على العموم ، الموقع الفكري لرجل شعبي عادي ، هذا الرجل كون لنفسه آراء واعتقادات وقواعد أحكام مسبقة وأصولا للسلوك . وكل معتنق لوجهة نظر متعارضة مع وجهة نظر هذا الرجل الشعبي العادي ، ومتفوق عليه فكريا ، يستطيع أن يناقشه في آرائه ويتغلب عليه منطقيا .. الخ ، فهل هذا سبب لكي يغير الرجل الشعبي معتقداته ؟ لانه لا يستطيع أن يتفوق في النقاش المباشر ؟ اذا كان الامر كذلك فقد يضطر الى تغيير معتقداته مرة كل يوم ، أي كلما التقى بخصم ايديولوجي متفوق عليه فكريا . اذن ، ما هي العناصر التي يبني عليها هذا الرجل فلسفته ؟ وخصوصا فلسفته التي تزداد أهميتها عنده كقاعدة للسلوك ؟ ان العنصر الاهم هو بلا شك عنصر غير عقلاني، انه عنصر الايمان . ولكن ، الايمان بمن وبماذا ؟ الايمان خصوصا بالمجموعة الاجتماعية التي ينتمي اليها لانها تفكر بشكل عام مثله ، والرجل الشعبي يعتقد بأن الجماعة لا تخطيء بعددها الكبير ، كما يريده الخصم أن يعتقد : فهو شخصيا قد لا يكون قادرا على دعم أسبابه وحججه كما يفعل الخصم ، ولكن في جماعته من يستطيع ذلك ، وبأفضل مما يستطيع الخصم . فقد سمعه يعرض أسباب وحجج ايمانه وعقيدته بشكل واسع ومنسجم ، واقتنع بها . وكونه اقتنع مرة ، وبشكل ساحق ، هو السبب الدائم لدوام الاعتقاد عند هذا الرجل ، وان كان لا يستطيع الدفاع عنه .

ولكن هذه الاعتبارات تقود الى الاستنتاج بوجود اهتزاز في القناعات الجديدة للجماهير الشعبية ، وخاصة اذا كانت هذه القناعات متعارضة مع القناعات (الجديدة

هي أيضا) الارثوذكسية (٢٢) ، والملتزمة اجتماعيا حسب المصالح العامة للطبقات السائدة . ويمكن ملاحظة هـــذا بوضوح عند تأمل ما تحظى به الاديان والكنائس . ان ديانة معينة أو كنيسة معينة تحافظ علـــى طائفتها مـــن المؤمنين (ضمن حدود معينـــة لضرورات التطور التاريخي العـــام) بالدرجة التي تحافظ بهـــا ، استمرارية وتنظيمـــا ، علـــى عقيدتها ، بتكرار امتداح هذه العقيدة ، مناضلة دوما وفـــي كل لحظة عبر مواضيع متماثلة ، ومحافظة على وجود هرم من المفكرين الذين يعطون للدين مظاهر الاحترام الفكريعلى الاقل . وفي كل مرة حصل فيها انقطاع حاد في العلاقة بين الكنيسة والمؤمنين ، لاسباب سياسية ، كمـــا حصل خلال الثورة الفرنسية ، كانت خسائر الكنيسة كبيرة جدا ، واذا ما استمرت استمالة ممارسة الشعائر المعتادة الى أبعد من فترة زمنية معينة ، أصبحت هذه الخسائر نهائية ، وقـــد تؤدي الى ظهور دين جديد ، كما ظهر فعلا في فرنسا ديـــن جديد ممزوج بالكاثوليكية القديمة . من هنـــا تبرز متطلبات معينة لا بد منها لكل حركة ثقافية تتجه الى الحلول محـــل الرأي السائد والمفاهيم القديمة للعالم بشكل عام : ١ ــ عدم الشعور بالتعب أبدا من ترداد موضوعاتها (مـــع التغيير الادبي في الصيغة) ، فالتكرار هو الوسيلة التعليميةالاكثر فعالية في التأثير على العقليةالشعبية ٢ ــ العمل باستمرار وبلا توقف على رفع المستوى الفكري لشرائح شعبيةأوسع فأوسع ، وذلك لاعطاء شخصية للعنصر الجماهيري الذي لا شخصية له ، وبمعنى العمل على استثارة نخبة منالمفكرين من نوع جديد يخرجون مباشرة من صفوف الجماهير مـــع بقائهم على علاقة بهذه الجماهير ليصبحوا « أعمدة » حاملة

---

(٢٢) الملتزمة بالقواعد السائدة .

للجسد . هذا المتطلب الثاني ، اذا تم تحقيقه ، هـو الذي يغير فعلا « البانوراما الايديولوجية » لعصر ما ومن ناحيـة أخرى ، فانه لا يمكن لهذه النخبة أن تكون نفسها وتصبـح حقيقة قائمة بدون أن تتكون في داخلها هرمية سلطة وكفاءة فكرية ، قد تتوج بظهور فيلسوف فردي كبير اذا استطاع هذا الفيلسوف ان يحيي بشكل ملموس الحاجات المعقدة للجماعة الايديولوجية ، وأن يفهم أن هـذه الجماعة لا تستطيع أن تمتلك رشاقة الحركة التي هي من خصائص العقل الفردي، ويستطيع بالتالي أن يضع صيغة العقيدة الجماعية بالشكل الاكثر ملاءمة وتجاوبا مع طرق تفكير المفكر الجماعي .

من الواضح أن بناء جماهيريا من هذا النوع لا يمكنه أن يقوم « اختياريا » ، ومن حول أيـة ايديولوجيا ، نتيجة ارادة بناءة شكلا عند شخص ما ، أو مجموعة ما ، يقترح أو تقترح اقامة هذا البناء نتيجة تعصب لمعتقدات ذاتية فلسفية أو دينية . ان انتمـاء الجماهير لايديولوجيا معينة أو عـدم انتمائها لها هو الطريقة التي يتم من خلالها النقـد الحقيقي لعقلانية وتاريخية طرق التفكير . ان الابنيـة الاختباريـة سرعان ما تنهار في ميدان التنافس التاريخي ، رغـم أنها ـ في حالات معينة ونتيجة لتداخل ظروف مباشرة مواتية ـ تنجح في التمتع بشعبيـة واسعة ، في حـين أن الابنية المتوافقة مع متطلبات مرحلة تاريخية معقدة وعضوية تنتهي دوما الى فرض نفسها والى الانتصار حتى ولو مرت بمراحل كثيرة وسطى لا تستطيع خلالها تثبيت أقدامها الا من خلال معادلات غريبة وشاذة عن المألوف .

كل هذا يطرح عدة مشاكل أهمها يختصر فـي طريقة ونوعية العلاقات بين مختلف الشرائح الثقافية المؤهلة ، أي في الاهمية والوظيفة التي يجب ويمكن أن تكون للمساهمة الابداعية للمجموعات الاعلى بالعلاقة مع القدرة العضوية

لنقاش وتوضيح المفاهيم الجديدة النقديةعند الشرائحالفكرية التابعة . أي أن الامر يتعلق بتحديد حدود حرية المناقشة والدعاية ، وهذه الحرية يجب ألا تفهم بالمعنى الاداري أو البوليسي بل بمعنى الحد الذاتي الذي يفرضه القادة على نشاطهم ، وبمعنى أدق : تحديد اتجاه للسياسة الثقافية . وبكلمات أخرى : من يحدد « حقوق العلم » وحدود البحث العلمي ، وهل يمكن لهذه الحقوق وهذه الحدود أن تحدد فعلا ؟ يبدو من الضروري اطلاق حرية العمل في البحث عن الحقائق الجديدة ، وعن الصيغ الافضل والاكثر انسجاما ووضوحا لهذه الحقائق ، أمام المبادرة الحرة لكل من العلماء، حتى وان استمر هؤلاء العلماء في اعادة طرح مناقشة المباديء التي تبدو أساسية جدا . ولن يكون من الصعب عندئذ معرفة وتوضيح متى تكون مبادرات المناقشة هذه منطلقة من أسباب مصلحية غير ذات طابع علمي . ولن يكون مستحيلا التفكير في ضبط وتنظيم هذه المبادراتبحيث تمر على موافقة أكاديميات ومؤسسات ثقافية متعددة الانواع ، ولا تصبح عامة الا بعد أن يتم اختيارها من ناحية الصلاحية .. الخ .

قد يكون من المثير للاهتمام القيام بدراسة جدية ، في بلد معين ، حول التنظيم الثقافي الذي يحرك العالم الايديولوجي ، ودراسة عمله التطبيقي . وكذلك ، فان من المفيد اجراء دراسة حول النسبة العددية للعاملين مهنيا بانكباب في الميدان الثقافي بالنسبة الى عدد السكان في عدد من البلدان الافرادية ، مع حساب تقريبي للقوىالحرة. ان المدرسة ، بمراحلها المختلفة ، والكنيسة ، هما المنظمتان الثقافيتان الاكبر العاملتان في أي بلد ، حسب عدد العاملين فيهما . ثم هنالك الصحف والمجلات ودور النشر والمكتبات والمؤسسات المدرسية الخاصة ، سواء منها المكملة لمدارس

الدولة أم تلك المؤسسات الثقافية الاخرى مثل الجامعات الشعبية . وهناك مهن أخرى تمارس في نشاطاتها الاختصاصية عملا ثقافيا لا يغض النظر عنه ، كالاطباء وضباط الجيش والقضاء . ولكن لا بد من الملاحظة أن هنالك ، في كل البلدان ، وان بمقاييس ودرجات مختلفة ، انقساما هائلا بين الجماهير الشعبية والمجموعات الفكرية ، بما فيها تلك المجموعات الاكثر عددا والاقرب الى الضواحي، كالمعلمين والكهنة . ويلاحظ أيضا أن هذا الانقسام يحصل لانه ليس للدولة مفهوم وحدوي ، متناسق ومنسجم ، حتى عندما يؤكد الحكام ذلك لفظا ، مما يجعل المجموعات الفكرية مفككة بين شريحة وشريحة أو حتى داخل الشريحة الواحدة. والجامعة ، باستثناء جامعات بعض البلدان ، لا تمارس أي دور توحيدي ، وكثيرا ما يكون لمفكر حر تأثير أكثر من كل المؤسسات الجامعية ... الخ .

وبمناسبة الكلام عن الوظيفة التاريخية للمفهوم القدري للفلسفة الاجرائية من الممكن القاء خطاب تأبيني للاشادة بهذا المفهوم وتوضيح فائدته **لمرحلة تاريخية معينة** ، وهذا بالذات ما يستدعي دفنه محاطا بكل سمات الاجلال والاحترام . ويمكن مقارنة وظيفة هذا المفهوم بوظيفة نظرية العناية الالهية والمصيرية (٢٣) في بداية العالم الحديث التي توجت فيما بعد بالفلسفة الكلاسيكية الالمانية وبمفهومها للحرية

---

(٢٣) هذه النظرية تخص الحركة البروتستانتية التي ترتقي بفكرها هذا الى القديس « آغوستينو » ، وهي تقول بان كل انسان يولد وقد تقرر مصيره سلفا ، فينقذ ان مسته العناية الالهية ، ويدان ان لم تفعل . ويقول غرامشي ان هذه النظرية وجدت في بداية العالم الحديث لان حركة الاصلاح هي احدى السبل التي عبر من خلالها الفكر البورجوازي الحديث الذي توج بفلسفة هيغل .

كوعي للضرورة (٢٤) ، فقد كانت هـــي البديلة الشعبيـــة لصيحة « هذا ما شاءه الله » ، وحتى على هـــذا المستوى البدائي والابتدائي كان هذا بداية لمفهوم أكثر عصرية واثمارا من ذلك المفهوم المحتوى في كلمة « هذا ما شاءه الله » أو في نظرية العناية الالهية . هل يمكن أن يظهر مفهوم جديد، « من الناحية الشكلية أو الصيغية » ، بلبوس غـــير لبوس الخشونة والفجاجة عند العامة ؟ على العموم ، ان المؤرخ، بكل المنظور الضروري ، يستطيع أن يحدد ويفهم أنالبدايات لعالم جديد لا بد وأن تكون مرة وصعبة المذاق ، فهيمتفوقة على انحطاط عالم وصل مرحلة النزع الاخير ، وعلى أغاني الحزن التي يولدها .

---

(٢٤) راجع الهامش رقم (٣) في موضوع « في البحث عن المبـدأ التربوي » .

مسائل فلسفية وتاريخية (*)

المناقشة العلمية : في طـرح المشاكل التاريخية ـ النقدية يجب ألا تفهـم المناقشة العلمية وكأنهـا محاكمـة قانونية ، فيها متهم ونائب عام عليه ، بموجب وظيفته ، أن يثبت ادانة المتهم وأنه يستحق ازالته مـن الطريق . فـي المناقشة العلمية ، ونظرا لافتراض كون الاهمية الاولى هي للبحث عن الحقيقة والتقدم العلمي ، فان الاكثر « تقدما » هو من يطرح على نفسه وجهة النظر القائلة أن الخصم يمكنه أن يعبر عن حاجة لا بد من ادخالها ، ولو كلحظة تابعة ، في البناء المطلوب . ان الفهم والتقييم الواقعي لموقـع وحجـج الخصم (وأحيانا يكون الخصم هو كل فكر الماضي) يعنـي التحرر من سجن الايديولوجيات (بالمعنى الانحطاطي للتعصب الايديولوجي الاعمى) ، أي وضع النفس في موقع وجهـة النظر « النقدية » ، وهـي وجهـة النظر الوحيدة للبحث العلمي .

---

* من « المادية التاريخية » .

الفلسفة والتاريخ : ماذا يجب أن نفهم من كلمة « فلسفة » ، ومن تعبير « فلسفة المرحلة التاريخية » ،وما هي أهمية ومعنى فلسفات الفلاسفة في كل من هذه المراحل التاريخية ؟ اذا أخذنا في الاعتبار التعريف الذي يعطيه ب . كروتشي للدين ، أي كونه مفهوما للعالم أصبح قاعدة للحياة ، ولان قاعدة الحياة لا تفهم من المنطلق الحر بل كممارسة للحياة العملية ، فان أكثرية الناس هم فلاسفة باعتبارهم يمارسون عمليا ، وممارستهم العملية (في الخطوط الموجهة لسلوكهم) محتواة ضمنا في مفهوم معين للعالم . ان تاريخ الفلسفة بالمفهوم السائد ، أي كتاريخ لفلسفات الفلاسفة ، هو تاريخ المحاولات والمبادرات الايديولوجية لطبقة معينة من الناس بهدف التغيير والتصحيح والوصول الى الكمال بمفاهيم للعالم قائمة في كل مرحلة معينة ، وبالتالي لتغيير قواعد السلوك المتلازمة معها ، أو بالاحرى لتغيير النشاطات العملية بكاملها .

من وجهة النظر التي تهمنا لا تكفي دراسة تاريخ ومنطق الفلسفات المختلفة للفلاسفة . وعلى الاقل كاتجاه منهجي ، يجب تركيز الانتباه على أقسام أخرى من تاريخ الفلسفة ، أي على مفاهيم العالم عند الجماهير الواسعة ، وعند المجموعات الاضيق للقادة (أو المفكرين) ،وأخيرا على الروابط بين مختلف هذه المجموعات الثقافية وفلسفات الفلاسفة . ان فلسفة عصر ما ليست فلسفة هذا الفيلسوف أو ذاك ، أو فلسفة هذه المجموعة من المفكرين أو تلك ، أو فلسفة هذا الجزء من الجماهير الشعبية أو ذاك ، انها خليط من كل هذه العناصر ينتهي الى اتجاه معين ، يصبح قاعدة للعمل الجماعي ، أي يصبح « تاريخا » ملموسا وكاملا (متكاملا) .

اذن ، فلسفة مرحلة تاريخية ما ليست الا «تاريخ»

تلك المرحلة ، ليست الا مجموع المتغيرات التي نجحت مجموعة القيادة في تحقيقها في الواقع الماضي . والفلسفة والتاريخ أمران لا ينفصل أحدهما عن الآخر في هذا المعنى، اذ أنهما يشكلان « كتلة » متماسكة . ولكن ، يمكن ملاحظة « التمايز » في العناصر الفلسفية بالذات ، وفي درجاتها المختلفة ، أي كفلسفات فلاسفة ، وكمفاهيم للمجموعات القيادية (ثقافة فلسفية) وكديانات للجماهير الواسعة ، ورؤية كيف يمكن الحصول في كل من هذه الدرجات على صيغ مختلفة من « الخلائط » الايديولوجية .

الاهمية التاريخية لفلسفة ما : أبحاث ودراسات كثيرة حول المعنى التاريخي للفلسفات المختلفة بقيت عقيمة كليا لانها لم تأخذ في حسابها حقيقة كون الكثير من الانظمة الفلسفية هي تعابير فردية بحتة (أو تكاد) ، وأن الجزء منها الذي يمكن تسميته تاريخيا غالبا ما يكون ضئيلا وغارقا في مجموعة تجريدات ذات أصل عقلاني ومجرد بحت . ويمكن القول أن القيمة التاريخية لفلسفة ما يمكن أن « تحسب » من خلال الفعالية « التطبيقية » التي كسبتها (و « تطبيقية » يجب فهمها بالمعنى الواسع لها) (١) . واذا كان صحيحا أن كل فلسفة هي تعبير عن مجتمع ، اذن لا بد لها من التأثير على المجتمع ، وتوليد نتائج معينة ، ايجابية وسلبية . ومقياس تأثير الفلسفة في المجتمع هو مقياس وزنها التاريخي ، ومقياس عدم كونها « جهدا مضنيا » فرديا ، بل « حقيقة تاريخية » .

الفيلسوف : استنادا الى مبدأ كون كل الناس

---

(١) راجع فيما بعد الفقرة المعنونة « البراغماتية والسياسة » .

« فلاسفة » ، أي الى كون الاختلاف بين الفلاسفة المتهنين أو « التقنيين » والناس الآخرين ليس اختلافا « نوعيا » بل هو اختلاف « كمي » فحسب (و « كمية » في هذه الحالة تحمل معنى خاصا يجب الا يجري الخلط بينه وبين المجموع الحسابي لانه يشير الى الزيادة أو النقصان في «الانسجام» و « التماثل » و « المنطقية » .. الخ ، أي انها كميـة مـن العناصر النوعية) ، وعلى العموم لا بد من رؤية حقيقة هذا الفارق . وهكذا لا يمكن أن نسمي كل اتجاه للتفكير أو ميل عام « فلسفة » ، ولا أن نسمي « فلسفة »كل مفهوم للعالم. قد يمكننا أن نسمي الفيلسوف « عاملا مختصا » بالمقارنة مع العامل اليدوي . ولكن هذا غير صحيح أيضا لان هنالك في الصناعة ، الى جانب العامل اليدوي والعامـل المختص ، المهندس أيضا ، الذي لا يقتصر على معرفة المهنة تطبيقا بل يعرفها نظريا وتاريخيـا . الفيلسوف المتهن أو التقنـي لا يكتفي بـ « التفكير » بدقة منطقية ، وبانسجام ، وبروحية منظمة أكثر من الآخرين ، بل هو يعرف كل تاريخ الفكر ، أي أنه يستطيع أن يعطي سببا للتطور الذي سار فيه الفكـر حتى وصل اليه ، ويستطيع استعادة المشاكل من النقطـة التي هي موجودة فيها بعد أن مرت بأقصى محاولات الحل.. الخ . ان له في ميدان الفكر نفس الوظيفة التـي هـي للاخصائيين في الميادين العلمية الاخرى .

وعلى العموم ، هناك فارق بين الفيلسوف الاخصائي والاخصائيين الآخرين ، هو أن الفيلسوف الاخصائي يقترب من الاشخاص الآخرين أكثر مما يفعل بقيـة الاخصائيين . وجعل الفيلسوف الاخصائي شخصا مثيلا ، فـي العلـم ، للاخصائيين الآخرين هو مـا طـرح الصورة الكاريكاتورية للفيلسوف . في الواقع يمكننا تصور وجود عالم مختص بعلم الحشرات دون أن يكون بقية الناس علماء تجريبيين في علم

الحشرات ، ويمكننا تصور وجود عالم في المثلثات دون أن يكون أكثرية الآخرين مهتمين بعلم المثلثات .. الخ (هنـــاك علوم غاية في التخصص والدقة والضرورة ، ولكنها ليست لذلك « عامة ») ، ولكن لا يمكننا التفكير بأي شخص ليس فيلسوفا ، شخص لا يفكر ، اذ أن التفكير هو من خصائص الانسان كانسان (الا اذا كان ذو غباء مرضي) .

اللغة التعبيرية ، واللغات ، والرأي السائد : فيـــم يكمن امتياز ما يسمى بـــ « الرأي السائـــد » أو « الـــرأي الصائب » ؟ ليس فقط في كون الرأي السائد يوظف ، ولو ضمنا ، مبدأ السببية ، ولكن بمعنى أكثر ضيقا ، بحيث أن **الرأي السائد يعرف ، في سلسلة مـــن** الاحكام ، السبب الصحيح ، ببساطة وعلى قدر متناول اليد ، دون أن يؤخذ بالخيالات والاوهام الميتافيزيقية ، المزيفة العمق ، والعلمية زيفا .. الخ . ولم يكن من الممكن عدم الاشادة بـــ «الرأي السائد » في القرنين السابع عشر والثامن عشر عندمـــا تجلت ردة الفعل على التوراة وعلى أريسطو . فقد اكتشف في الواقع ان في « الرأي السائد » بعضا من «التجريبية» ومن المراقبة المباشرة للواقع ، وان كانت هـــذه المراقبـــة تجريبية ومحدودة . وحتى اليوم ، وفي علاقات مماثلة ، ما زال يحكم بامتياز الرأي السائد ، وان كانت الاحوال قـــد تغيرت ، وصار لـــ « الرأي السائد » الحالي حدودا أكثـــر ضيقا في احترامه الداخلي .

اذا أخذت الفلسفة كمفهوم للعالم ، والعمل الفلسفي لا كمعالجة « فردية » فحسب للموضوعات المنسجمة ، بل ـــ وخصوصا ـــ كنضال ثقافي لتغيير « العقلية » الشعبية ونشر التجديدات الفلسفية التي ستبدو « صحيحة تاريخيا » من حيث كونها ستصبح بالملموس ، أي تاريخيا واجتماعيا، **حقائق كونية ، اذا أخذت كل هذه الامور فـــي** الاعتبار ، لا

بد من طرح مسألة اللغة التعبيرية واللغات من الناحية « التقنية » على بساط البحث في الدرجة الاولى . وعندئذ لا بد من مراجعة كل ما نشره البراغماتيون حول الموضوع.

في حالة البراغماتيين ، كما بشكل أعم فيما يتعلق بأية محاولة للتنظيم العضوي للفلسفة ، ليست الاشارة الى مجموع النظام أو الى جوهره الاساسي . يبدو لي أنه يمكن القول أن مفهوم اللغة التعبيرية عند فايلاتي والبراغماتيين الآخرين غير مقبول بتاتا . ويبدو أن هؤلاء البراغماتيين شعروا بحاجة حقيقية فـ « وصفوها » بدقة تقريبية ،وان يكونوا لم ينجحوا في الطرح الصحيح للمشاكل واعطائها الحلول اللازمة . وقد يمكن القول أن « اللغة التعبيرية » هي أساسا اسم جماعي ، لا يفترض أمرا « فريدا » لا في مجال الزمن ولا في مجال الابعاد . فاللغة التعبيرية تعني أيضا الثقافة والفلسفة (حتى وعلى مستوى الرأي السائد) ، والواقع أن « اللغة التعبيرية » هي العديد من الحقائق المنسجمة والمنسقة عضويا الى حد ما . وفي أقصى الحالات يمكن القول أن كل انسان ناطق له لغته التعبيرية الشخصية ، أي طريقته في التفكير وفي الشعور . الثقافة، بدرجاتها المختلفة ، توحد كمية ، كبيرة أو صغيرة ، من الافراد الذين ينتمون الى شرائح متعددة هي الى حد ما على علاقة تعبيرية ، تتفاهم فيما بينها .. الخ . هذه الفوارق والتمايزات التاريخية ــ الاجتماعية هي التي تنعكس على اللغة التعبيرية العامة وتنتج تلك « العقبات » و « أسباب الاخطاء » التي عالجها البراغماتيون .

من هذا تستنتج الاهمية التي لـ « اللحظة الثقافية » حتى في النشاط العملي (الجماعي) ، فكل حدث تاريخي لا بد أن يكون نتاجا لعمل « الانسان الجماعي » ، أي أنه يفترض أساسا الوصول الى الوحدة « الثقافية ــ

الاجتماعية » التي تتماسك من خلالها أعداد كبيرة من الارادات الموزعة ، ذات الاهداف المتباينة ، فتصبح هدفا واحدا مبنيا على أساس مفهوم للعالم متماثل وشامل (عام وخاص ، وفاعل — عاطفيا — بشكل انتقالي أو دائم ، قاعدته الفكرية عميقة وجذرية ومعاشة الى الحد الذي تصبح معه نوعا من الشغف) . ونظرا لان هذا يحصل فعلا ، تبدو هناك أهمية كبرى لمسألة اللغة التعبيرية عموما ، أي للوصول الجماعي الى نفس « المناخ » الثقافي .

هذه المشكلة يمكن ، ويجب ، تقريبها من الطرح الحديث للمباديء وللتطبيقات التعليمية القائلة بأن العلاقة بين المعلم والتلميذ يجب أن تكون علاقة ناشطة ، وعلاقة تفاعل متبادل ، بحيث يكون المعلم تلميذا دائما والتلميذ معلما دائما . ولكن الرابطة التعليمية لا تقتصر دوما على العلاقات « المدرسية » المحددة التي تتصل الاجيال الجديدة من خلالها بالاجيال القديمة فتتشرب الخبرات والقيم التاريخية والثقافية الاسمى . هذه العلاقة قائمة في المجتمع ككل ، وبين كل فرد وفرد آخر فيه ، وبين فئات المفكرين وغير المفكرين ، وبين الحكام والمحكومين ، وبين النخبة والتابعين ، وبين القادة والمقودين ، وبين الطلائع وقطاعات الجيش. كل علاقة فيها نوع من أنواع « الهيمنة » هي علاقة تعليمية بالضرورة ، ولا تتولد هذه العلاقة ضمن محيط الامة والقوى المختلفة المشكلة لها فحسب ، بل أيضا في الميدان الدولي والعالمي ، بين مجموعات الحضارات القومية والقارية .

وبهذا يمكن القول ان الشخصية التاريخية للفيلسوف الفرد هي أيضا نتاج للعلاقة الايجابية بينه وبين المحيط الثقافي الذي يريد تغييره ، هذا المحيط ، الذي يؤثر على الفيلسوف ويجبره على نقد ذاتي دائم ، يقوم بوظيفة « المعلم » . ومن هنا كانت أعظم الابداعات التي نسبتها

الفئات المفكرة الحديثة الى نفسها في الميدان السياسي هي ما يسمى « حرية التفكير والتعبير عن الفكر « الصحافة والنشر والاجتماع) » ، وفقط حيث يوجد هذا الشرط السياسي تتحقق العلاقة المعلم ــ التلميذ بالمعنى الاوسع المذكور أعلاه ، ويوجد في الواقع ، و « تاريخيا » ، النوع الجديد للفيلسوف الذي يمكن تسميته « الفيلسوف الديمقراطي » ، أي الفيلسوف المقتنع بأن شخصيته لا تقتصر على وجوده الفردي الجسدي ، بل هو علاقة اجتماعية ناشطة لتغيير المحيط الثقافي . وعندما يرضى « المفكر » بتفكيره الخاص، الحر «ذاتيا»، أي الحر تجريديا يصبح مجالا للزيف والاحتيال ، فالوحدة بين العلم والحياة هي وحدة ناشطة ، فيها فقط تتحقق حرية التفكير ، انها علاقة المعلم بالتلميذ ، وعلاقة الفيلسوف بالمحيط الثقافي الذي يعمل في اطاره والذي يأخذ منه المشاكل التي يجب طرحها وحلها ، أي العلاقة بين الفلسفة والتاريخ .

ما هو الانسان ؟ هذا هو السؤال الاول والرئيسي في الفلسفة . كيف تمكن الاجابة على هذا السؤال ؟ يمكن العثور على التعريف في الانسان نفسه ، أي في كل انسان فرد . أهذا صحيح ؟ في كل انسان فرد يمكن العثور على ماهية كل « انسان فرد » . ولكن لا تهمنا نحن ماهية الانسان الفرد في كل انسان بمفرده . اذا فكرنا وجدنا أننا بطرح سؤال « ما هو الانسان ؟ » ، على أنفسنا ، نريد أن نقول : ماذا يمكن للانسان أن يصبح ، أي اذا كان يمكن أن يتحكم بمصيره ، أو أن « يصنع نفسه » ، أو يخلق لنفسه حياة . اذن ، لنقل ان الانسان عملية تطور ، وهو بالتحديد عملية تطور أفعاله . اذا فكرنا وجدنا أن نفس السؤال «ما هو الانسان ؟ » ليس سؤالا مجردا أو « موضوعيا » ، فهو ناشيء عن تأملنا بأنفسنا وبالغير ، ونحن نريد أن نعرف ،

بالعلاقة بما تأملنا ورأينا ، من نحن ، وماذا نستطيع أن نصبح لو كنا حقيقة وضمن حدود معينة « حدادي أنفسنا » (بمعنى « صانعي أنفسنا ») ، وحياتنا ، ومصيرنا . واننا نريد معرفة هذا كله « اليوم » ، في الشروط القائمة اليوم للحياة « الحاضرة » وليس لاية حياة ولاي انسان .

يولد هذا السؤال ، ويتخذ محتواه، من مناهج خاصة، أي معينة ، لاعتبار الحياة والانسان ، أهم هذه المناهج هو منهج الدين ، ودين معين هو الكاثوليكية . في الواقع ، لنسأل أنفسنا : « ما هو الانسان ؟ » ، ما مقدار أهمية ارادته ونشاطه الملموس في خلق نفسه والحياة التي يحيا ؟ نريد القول : « هل الكاثوليكية مفهوم صحيح للانسان وللحياة ؟ وهل نخطيء بكوننا كاثوليكيين ، أي بجعلنا من الكاثوليكية قاعدة للحياة ، أم أننا على صواب ؟ » . ان عند الجميع حدس كامن بأنهم يخطئون بجعلهم الكاثوليكية قاعدة للحياة والدليل على هذا أن ما من أحد يلتزم بالكاثوليكية كقاعدة للحياة رغم اعلان نفسه كاثوليكيا . ان الكاثوليكي الحقيقي ، أي من يطبق قواعد الكاثوليكية في كل ما يفعل في حياته ، يبدو أشبه بالوحش . وبالتفكير العميق ، هذا هو النقد الاكثر تشددا والاكثر جزما للكاثوليكية .

قد يزعم الكاثوليك أن ما من مفهوم للحياة يتبع بحذافيره ، وهم على حق في زعمهم هذا . ولكن هذا يدل في الواقع ، وتاريخيا ، على أن ليست هنالك طريقة وحيدة للفهم والعمل متماثلة عند كل الناس ، وليس هناك سبب لتكون الكاثوليكية كذلك ، رغم أن طريقتها في الفهم والعمل نظمت منذ قرون بهذا الهدف ، وهو ما لم يحصل كذلك لاي دين آخر بنفس الوسائل وبنفس روحية التنظيم وبنفس الاستمرارية والمركزية . من وجهة نظر « الفيلسوف » ، الامر غير المرضي في الكاثوليكية هو أنها ، رغم كل شيء ،

تضع سبب الشر في الانسان الفرد نفسه ، أي أنها تفهم الانسان كفرد مكتمل التحديد . ويمكن القول أن كل الفلسفات التي وجدت حتى الآن تنقل هذا الموقف عن الكاثوليكية ، أي أنها تفهم الانسان كفرد محدود في فرديته وتفهم الروح بكونها هذه الفردية . وحول هذه النقطة لا بد من اصلاح مفهوم الانسان ، أي يجب فهم الانسان كسلسلة من العلاقات الناشطة (عملية تطور) التي اذا كان للفردية فيها الاهمية القصوى فهي ليست العنصر الوحيد الذي يجب أخذه في الاعتبار . ان الانسانية التي تنعكس في كل فردية تتألف من عناصر مختلفة : ١ ــ الفرد ٢ ــ الآخرون ٣ ــ الطبيعة . وليس العنصران الثاني والثالث بالبساطة التي يبدوان عليها . فالانسان الفرد لا يدخل في علاقة بالآخرين كتوضع تراكمي ، بل يدخل في هذه العلاقة عضويا باعتباره يدخل كجزء مشارك في أجسام تتراوح بين الاكثر بساطة والاكثر تعقيدا . وكذلك ، فالانسان لا يدخل في علاقته بالطبيعة فقط لكونه هو نفسه طبيعة ، بل يدخل في هذه العلاقة بشكل فاعل من خلال العمل والتقنية . وأيضا : هذه العلاقات ليست علاقات ميكانيكية ، انها علاقات ناشطة وواعية ، أي انها تتناسب مع الدرجة الاعلى أو الادنى من الذكاء الذي يتمتع به الانسان الفرد . وبذلك يمكن القول أن كل انسان يغير نفسه ، ويتحول ، بالدرجة التي يتغير ويتحول فيها مجموع العلاقات التي هو مركز تجمعها . بهذا المعنى يكون الفيلسوف الحقيقي ، ولا يمكنه الا أن يكون ، هو السياسي ، أي الانسان الناشط الذي يغير المحيط ، عندما نعني بالمحيط مجموع العلاقات التي يدخل كل انسان فرد ليصبح جزءا منها . واذا كانت الفردية الذاتية هي مجموع هذه العلاقات ، فان تكوين الانسان للشخصية يعني اكتساب الوعي بهذه

العلاقات ، وتغيير الشخصية الذاتية يعني تغيير مجموع هذه العلاقات .

ولكن ، وكما قلنا ، هذه العلاقات ليست علاقات بسيطة . وعلى العموم ، فان بعض هذه العلاقات ضروري وبعضها الآخر اختياري . واضافة الى ذلك ، فان وعي هذه العلاقات بعمق قليل أو كثير (أي المعرفة ، القليلة أو الكثيرة ، للطريقة التي يمكن بها تغيير هذه العلاقات) يقوم بتعديلها . حتى العلاقات الضرورية تغير مظهرها وأهميتها بمجرد معرفة ضروريتها . وبهذا المعنى تصبح المعرفةقوة. ولكن تعقيد المشكلة ينبع من مظهر آخر أيضا هو أنه لا تكفي معرفة مجموع العلاقات كوجود في لحظة معينة وكنظام معين ، بل من المهم معرفة هذه العلاقات من ناحية تاريخ تطورها الوراثي ، وحركة تكونها ، لان كل انسان فرد لا يقتصر على كونه مركبا من العلاقات القائمة بل أيضا من تاريخ هذه العلاقات ، أي أنه اختصار لكل الماضي . قد يقال أن ما يستطيع الانسان الفرد تغييره قليل جدا بالعلاقة مع قوته . ان هذا القول صحيح الى حد ما ، اذ أن الانسان الفرد يستطيع التجمع مع كل أولئك الذين يسعون الى التغيير نفسه ، واذا كان هذا التغيير عقلانيا يستطيع الانسان الفرد ان يتكاثر مرات عديدة ، وان يحقق تغييرا اكثر جذرية بكثير مما يبدو ممكنا للوهلة الاولى .

ان المجتمعات التي يمكن للانسان الفرد أن يشارك فيها كثيرة العدد ، وأكثر مما يمكن أن تبدو . ومن خلال هذه « المجتمعات » يصبح الفرد جزءا من الجنس البشري . وكذلك فان الطرق التي يستطيع الفرد أن يدخل بواسطتها في علاقة مع الطبيعة متعددة ، لان كلمة التقنية هنا لا تعني

مجموع الافكار العلمية المطبقة صناعيا فحسب ، وهو ما يراد عادة بالكلمة ، بل تعني أيضا الادوات « الذهنية » والمعرفة الفلسفية .

ان من المتعارف عليه أن الانسان لا يستطيع أن يفهم نفسه الا على أساس كونه انسانا يعيش في مجتمع ،ورغم ذلك فان الاقرار بهذا الواقع لا يدفع الى استخراج كافة الاستنتاجات الضرورية ، وحتى الفردية منها . ان وجود مجتمع انساني معين يحتم وجود مجتمع معين للاشياء ، وان وجود المجتمع الانساني يصبح ممكنا فقط بوجود مجتمعمعين للاشياء ، وهذا أمر متعارف عليه أيضا . وصحيح انهأعطي لهذه التشكيلات فوق الفردية معنى ميكانيكي وجبري ، ومن هنا تأتي ردة الفعل : يجب وضع عقيدة تكون فيها كافةهذه العلاقات ناشطة ومتحركة ، مع التحديد الواضح للمركز الذي يحتله في هذا النشاط وعي الانسان الفرد الذييعرف، ويريد ، ويعجب بالاشياء ، ويبدع .. الخ ، ويفعل كل هذا لانه فعله دوما قبل ذلك ، والذي لا يفهم نفسه انسانا معزولا بل انسانا غنيا بالامكانات التي يمنحه اياها الآخرون ويمنحه اياها مجتمع الاشياء الذي لا بد أن تكونله بهمعرفة ما (كما أن كل انسان فيلسوف ، كل انسان عالم ..الخ) .

ان قول فويرباخ (٢) : « الانسان هو ما يأكل » يمكن أن يؤخذ ويفسر تفسيرات مختلفة . التفسير الهزيلوالاحمق يقول بأن الانسان هو ما يأكل ماديا مرة بعد أخرى ، ويعني أن للاغذية تأثيرها المباشر والمحدد على طريقة التفكير .

---

(٢) فيلسوف الماني من رواد ما يسمى بـ « اليسار الهيغلي » (١٨٠٤ - ١٨٧٢) .

ولنذكر هنا بقول آماديو أنه اذا عرفنا مثلا ما أكله انسانما قبل القاء محاضرته استطعنا تفسير المحاضرة بشكل أفضل. هذا القول أشبه بأقوال الاطفال ، وهو ، في الواقع ،غريب عن العلم الايجابي ، لان الدماغ لا يغذى بالفول أو الفطر ولكن الاطعمة تعمل على اعادة بناء جزئيات الدماغ بتحولها الى مواد متجانسة قابلة للامتصاص ، أي هي من « ذات طبيعة » الجزئيات الدماغية . ولو كان هذا القول ، قول آماديو ، صحيحا لكان المطبخ هو دليل التاريخ المؤكد ، ولتوافق اندلاع الثورات زمنيا مع التطورات الجذرية التي تطرأ على الاطعمة الشعبية . العكس هو الصحيح تاريخيا، أي أن الثورات ومجموع التطور التاريخي هما اللذان غيرا الاطعمة وخلقا « الاذواق » المتتابعة في اختيارها . ليس بذار الحنطة باستمرار هو ما أدى الى توقف حياة البداوة ، بل العكس هو الصحيح ، فالشروط التي وجدت مضادة لحياة البداوة هي التي دفعت الى البذار الدوريوالمستمر.. الخ (٣) .

ومن ناحية أخرى ، صحيح القوة بأن « الانسان هو ما يأكل » باعتبار أن التغذية هي احدى تعابير العلاقات الاجتماعية بمجموعها ، وكل تجمع اجتماعي له غذاؤه الاساسي ، ولكن بنفس الطريقة يمكن أن يقال أن «الانسان هو ما يلبس » و « الانسان هو ما يقطن » و « الانسان هو طريقته الخاصة في التوالد » أي « الانسان هو عائلته » ، لان الطعام واللباس والبيت والتوالد هي عناصر الحياة

---

(٣) قول فويرباخ هذا برز عام ١٩٣٠ بشدة في ايطاليا ، وبتفسيراته المنحطة ، خلال حملات لتغيير نوع الغذاء ، وضد أو مع الاستخدام المكثف لانواع المكرونة ، نتيجة للازمة الاقتصادية العالمية .

الاجتماعية التي تبرز من خلالها العلاقات الاجتماعية بالشكل الاكثر وضوحا والاكثر انتشارا (أي باتساع جماهيري) .

اذن ، فمسألة ماهية الانسان هي دوما ما يسمى بمسألة « الطبيعة الانسانية » أو هي أيضا ما يسمى بمسألة « الانسان عموما » ، أي البحث عن ايجاد علم للانسان (فلسفة) ينطلق من مفهوم « وحدوي » في البداية ، من تجريد يمكنه أن يحتوي كل ما هو « انساني » . ولكن ، هل « الانساني » نقطة انطلاق أم نقطة وصول كمفهوم وواقع وحدوي ؟ ثم ، أو لن يكون هذا البحث من بقايا « علم اللاهوت » و « الميتافيزياء » اذا ما اعتبر نقطة للانطلاق ؟ لا يمكن النزول بالفلسفة الى مستوى « الانتربولوجيا » الطبيعوية ، أي أن وحدة الجنس البشري ليست نتيجة للطبيعة « الجيولوجية » للانسان ، فالفوارق الانسانية التي يعتمد عليها التاريخ ليست هي الفوارق البيولوجية (كالاجناس ، وتشكل الجمجمة العظيمة ، ولون البشرة .. الخ ، وهو ما ينزل اليه القول : « الانسان هو ما يأكل » — فهو يأكل القمح في أوروبا والرز في آسيا .. الخ — وما يمكن في انحطاطه أن يصل الى « الانسان هو البلد الذي يقطنه » نظرا لان الجزء الاكبر من طعام الانسان مرتبط بالارض التي يعيش عليها) ، ولم تكن «الوحدة البيولوجية» أبدا ذات شأن عظيم في التاريخ (فالانسان هو ذلك الحيوان الذي أكل نفسه عندما كان أقرب ما يكون الى « الحالة الطبيعية » ، أي عندما لم يكن يتمكن من مضاعفة انتاج الطبيعة « اصطناعيا ») . ولم تكن كذلك « القدرة على استخدام العقل » ، أو « الروح » ، هي ما خلق الوحدة وما يمكن الاعتراف به كواقع « وحدوي » ، لانه مفهوم شكلي محسب ، فئوي . ولم يكن « الفكر » كذلك ، بل هو كل ما يوحد ويفرق الاشخاص في الواقع .

القـــول بأن « الطبيعـــة الانسانيـــة » هي « مجمـــوع العلاقات الاجتماعية » ، هو الجواب الاكثر مدعاة للرضى، لانه يتضمن فكرة الصيرورة ، فالانسان يصير ، أو يصبح ، انه يتغير باستمرار مع تغير العلاقات الاجتماعية، ولانهينكر فكرة « الانسان العام » . وفي الواقع ، يجري التعبير عن العلاقات الاجتماعية لدى مختلف المجموعات الانسانية عبر افتراضات متبادلة تصبح وحدتها ديالكتيكية ، لا شكليـــة . الانسان اريستوقراطي باعتباره خادما للارض .. الـــخ . ويمكن أيضا القول أن طبيعة الانسان هي « التاريخ » اذا ما أعطي لكلمة التاريخ معنـــى الصيرورة ، فـــي « توافق كلامي » لا ينطلق من الوحدة ، ولكنه يحمل في صلبهأسباب الوحدة المستحيلة ، ولذلك فان « الطبيعـــة الانسانية » لا يمكن أن توجد في أي انسان معين بل فـــي مجموع تاريـــخ الجنس الانساني (واستعمال كلمة « جنس » ذات السمة المتعلقة بالطبيعة ـــ الاجناس الحيوانية ، النباتية ـــ لـــــه مدلوله الفوري) ، في حين توجد في كل انسان فرد سمات يبرزها تناقضها مع سمات موجودة لدى الآخرين . انمفهوم « الروح » عند الفلسفات التقليديـــة ، كمفهوم « الطبيعـــة الانسانية » الموجود في البيولوجيا ، مفاهيم يجب تفسيرها على أساس « الطوباويات العلميـــة » التـــي حلت محـــل الطوباوية الاكبر لـــ « الطبيعة الانسانية » المبحوث عنهـــا في الرب (والناس أبناء الرب !) وتخدم في التدليل علـــى القلق المستمر في التاريخ ، والطموح العقلاني والعاطفي.. الخ . صحيح أنه سواء الاديان التي أكدت المساواة بـــين الناس كأبناء للرب ، أم الفلسفات التي أكدت المساواةبينهم كمشاركين في « القدرة على استخدام العقل » ،كانتتعبيرا عن حركات ثورية معقدة (تحول العالم القديم ـــ تحول عالم العصور الوسطى) مثلـــت الحلقات الاقوى فـــي التطور التاريخي .

ان كون الديالكتيكية الهيغلية هي آخر انعكاس لهذه العقد التاريخية الكبرى ، وكون الديالكتيكية انتقلت من كونها تعبيرا عن التناقضات الاجتماعية وأصبحت — باختفاء هذه التناقضات — ديالكتيكية مفاهيمية بحتة ، هو في أساس الفلسفات الاخيرة المستندة الى الطوباوية ، مثل فلسفة بينيديتو كروتشي .

في التاريخ ، « المساواة » الحقيقية ، أي درجة « الروحية » التي وصل اليها التطور التاريخي لـ «الطبيعة الانسانية » ، هذه « المساواة » تأخذ هويتها من نظام المشاركات ، أو التجمعات ، « الخاصة والعامة » ، « الواضحة والضمنية » ، التي تتمركز في « الدولة » وفي النظام السياسي العالمي . والامر هنا يتعلق بـ «مساواة» يشعر بكونها مساواة بين أعضاء تجمع ما ، وهي « لا مساواة » بين التجمعات المختلفة . مساواة ولا مساواة تتبع قيمتهما من درجة الوعي الفردي والجماعي . ويتم التوصل هكذا الى المساواة أو التعادل بين « الفلسفة والسياسة »، بين الفكر والعمل ، أي الى الفلسفة الاجرائية . كل شيء سياسي حتى الفلسفة أو الفلسفات ، و « الفلسفة » الوحيدة هي التاريخ القائم ، أي الحياة نفسها . بهذا المعنى يمكن تفسير اطروحة البروليتاريا الالمانية الوارثة للفلسفة الالمانية الكلاسيكية ، ويمكن القول أن ما فعل ايليش لينين من تنظير وتحقيق للهيمنة كان حدثا « ميتافيزيقيا » ضخما .

البنية والبنية الفوقية : المسألة الواردة في مقدمة « نقد الاقتصاد السياسي » ، والقائلة بأن الناس يأخذون الوعي عن صراعات البنية على أرضية الايديولوجيات ،يجب اعتبارها ذات قيمة روحية ايضا وليست ذات قيمة نفسية وأخلاقية فقط . ويستنتج من هذا أن المبدأ النظري — التطبيقي للهيمنة له أيضا امتداد روحي ، وعلى العموم ،في

هذا الميدان لا بد من البحث عن المساهمة النظرية القصوى التي قدمها لينين للفلسفة الاجرائية . لقد عمل لينين على التقدم الفعلي للفلسفة كفلسفة باعتباره عمل على تقدم العقيدة والممارسة السياسية . ان اقامة جهاز كامل للهيمنة، باعتباره يخلق أرضية ايديولوجية جديدة ، يؤدي الى اصلاح الوعي وطرق المعرفة ، وهو بهذا فعل معرفة ، وعمل فلسفي . وباللغة التعبيرية التي يستخدمها كروتشي :عندما ينجح الانسان في ادخال أخلاقية جديدة تنطبق على مفهوم جديد للعالم ينتهي الى فرض هذا المفهوم الجديد ، مما يؤدي الى اصلاح فلسفي شامل .

ان البنية والبنية الفوقية تشكلان « كتلة تاريخية » ، أي أن كل المجموع التناقضي واللامتوافق للبنى الفوقية هو الانعكاس لمجموع العلاقات الاجتماعية للانتاج . يستنتج من ذلك أن نظاما للايديولوجيات السلطوية يعكس عقلانيا تناقض البنية ويمثل وجود الشروط الموضوعية لقلب الاجراءات . واذا ما تشكلت جماعة اجتماعية متجانسة ايديولوجيا بنسبة ١٠٠ ٪ ، فهذا يعني وجود المقدمات بنسبة ١٠٠ ٪ لهذا الانقلاب ، أي أن « العقلاني » هو حقيقي وواقعي وقابل للتطبيق في هذه اللحظة . وهذا المنطق يقوم على أساس التبادل الضروري بين البنية والبنية الفوقية (تبادل هو العملية الديالكتيكية الحقيقية) .

البراغماتية والسياسة : لا يمكن نقد البراغماتية اذا لم يؤخذ في الاعتبار ذاك الاطار التاريخي الانغلوساكسوني الذي ولدت فيه وانتشرت . واذا كان صحيحا ان كل فلسفة « سياسية » ، وان الفيلسوف هو سياسي بالدرجة الاولى ، فان هذا ينطبق اكثر ما ينطبق على البراغماتية التي تبني الفلسفة « وحيدة الجانب » بالمعنى المباشر . ولكن لا يمكن التفكير بشيء مماثل (كحركة) في البلدان

الكاثوليكية ، حيث انفصل الدين والحياة الثقافية احدهما عن الاخر منذ عصر النهضة وايام الحركة المضادة للاصلاح، ويمكن التفكير بشيء مماثل للبلدان الانغلوساكسونية، حيث يلتصق الدين كليا بالحياة الثقافية اليومية ، وحيث لا يتمركز الدين بيروقراطيا ولا يتسم بالدوغمائية الفكرية . وعلى أي حال فان البراغماتية تهرب من الاطار الديني الايجابي وتتجه نحو خلق اخلاقية علمانية (من غير النوع الفرنسي) وتتجه الى خلق « فلسفة شعبية » متفوقة على الرأي السائد . انها « حزب ايديولوجي » مباشر اكثر منها نظاما فلسفيا .

لنأخذ المبدأ البراغماتي الذي يعرضه جيمس : « الطريقة الافضل لمناقشة النقاط المختلفة لنظرية ما هي في البدء بتوضيح أية فروقات عملية تنجم عن حقيقة كون البديل او البديل الاخر هو الصحيح » ؛ ويكفي هذا لرؤية مدى فورية ومباشرة السياسوية الفلسفية البراغماتية . الفيلسوف « الفرد » من النوع الايطالي او الالماني يبقى ارتباطه بـ « الممارسة » ارتباطا بالواسطة (وغالبا ما تكون الواسطة سلسلة كثيرة الحلقات) ، اما البراغماتي فيسعى الى الارتباط الفوري ؛ وفي الواقع ، يبدو وكأن الفيلسوف من النوع الايطالي او الالماني « عملي » اكثر من البراغماتي الذي ينطلق في حكمه من الواقع الفوري ، الذي غالبا ما يكون واقعا فجا ، في حين ان للاخر هدف أسمى ، مما يجعله يميل الى رفع المستوى الثقافي القائم (اذا مال طبعا) . ومن الممكن اخذ هيغل على اساس كونه الرائد النظري للثورات الليبرالية في القرن التاسع عشر ، اما البراغماتيون فلا يمكن أن يكونوا قد وصلوا ، في اقصى الحالات ، الى اكثر من ايجاد حركة نادي «الروتاري» أو تبرير كافة الحركات المحافظة والرجعية (بتبريرها فعلا وليس فقط بالجدل المعوج ، كما حصل بالنسبة لهيغل والدولة البروسية) .

الفن والثقافة (*)

العودة الى دي سانكيتس : ماذا يعني ، وماذا يمكن ويجب أن يعني ، الشعار الذي طرحه جوفاني جنتيلي والقائل : « لنعد الى دي سانكيتس » ؟ أيعني ان نعود ميكانيكيا الى المفاهيم التي صاغها دي سانكتيس حول الفن والادب ، او يعني ان نتخذ تجاه الفن والحياة موقفا مشابها لموقف دي سانكتيس في ايامه ؟ اذا اتخذ هذا الموقف كـ « نموذج » يمكننا ان نرى ١) مما كانت تتألف هذه النموذجية ٢) ما هو الموقف المماثل اليوم ، اي ما هي الاهتمامات الفكرية والاخلاقية المماثلة اليوم لتلك التي سيطرت على نشاط دي سانكيتس ووجهته وجهة معينة .

بالرغم من أن سيرة حياة دي سانكتيس كانت منسجمة اساسا ، لا يمكن القول انها كانت « مستقيمة » وتسير في خط واحد . دي سانكتيس وجه اهتمامه ، في المرحلة الاخيرة من حياته ونشاطه ، تجاه القصة « الطبيعية » أو

---

* من « الادب والحياة القومية » .

« الحقيقية » (١١) ، وهذا النوع من القصة ، في اوروبا الغربية ، كان التعبير « الفكروي » عن الحركة الاشمل لـ « الذهاب الى الشعب » ، اي الشعبوية التي طبعت بعض المجموعات الفكرية قرابة نهاية القرن الماضي بعد غياب ديمقراطية الثماني والاربعين ومجيء الجماهير العمالية الواسعة العاملة في تطوير الصناعة المدينية الكبرى . ومن دي سانكتيس لا بد ان نذكر مؤلفه « العلم والحياة » ، وان نذكر انتقاله الى اليسار البرلماني ، وخشيته محاولات المعتدلين والمحافظين المتسترة بالصيغ الطنانة الضخمة .. الخ .

يقول دي سانكتيس في احد احكامه : « غياب النسيج من غياب الايمان ، وغياب الايمان من غياب الثقافة » . فماذا تعني كلمة « ثقافة » في هذه الحالة ؟ انها تعني — بلا شك — « مفهوما للحياة وللانسان » منسجما ووحدويا وذو انتشار على المستوى القومي ، وتعني « دينا علمانيا » ، اي فلسفة اصبحت « ثقافة » فكونت مبدأ اخلاق وطريقة للحياة ومسلكا مدنية وفرديا . وهذا يتطلب قبل كل شيء توحيد « الطبقة المثقفة » ، وفي هذا الاتجاه عمل دي سانكتيس بتأليفه «النادي الفيلولوجي» الذي كان من مهماته «وحدة كافة الرجال المثقفين والاذكياء» في مدينة نابولي . ولكن دي سانكتيس كان يطلب ، بشكل اخص ، موقفا جديدا تجاه الطبقات الشعبية ، ومفهوما جديدا لما هو « قومي » مختلفا عن مفهوم اليمين التاريخي ، واوسع منه ، واكثر انفتاحا ، واقل « بوليسية » اذا صح القول . وهذه الناحية من نشاط دي سانكتيس هي التي

---

(١) شهيرة في ايطاليا القصص التي اهداها دي سانكتيس الى اميل زولا .

يجب تسليط الضوء عليها ، على هذا العنصر من نشاطه الذي وان لم يكن جديدا فانه يمثل نمو البذور الاولى لحياته كاديب وكرجل سياسي .

الفن والنضال من اجل حضارة جديدة : العلاقة الفنية تدل ، وبشكل خاص في الفلسفة الاجرائية ، على السذاجة الحمقاء للبغاوات الذين يظنون امتلاكهم ، في معادلات قليلة مقولبة ، للمفتاح الصالح لكل الابواب .

لنأخذ مثال كاتبين يمثلان نفس اللحظة التاريخية — الاجتماعية ، احدهما فنان والاخر عادي (٢) بسيط . ان اختصار المسألة بالاقتصار على وصف ما يمثله اجتماعيا لكل الكاتبين ، اي بتجميع ناجح الى حد ما لسمات تاريخية — اجتماعية معينة ، يعني عدم المساس حتى من بعيد بالمشكلة الفنية (٣) . كل هذا يمكن ان يكون مفيدا وضروريا، بل هو كذلك حتما ، ولكن في ميدان اخر تماما ، هو ميدان النقد السياسي ، ونقد العادات والتقاليد ، وفي مجال النضال لهدم وتجاوز تيارات عاطفية ومعتقدات معينة ، ومواقف معينة تجاه الحياة والعالم ، فهو ليس نقدا وتاريخا للفن ، ولا يمكن اعتباره كذلك الا اذا استهدف الانسان الضياع والتخلف ، او التجمد في مفاهيم علمية ، اي ضمان عدم الوصول الى الاهداف الملازمة للصراع الثقافي والتي هي جزء لا يتجزأ منه .

---

(٢) التعبير الايطالي هو (Untorello) وليس للكلمة ترجمة دقيقة للعربية ، فهي صفة تعني أساسا الرجل الذي يقوم بدهن البيوت بمراهم عجيبة سامة ، وتستخدم في وصف الانسان العادي جدا الى حد كون عاديته اساءة الى من حوله (المعرب) .

(٣) هذا الرأي يدل الى أي مدى كان غرامشي ينأى بنفسه عن ذلك النقد الذي يصف نفسه بكونه « نقدا ماركسيا » فقط لانه يطرح أحكاما ايديولوجية حول « مضمون » او « محتوى » العمل الفني .

ان اية لحظة تاريخية ــ اجتماعية معينة لا يمكنها ان تكون ابدا لحظة متجانسة ، بل هي حتما مليئة بالتناقضات. وهي تكتسب « شخصيتها » وتصبح « لحظة » تطور نتيجة لسيطرة نشاط اساسي معين من نشاطات الحياة على بقية هذه النشاطات ، بحيث يمثل هذا النشاط « قمة » تاريخية . ومن المفروض ان يمثل هذه اللحظة المعينة من يمثل هذا النشاط المسيطر ، أو هذه « القمة » التاريخية. ولكن كيف الحكم على من يمثل النشاطات الاخرى ، والعناصر الاخرى ؟ أليست « تمثيلية » هي الاخرى ؟ اولا يمثل « اللحظة » ايضا من يعبر عن عناصر « رجعية » او قديمة جدا ؟ ام يجب اعتباره ممثلا للحظة من يعبر عن كافة القوى وكافة العناصر المتعارضة والمتصارعة فيما بينها ، اي من يمثل تناقضات الكل التاريخي ــ الاجتماعي ؟

ويمكن التفكير ايضا بان نقد الحضارة الادبية ، والنضال لخلق ثقافة جديدة هي ثقافة فنية باعتبار ان الثقافة الجديدة ستولد فنا جديدا ، ولكن هذا كله يبدو سفسطة ومغالطة . على كل حال ، وربما انطلاقا من هذه الافتراضات ، يمكن الوصول الى فهم افضل للعلاقة دي سانكتيس ــ كروتشي والجدل حول المضمون والشكل . ان نقد دي سانكتيس هو نقد ملتزم مناضل ، ليس جماليا « ببرودة » ، انه نقد حقبة من الصراعات الثقافية والتناقض بين مفاهيم للحياة متنازعة فيما بينها . ان تحليل المضمون، ونقد « بنية » (٤) الاعمال الفنية ، اي نقد الانسجام المنطقي والتاريخي ــ الحالي لكتلة المشاعر الممثلة فنيا ، هما امران

---

(٤) كلمة « بنية » هنا ليست مستخدمة بمعناها الماركسي كقاعدة اقتصادية ، ولكن بالمعنى المستخدم عند كروتشي كشريحة تحتية ثقافية وعقلانية للعمل الفني .

مرتبطان بهذا الصراع الثقافي . وفي هذه النقطة بالذات تكمن ، على ما يبدو ، انسانية دي سانكتيس العميقة التي تجعله ، حتى عند ناقد اليوم ، انسانا محببا الى القلب . لطيف ان يشعر الانسان عند دي سانكتيس بالعاطفة الملتهبة للرجل الذي اختار لنفسه موقعا ، والذي يحمل معتقدات وجدانية وسياسية صلبة ولا يخفيها ولا حتى يحاول اخفاءها. ان بينيديتو كروتشي ينجح في تمييز هذه المظاهر المختلفة للناقد احدها عن الاخر والفصل فيما بينها ؛ اما عند دي سانكتيس فهي مظاهر موحدة ومصهورة عضويا . عند كروتشي تعيش نفس الاسباب الثقافية الموجودة عند دي سانكتيس ، ولكن في لحظة توسعها وامتدادها وانتصارها. ويستمر الصراع ، ولكنه صراع من اجل صقل الثقافة (ثقافة معينة) وليس من اجل حقها في الحياة ، فتتحول العاطفة الملتهبة والحرارة الرومانتيكية الى صفاء علوي وتسامح مليء بالطيبة . ولكن ، حتى عند كروتشي ، هذا الموقف ليس دائما ، اذ تتداخل فيه مرحلة يتحطم فيها الصفاء والتسامح ويزدهر فيها الغضب والقسوة دونما كبح لجماحهما ، انها مرحلة دفاعية ، ليست هجومية ولا متقدة، ولا يمكن مقارنتها بمراحل دي سانكتيس .

على العموم ، ان ذاك النوع من النقد الادبي الخاص بالفلسفة الاجرائية يقدمه دي سانكتيس وليس كروتشي او غيره (واقل من ذلك كارودتشي وامثاله) ؛ فعلى هذا النوع من النقد ان يصهر النضال من اجل ثقافة جديدة ، اي من اجل انسانية جديدة ، ويصهر نقد العادات والتقاليد ونقد المشاعر ومفاهيم العالم ، مع النقد الجمالي او الفني البحت ، في انفعال حماسي ، وان كان في صيغة ساخرة . منذ زمن غير بعيد ، كانت تقابل مرحلة دي سانكتيس،

وعلى مستوى تابع ، مرحلة « لا فوتشي » (الصوت) (٥) .
لقد ناضل دي سانكتيس في سبيل خلق ثقافة وطنية جديدة كليا في ايطاليا ، مضادة لقديمها المهترىء وللتنميق اللفظي البلاغي والاتجاهات الثقافية اليسوعية (الجيزويتية) ، أما « لافوتشي » فقد ناضلت فقط من أجل نشر تلك الثقافة نفسها في الشريحة الوسطية ، ضد الاقليمية والريفية .. الخ . لقد كانت مجلة « لافوتشي » مظهرا من مظاهر الكروتشية المناضلة ، سعت الى ديموقراطية ما كان بالضرورة « ارستقراطيا » عند دي سانكيتس وبقي « ارستقراطيا » عند كروتشي . ويمكن القول أن دي سانكتيس سعى الى تشكيل هيئة اركان عامة ثقافية ،بينما أرادت « لافوتشي » أن تبث الى الضباط المرؤوسين نفس النكهة الحضارية ولذلك كانت لها وظيفتها ، فعملت في الجوهر واستثارت تيارات فنية ، بمعنى أنها ساعدت الكثيرين على اكتشاف أنفسهم وأثارت تطلعا أكبر الى البحث الداخلي في الذات والى التعبير الصريح والمخلص عن الذات ، وان كانت الحركة لم تثمر أي فنان كبير .

يبدو واضحا أن علينا الكلام هنا ، بحثا عن الدقة ، عن صراع من أجل « ثقافة جديدة » وليس من أجل « فن جديد » (بالمعنى المباشر) . وتحريا للدقة أيضا ، قد لا يمكن القول كذلك بالنضال من أجل مضمون جديد للفن ، اذ لا يمكن التفكير بالمضمون تجريديا ، بعيدا عن الشكل . ان النضال في سبيل فن جديد قد يعني النضال لخلق فنانين أفراد جدد ، وهو ما لا معنى له ، لانه يستحيل خلق الفنانين

---

(٥) مجلة أصدرها بريتزوليني ، ظهرت في نهاية عام ١٩٠٨ ، وكانت ذات طابع فلسفي سياسي ، وأدبي في ملحقها الخاص ، عرفت بميولها التجديدية العميقة ، وتوقفت عن الصدور عام ١٩١٦ .

اصطناعا . اذن ، يجب الكلام عن نضال من أجل ثقافة جديدة ، أي حياة وجدانية جديدة ، لا يمكنها الا أن تكون مرتبطة داخليا بادراك جديد للحياة ، حتى تصبح طريقة جديدة للاحساس بالواقع ورؤيته ، وبالتالي عالما داخليا منسجما كليا مع « الفنانين المحتملين » ومع « الاعمال الفنية المحتملة » .

ان استحالة خلق الفنانين الافراد اصطناعا لا يعني أن العالم الثقافي الجديد ، المناضل من أجله ، باثارته للمشاعر والحرارة الانسانية ، لن يستثير بالضرورة «فنانين جددا». أي أنه ليس ممكنا القول بأن فلانا وعلانا سيصبحان فنانين، ولكن يمكن التأكيد أن الحركة ستولد فنانين جددا . ان جماعة اجتماعية جديدة تدخل الحياة التاريخية بموقف هيمنة ، وبثقة بالنفس لم تكن تمتلكها قبل الآن ، لا يمكنها الا أن تستثير في أعماقها شخصية لم تكن لتجد في السابق القوة الكافية للتعبير الكامل عن نفسها بطريقة معينة .

وهكذا لا يمكن القول أيضا بأنه ستتشكل « نفحة شعرية » جديدة ، كما أصبح من الدارج القول قبل بضع سنوات . فـ « النفحة الشعرية » ليست اكثر من استعارة للتعبير عن مجموع الفنانين الذين تشكلوا وظهروا أو للتعبير ، على الاقل ، عن العملية الجارية والثابتة للتشكل والظهور .

الفن المعلم : « الفن هو معلم من حيث كونه فنا وليس لكونه « فنا معلما » لانه في هذه الحالة يصبح لا شيء ولا يمكنه أن يعلم شيئا . من المؤكد أنه يبدو وكأن الجميع يتفقون في الرغبة بفن يشابه فن عصر النهضة وليس، مثلا، فنا مشابها لفن مرحلة دانونزيو . ولكن هذه الرغبة ، في الواقع ، وبالملاحظة الدقيقة ، ليست رغبة بفن مفضل على فن آخر ، بل هي رغبة في واقع وجداني مفضل على واقع

وجداني آخر . وهي حالة مثيلة لحالة من يرغب بأن تعكس المرآة صورة شخص جميل بدلا من أن تعكس صورة شخص قبيح ، فهو لا يرغب ، في الواقع ، بمرآة مختلفة عن تلك التي أمامه ، بل بشخص مختلف » .

« عندما يكون العمل الشعري ، أو سلسلة الاعمال الشعرية ، قد تشكل فعلا ، أو تشكلت ، يستحيل الاستمرار في تلك السلسلة من خلال الدراسة والتقليد أو من خلال التكرار مع بعض التغيير ، فهذا الطريق لا يقود الا الى ما يسمى بالمدرسة الشعرية . الشعر لا يولد شعرا ، والتوالد الذاتي (٦) لا مكان له هنا ، ولا بد من تدخل العنصر الذكر ، وتدخل ما هو واقعي ومشاعري وتطبيقي ووجداني . أبرز نقاد الشعر يحذرون ، في هذه الحالة ، من عدم اللجوء الى الوصفات الادبية ، ويدعون الى « اعادة تكوين الانسان » ، كما يقولون . وعندما يعاد تكوين الانسان ، وتتجدد روحه ، وتظهر عنده حياة جديدة للعواطف ، ينبع من هذا كله ، اذا نبع ، شعر جديد » .

هذه الملاحظة يمكن للمادية التاريخية تبنيها . فالقول بأن الادب لا يولد أدبا .. الخ ، يعني أن الايديولوجيات لا تولد ايديولوجيات ، والبنى الفوقية لا تولد بنى فوقية الا كارث للجمود وللسلبية . انها لا تولد بـ «التوالد الذاتي» بل نتيجة لتدخل العنصر « الذكر » ، أو التاريخ ، والنشاط الثوري الذي يخلق « الانسان الجديد » ، أي من خلال العلاقات الاجتماعية الجديدة .

من كل هذا يستنتج ما يلي : ان « الانسان » القديم يصبح بالتغيير ، هو أيضا ، انسانا « جديدا » ، لانه يدخل

---

(٦) التوالد بلا تلقيح او اخصاب Parthe Nogenesis .

في علاقات جديدة بعد أن تكون قد انقلبت تلك العلاقات الاولية . ومن هنا يبرز واقع أن « الانسان الجديد » ، المخلوق ايجابيا ، قبل أن يبدأ باعطاء الشعر ، قد يمر بمرحلة « أغنية البجعة » (٧) للانسان القديم المتجدد سلبا. وغالبا ما تكون أغنية البجعة هذه ذات روعة براقة . ويتحد الجديد بالقديم ، وتلتهب المشاعر بشكل لا يضاهى .. الخ (ألم تكن « الكوميديا الالهية » هي أغنية البجعة للعصور الوسطى التي استبقت أيضا الازمنة الجديدة والتاريخ الجديد ؟) .

مقاييس النقد الادبي : هل صحيح أن موضوعة كون الفن فنا وليس دعاية سياسية « مرادة » ومطروحة ، تقف هي نفسها عقبة في وجه تشكل تيارات ثقافية معينة هي انعكاس لازمتها ، وتساهم في تدعيم تيارات سياسيةمعينة؟ لا يبدو هذا صحيحا بل ، على العكس ، يبدو أن هذه الموضوعة تطرح المشكلة بأبعاد أكثر عمقا وجذرية وتطرح مشكلة النقد الاكثر فعالية وانجازا . ان الاستناد الى مبدأ البحث في العمل الفني عن الصفات الفنية فقط لا يستثني البحث عن كتلة المشاعر وعن الموقف من الحياة الكامن في العمل الفني نفسه . بل ان الاعتراف بذلك من قبل التيارات الجمالية الحديثة واضح عند دي سانكتيس ، وحتى عند كروتشي نفسه . ان ما يجب استبعاده هو أن يعتبر العمل الفني جميلا حكما على مضمونه الاخلاقي والسياسي وليس حكما على الصيغة أو الشكل الذي انصهر فيه المضمون . وأيضا ، يجب البحث عما اذا كان العمل الفني قد فشل لان

---

(٧) Cauto Del Cigno او « أغنية البجعة » هي الاغنية الاخيرة والاجمل التي غنتها البجعة ـ كما تقول احدى الاساطير ـ ساعة موتها (المعرب) .

المؤلف انحرف نتيجة لانشغالات مقلقة عملية خارجية ، أي مصطنعة وغير مخلصة . هذه النقطة تبدو هي النقطة الاساسية في الجدل : فلان « يريد » أن يعبر ، بشكل مصطنع ، عن مضمون معين ، فلا ينتج عملا فنيا . ان الفشل الفني للعمل الفني المعين (مع أن فلانا برهن عن كونه فنانا عبر أعمال فنية اخرى أحسها وعاشها) يدل على أن المضمون المعين عند فلان ليس الا مادة طرشاء وعاصية، وأن حماسة فلان لهذا المضمون زائفة ومرادة من الخارج ، وأن فلانا ، في هذه الحالة المحددة ، ليس فنانا بل عبدا يطمح الى ارضاء الاسياد . اذن ، هناك سلسلتان من الوقائع ، احداهما ذات طابع جمالي أو فني بحت ،والاخرى ذات طابع سياسي ثقافي (أي سياسي بالمطلق) . ان الوصول الى رفض الطابع الفني لعمل ما قد يخدم الناقد السياسي ، كناقد سياسي ، للدلالة على أن فلانا ، كفنان ، ليس من هذا العالم السياسي ، وبما أن شخصيته فنية بالدرجة الاولى ، وأن ذاك العالم السياسي لا يعمل فيه داخليا ، وغير موجود بالنسبة له ، فهو ليس أكثر من مهرج سياسي يريد أن يحمل الآخرين على الاعتقاد بغير حقيقته.. الخ . وهنا يدين الناقد السياسي فلانا ، لا كفنان ، بل كـ « انتهازي سياسي » .

ان ممارسة الانسان السياسي للضغط باتجاه أن يعبر الفن في زمنه عن عالم ثقافي معين يعتبر نشاطا سياسيا وليس نقدا فنيا ، واذا كان العالم الثقافي المناضل من أجله حقيقة قائمة ولازمة ، فان شموليته لن تكون قابلة للمقاومة، ولا بد أن تجد فنانيها . أما اذا كان عدم قابلية المقاومة هذا غير مرئي وغير فاعل ، رغم الضغوط ، فهذا يعني أن الامر يتعلق بعالم زائف ومصطنع وبانتاج « ورقي » لاناس عاديين يندبون ويتأففون من عدم فهم أصحاب المراكز الاعلى لهم .

ان نفس طريقة طرح المسألة يمكنه أن يكون اشارة الى مدى صلابة هذا العالم الوجداني والثقافي ، والواقع ان مـــا يسمى بـــ « التفنن في الدقة » ـــ « كاليغرافيزمو » (٨) ـــ ليس الا دفاعا عن صغار الفنانين الذين يضعون ، انتهازيا، مباديء معينة ، ولكنهم يشعرون بالعجز عن التعبير عنهـــا فنيا ، أي من خلال النشاط الذي هو ميدانهم ، ولذلك فهم يهربون الى الشكل حيث يصبح الشكل هـــو المضمون .. الخ . ان المبدأ الشكلي (٩) في التمييز بين الفئات الروحية ووحدة دورتها ، حتى بالمعنى التجريدي ، يسمـــح بالتقاط الواقع التأثيري وبنقد الاختيارية والاستعارية عند مـــن لا يريد أن يلعب أوراقه مكشوفة ، أو مـــن هو عادي بسيط وضعته الظروف في مركز القيادة .

من ناحية أخرى ، وفيما يتعلق بالعلاقة بـــين الادب والسياسة ، لا بد من أخذ المقياس التالي في الاعتبار : لا بد للاديب من أن تكون منظوراته ، بالضرورة ، أقل دقـــة وتحديدا من السياسي ، عليه أن يكون أقل « فئوية » ، اذا صح القول ، ولكن بشكل « تناقضي » . بالنسبة للرجـــل السياسي كل صورة « ثابتة » هي صورة رجعية بداهـــة . فالسياسي يأخذ في اعتباره المستقبلي كل الحركات المحتملة. أما الفنان فيجب أن تكون لديه صور « ثابتـــة » ومحـــددة بشكلها النهائي . السياسي يتصور الانسان كما هو وفـــي

---

(٨) Calligraphismo تعبير ايطالي ليست له ترجمة دقيقـــة الى العربية ، الكلمة مشتقة من فن الخـــط او الكتابة الفنيـــة ، والمقصود بها هنا أولئك الفنانين الذين ينجزون أعمالهم الفنية بدقـــة تامة ولكن بدون شعور ، وأقرب ما في العربية الى التعبير الايطالي هـــو القول : « فلان يقول الشعر وكأنه ينحت في صخر » (المعرب).

(٩) المبدأ الذي أقام عليه بينيديتو كروتشي نظامه الفلسفي .

الوقت نفسه كما يجب أن يكون للوصول الى هدف معين ؛ وبالتالي فان عمله يتركز على دفع الناس الى الحركة ،والى الخروج من واقعهم الحاضر ليصبحوا قادرين جماعيا على الوصول الى الهدف المقترح ، أي دفع الناس الى «التطابق» مع الهدف . أما الفنان فيمثل بالضرورة « ما هو قائم » واقعيا من كل ما هو شخصي وغير ملتزم (١٠) .. الخ . ولذلك ، ومن وجهة النظر السياسية ، لن يكون السياسي أبدا مسرورا من الفنان ، ولا يمكنه أن يكون ، فالسياسي يجد الفنان دوما متأخرا عن الزمن ، متخلفا فيه ، تسبقه الحركة باستمرار . واذا كان التاريخ عملية تحرر ووعي ذاتي مستمرة ، فمن الطبيعي أن يتم فورا تجاوز كل مرحلة (كتاريخ ، وفي هذه الحالة كثقافة) وأن تفقد المرحلة أهميتها .

مقاييس منهجية : من المنافي للعقل والمنطق أن يعطي الادب في بلد ما رائعة فنية كل سنة ، أو كل عشر سنوات مثلا . ولذلك لا بد للنقد الادبي من أنيكون ذو طابع«ثقافي»، وأن يكون نقدا لـ « الاتجاهات » ، الا اذا أراد أن يكون مجزرة دائمة (وفي هذه الحالة ، كيف نختار العمل الذي نريد ذبحه والكاتب الذي نريد اثبات كونه بعيدا عن الفن ؟ قد تبدو هذه مسألة يمكن اهمالها ولكنها أساسية من وجهة نظر التنظيم الحديث للحياة الثقافية) . ان النقد الدائم

---

(١٠) يصيب غرامشي هنا ، وبدقة كبيرة ، كبد مسألة العلاقة بين السياسة والفن ، والتي ما زالت موضع نقاش حاد في البلدان الاشتراكية وغيرها حتى اليوم ، أي طلب السياسيين من الفنان ان لا يمثل الواقع الاشتراكي على حقيقته ، وبتناقضاته ، بل ان يمثل « الهدف المقترح » ، أي المستقبل ، وكيف يجب ان يصبح المجتمع في المستقبل ..!

السلبية ، المبني على الهدم ، وعلى اثبات أن الشعر المنقود هو « لا شعر » ، وأنه ليس من « الشعر » في شيء ، هو نقد مثير للغثيان ، ويصبح « الاختيار » اصطيادا للانسان ، أو « صدفيا » وبالتالي لا قيمة له .

يبدو مؤكدا أنه لا بد أن يكون للنقد جانبا ايجابيا ، بمعنى وجوب ابراز القيمة الايجابية في العمل الفني المنقود، فاذا لم تكن هذه القيمة الايجابية فنية يمكنها أن تكون ثقافية، وعندئذ لا يعود الكتاب الفرد هو المقصود ، الا في حالات نادرة ، بل جماعات العمل المنسقة حسب الاتجاه الثقافي. حول الاختيار : المقياس الاكثر بساطة — الى جانب بدهية القياس والفحص المنظم لكل الادب ، وهو عمل هائل الضخامة ويكاد يكون مستحيلا على المستوى الفردي — يبدو مقياس « النجاح المكتبي » ، وذلك في الاتجاهين : « النجاح عند القراء » و « النجاح عند الناشرين » . وهذا المقياس له دلالته حتى في البلدان التي تسيطر فيها الاجهزة الحكومية على الحياة الفكرية لانه يدل على الاتجاه الذي تريد الدولة اعطاءه للثقافة الوطنية .

انطلاقا من المقاييس الجمالية الكروتشية نجد أنفسنا أمام المسائل نفسها : نظرا لان « نثرات » شعرية يمكن أن توجد أينما كان ، من مجلات الحب المصورة الى الاعمال العلمية العميقة الاختصاص ، فانه يجب على الناقد أن يعرف « الكل » حتى يستطيع العثور على « اللؤلؤة » في مستنقع الوحل . الواقع أن كل ناقد فرد يشعر بانتمائه الى منظمة ثقافية تعمل ككل ، وما يغيب عن واحد من أعضاء المنظمة « يكتشفه » واحد آخر .. وهكذا . وحتى انتشار « الجوائز الادبية » ليس الا مظهرا ، منظما الى حد ما ، وبعناصر خداع واحتيال تزيد أو تقل حسب الظروف ، لخدمات « الاشارة » الجماعية في خدمة النقد الادبي الملتزم .

ومن الجدير بالملاحظة أنه يمكن للنشاط العملي ، في فترات تاريخية معينة ، أن يمتص معظم الامكانات الابداعية لامة ما . في هـذه الفترات تتركز كـل القوى الانسانية ، وأفضلها ، في العمل البنيوي ، عندما لا يكون مـن الممكن بعد الكلام عن بنى فوقية ، وعلى هذا الاساس بنيت فـي أمريكا النظرية الاجتماعية (السوسيولوجية) المبررة لغياب الازدهار الثقافي الانساني والفني عـن الولايات المتحدة . وعلى كل حال فان هذه النظرية ، بكونها مظهرا للتبرير على الاقل ، يجب أن تستطيع ابراز نشاط ابداعي واسع فـي الميدان العملي ، رغم أن هذا يترك بلا جواب المسألة التالية: اذا كان هـذا النشاط « الشعري ـ الابداعـي » موجودا وحيا ، واذا كان يستثير كـل القوى الحيوية ، بالطاقات ، والارادة ، والحماسة عنـد الانسان ، فكيف بـه لا يستثير الطاقة الادبية ولا يخلق ملحمة ؟ اذا كان هذا لم يحصل ،فلا مهرب مـن شك محـق فـي أن الامـر يتعلق بطاقـات « بيروقراطية » ، وبقوى غير شمولية كونيا ، بـل تعبيرية ومتوحشة : اذ كيف يمكن التفكير بأن بناة الاهرام ، العبيد العاملين تحت السياط ، فهموا القيمة الشعرية الغنائيـة للعمل الذي قاموا به ؟ ولا بد من ملاحظة أن القوى التـي تقود هذا النشاط العملي العظيم ليست قمعية فيمـا يخص العمل البنيوي فحسب ، وهو أمر يمكن فهمه ، بل هي قمعية بشكل عام وشامل ، وهـو أمر نموذجي طبيعي ، ويؤدي حتما ، كما في أمريكا ، الى أن تظهر بعض الطاقة الادبية في الهوامش المقاومة لمنظمة النشاط العملي التي يراد فرضها باعتبارها « ملحمة » هي نفسها . وعلى العموم فان الحالة الاسوأ هي حيث لا تترافق العدمية الفنية بأي نشاط عملي ـ بنيوي ذي عظمة معينة ، وحيث تبـرر العدمية الفنيـة بنشاط عملي « سوف يحدث » ولا بد من انتظاره لكي يكون

سبيلا لانتاج النشاط الفني .

في الواقع ، ان كل قوة تجديدية هي قوة قمعية تجاه خصومها ، ولكنها كذلك من حيث كونها تفرج عن قوى كامنة ، فتزيد من قوتها وتمجدها ، وهي توسعية ، والتوسعية من سماتها المميزة الاولى . ان « الترميمات » ، مهما كان الاسم الذي تحمله ، وخاصة الترميمات الجارية في العصر الحالي ، هي قمعية بشكل شامل ، فالاب بريشاني ، والادب المعروف باسمه أصبح هو المسيطر . النفسية التي سبقت هذه الظاهرة الفكرية هي النفسيةالتي خلقها الذعر والخوف العالمي من قوى شيطانية غير معروفة والتي لا يمكن السيطرة عليها ، بالتالي ، الا بواسطة التضييق القمعي الشامل . ان ذكرى هذا الذعر (في مرحلته القصوى) تستمر لمدة طويلة وتقود الارادة والعواطف ، فتختفي الحرية والعفوية الابداعية ، ويبقى الحسد والحقد وروح الانتقام ، والعمى الاحمق المغلف بالكلام المعسول لليسوعية (الجيزويتية) . كل شيء يصبح عمليا (بالمعنى الانحطاطي) ، وكل شيء دعاية وجدلا ورفضا ضمنيا في صيغة حقيرة .

مسألة الادباء الشباب : في الحكم على كاتب منخلال كتابه الاول يجب أخذ « العمر » في الاعتبار ، لان الحكم هو أيضا على المستوى الثقافي ، ويمكن ابداء الاعجاب بالثمرة الفجة كشيء موعود والوصول الى التشجيع ، ولكن ليس لكل الثمار الفجة طعم واحد .

التعبير اللغوي للكلمة المكتوبة والفنون الاخرى :

كتب دي سانكتيس مرة يقول أنه قبل أن يكتب مقالا ما أو يلقي درسا عن نشيد من أناشيد دانتي ، مثلا ، كان يقرأ النشيد مرات عديدة بصوت مرتفع ، وكان يحفظه عن ظهر

قلب .. الخ . ونذكر هذا لدعم الملاحظة القائلة بأن العنصر الفني في عمل ما لا يمكن تذوقه منذ القراءة الاولى ، الا في حالات نادرة (وسنرى ما هي) ، وحتى لو كان القاريء أحيانا أخصائيا كبيرا مثل دي سانكتيس القراءة الاولى تعطي القاريء فقط امكانية الدخول الى العالم الثقافي والعاطفي للكاتب ، وليس هذا صحيح دوما ، وخاصة فيما يتعلق بالكتاب غير المعاصرين الذين يختلف عالمهم الثقافي والعاطفي عن عالم اليوم ، فالشعر الذي يقوله أحد آكلي لحوم البشر عن مائدة غنية باللحم البشري قد يكون جميلا ، ويحتاج تذوقه الجمالي ، بدون أحكام مسبقة « فوق جمالية » ، الى انفصال نفسي عن الثقافة المعاصرة .

ولكن العمل الفني يحتوي عناصر أخرى « تاريخوية » الى جانب العالم الثقافي والعاطفي المعين ، انها اللغة التعبيرية مأخوذة لا على أساس كونها تعابير كلامية بحتة يمكن تصويرها قواعديا في زمن ومكان معينين ، بل كمجموعة من الصور وطرق التعبير التي لا تدخل في نطاق القواعد هذه العناصر تبدو أكثر وضوحا في الفنون الاخرى . اللغة اليابانية تبدو فورا مختلفة عن اللغة الايطالية ، ولكن الامر ليس كذلك في اللغة التعبيرية للرسم وللموسيقى ، وللفنون التشكيلية بشكل عام . ومع ذلك ، توجد هنا أيضا فوارق في اللغة التعبيرية ، وتبدو هذه الفوارق أكثر وضوحا عند النزول من الظاهرات الفنية عند الفنانين الى الظاهرات الفنية للفنون الشعبية ، حيث يقتصر التعبير في هذه الفنون على العنصر الوحيد الصوت والبدائي (نذكر هنا قصة الرسام الذي رسم صورة وجه جانبية لاحد الزنوج فغضب أصدقاؤه الزنوج ومزقوا اللوحة لان الفنان رسم « نصف وجه » صديقهم فقط) .

ولكن هنالك فارق كبير ، من وجهة النظر الثقافية والتاريخية، بين التعبير اللغوي للكلمة المكتوبة والمحكية والتعابير اللغوية للفنون الاخرى (١١) . فاللغة التعبيرية « الادبية » ترتبط ارتباطا وثيقا بحياة التعددية الوطنية ، وتتطور ببطء وعبر الجزئيات ، ويمكن القول أن لكل جماعة اجتماعية « لغتها » . وعلى العموم ، يجدر بالملاحظة أن بين اللغة الشعبية ولغة الطبقات المثقفة تبادلا دائما (الا في حالات خاصة نادرة) . وهذا لا يحصل في اللغات التعبيرية للفنون الاخرى التي نلاحظ فيها حاليا ظاهرتان جديرتان بالذكر :

١ — في هذه الفنون تبقى العناصر التعبيرية الخاصة بالماضي ، كل الماضي ، حية ، على الاقل أكثر مما تبقى حية في اللغة الادبية بكثير جدا ٢ — في هذه الفنون سرعان ما تتشكل لغة عالمية (كوزموبوليتانية) تمتص العناصر التقنية — التعبيرية لكل الامم التي تعطي ، مرة بعد أخرى ، رسامين أو نحاتين أو موسيقيين عظاما .. الخ . فقد أعطى فاغنر الموسيقى عناصر لغوية تعبيرية أكثر مما أعطت كل الفنون الادبية الالمانية عبر تاريخها كله . ويحصل هذا لان الشعب لا يساهم الا مساهمة ضئيلة في انتاج هذه اللغات التعبيرية التي هي من خصوصيات النخبة ، في حين أنه (كجماعة وليس كافراد) يستطيع أن يفهمها بسرعة نسبية.

يقول البعض أن المسرح لا يمكن اعتباره فنا ، بل هو ترفيه ذو طبيعة ميكانيكية،وذلك لان المتفرجين لا يستطيعون تذوق المسرحية جماليا ، بل يهتمون فقط بالحبكة .. الخ . هذا كلام خاطيء لان العنصر الفني في التمثيل المسرحي لا

---

(١١) التفريق بين مختلف اللغات التعبيرية الفنية الذي يورده غرامشي هنا يستدعي بالضرورة التفريق بين الفنون المختلفة ، وهو ما ترفضه جمالية بينيديتو كروتشي .

يقتصر على المسرحية بمعناها الادبي ، فخالق المسرحيةليس الكاتب فقط . فالكاتب يتدخل في التمثيلية المسرحيةبالكلمات والجمل التي تحد من اختيارات الممثل والمخرج ، ولكن الواقع هو أن العنصر الادبي في التمثيل يصبح مجالا لابداعات فنية جديدة كانت قبلا تكميلية ونقدية ــ تمثيلية وأصبحت اليوم أكثر أهمية ، أي طريقة تقديم الممثل الفرد ، والمجموعة المشهدية التي يخلقها المخرج .ولكن من الصحيح أن القراءة المكررة فقط هي التي تقود الى تذوق المسرحية كما وضعها الكاتب . والنتيجة هي : ان العمل الفني تزداد « فنيته » الشعبية كلما كان مضمونه الاخلاقي والثقافي والعاطفي أكثر التصاقا بالاخلاق والثقافة والعواطف الوطنية ، لا بمفهوم سكوني جامد بل كنشاط دائم التطور . ان قيام العلاقة المباشرة بين القاريء والكاتب يتم عندما تكون وحدة المضمون والشكل عند القاريء مقدمة لوحدة العالم الشعري والعاطفي ، والا فعلى القاريء أن يبدأ بترجمة « لغة » المضمون الى لغته الخاصة ، ويمكن القول أن الوضع في هذه الحالة يصبح مشابها لوضع انسان تعلم اللغة الانكليزية السهلة والسريعة في مدارس برليتز واتجه فورا الى قراءة شيكسبير : ان الجهد المبذول لفهم الكلمات بالمراجعة الدائمة لقاموس متواضع يجعل من القراءة تمرينا مدرسيا في هذه الحالة ، ولا شيء غير ذلك .

بعض مقاييس الحكم « الادبي » : يمكن أن يكون العمل جيدا في الحالات التالية : ١ ــ لانه يعرض اكتشافا جديدا يساهم في تقدم نشاط علمي معين ، ولكن ليست « الاصالة » المطلقة هي الجودة فحسب ، اذ يمكن أن يحصل : ٢ ــ اختيار وقائع ومواضيع معروفة وعرضها حسب نظام وعلائق ومقاييس أكثر ملاءمة واثباتا من السابقة . ان بنية عمل علمي يمكنها أن تكون « أصيلة »

هي نفسها . ٣ ــ الوقائع والمواضيع المعروفة يمكنهـا أن تفسح المجال أمام اعتبارات « جديدة » تابعة ، ولكنها ذات أهمية .

من الواضح أن على الحكم « الادبي » أن يأخذ فـي اعتباره الاهداف التي يطرحها على نفسه عمل ما ، مثـل الخلق واعادة التنظيم العلمي ، ونشر الوقائـع والمواضيع المعروفة داخل جماعةثقافية معينة ذات مستوىثقافيمعين.. الخ. ولذلك فهناك تقنية للنشر يجب تكييفها مرة بعـد مرة واعادة تطويرها ، فالنشر عملية تطبيقيـة بارزة تستدعـي امتحان مدى تلاؤم الوسائل مع الهدف ، أي امتحان التقنية المستخدمة . ولكن امتحان الواقعة والموضوع «الاصيلين» ، أو امتحان « أصالة » الوقائع والمواضيع والحكم عليها،هما أمران غاية في الصعوبة والتعقيد ويتطلبان أوسع المعارف التاريخية .

لقد جاء في المقال الذي كتبـه كروتشي وخص بـه لوريا (١٢) ما يلي : « هناك فارق بـين الخروج بملاحظة عرضية ثم تركها تسقط دون معالجة وبين تثبيتمبدأ لوحظت نتائجه المثمرة ، وهناك فارق بين التلفظ بفكرة عامةومجردة وبين التفكير بها واقعا وبالملموس ، وأخيرا هناك فارق بين الاختراع وبين النقل والتكرار للمرة الثانية أو الثالثة » .

نجدنا هنا أمام حالات التطرف القصوى : حالة مـن يرى أن ما من جديد أبدا تحت الشمس وأن العالم كله بلد واحد ، حتى في اطار الافكار ، وحالة من يرى « الاصالة » في كل شيء ويزعم الاصالة في كل اجترار لانه يفـرز لعابا

---

(١٢) كتاب بينيديتو كروتشي « المادية التاريخيـة والاقتصـاد الماركسي » ــ الفصل الثاني : « النظريات التاريخيـة للبروفسور لوريـا » .

جديدا . وعلى العموم ، فان أساس أي نشاط نقدي لا بد وان يستند الى القدرة على اكتشاف الفوارق والاختلافات تحت كل تطابق أو تشابه شكلي سطحي وظاهري ، واكتشاف الوحدة الجوهرية تحت كل تناقض وتمايز ظاهر على السطح .

(ان ضرورة أن يؤخذ في الحساب ، عند الحكم على عمل ما ، الهدف الذي كان المؤلف قد افترضه لنفسه بوضوح ، لا يعني حتما التغافل عن ، أو التقليل من ،قيمة أي انجاز حقيقي حققه المؤلف ، وان كان هذا الانجاز متعارضا مع الهدف المرسوم . ان كون كريستوفر سعى للذهاب « بحثا عن اسطول خان العظيم » لا يلغي قيمة رحلته الفعلية ولا قيمة اكتشافاته الفعلية بالنسبة للحضارة الاوروبية .

مقاييس علم المنهج : في البحث النقدي لـ «المعالجة» يمكن أن تبرز مسألة : ١ ــ تقييم ما اذا كان المؤلف قد عرف كيف يستخلص ، بدقة وانسجام ، **كافة** النتائج للمقدمات التي وضعها كنقطة انطلاق (أو وجهة نظر) ، اذ من الممكن أن يكون قليل الدقة أو قليل الانسجام ، أو أن يكون هناك حذف مقصود أو غياب لـ « الخيال » العلمي (أي العجز عن رؤية كل خصوبة المبدأ المعتمد .. الخ)..
٢ ــ تقييم نقاط الانطلاق (أو وجهات النظر) ، والمقدمات التي قد تكون مرفوضة كليا ، أو محدودة ، أو أصبحت غير صالحة تاريخيا ٣ ــ البحث فيما اذا كانت المقدمات متجانسة فيما بينها ، أم أنها ، نتيجة لعجز أم عدم كفاءة المؤلف (أو الجهل بالوضع التاريخي للمسألة) ، أصيبت بالتلوث والخلط بين المقدمات والمباديء المتناقضة أو غير المتجانسة ، أو غير المؤكدة تاريخيا . وهكذا يمكن أن تكون للتقييم النقدي أهداف ثقافية (أو جدلية ــ سياسية)مختلفة،

فقد تستهدف اثبات كون فلان الفـــرد عاجزا وكونه لا شيء بتاتا ، وقد تستهدف اثبات كون المجموعة الثقافية التي ينتمي فلان اليها غير ذات قيمة علمية ، أو أن فلانا الذي «يعتقد» أو يزعم انتماءه الى مجموعة ثقافية معينة انما يخدع نفسه أو يريد أن يخدع الآخرين ، أو أن فلانـــا يستخدم المقدمات النظرية لمجموعة ثقافية محترمة للوصول الـــى استنتاجات مقصودة وخصوصية .. الخ .

حول المفهوم الوطني – الشعبي (*)

في ملاحظة أوردتها مجلة « كريتيكا فاشيستا » (١) « النقد الفاشي » بتاريخ الاول من آب (اغسطس) ١٩٣٠ شكوى من صحيفتين يوميتين كبيرتين ، احداهما تصدر في روما والاخرى في نابولي ، لانهما بدأتا تنشران في ملاحق لهما القصتان « الكونت دي مونت كريستو » لاسكندر دوماس (٢) و « عذاب أم » لبول فونتيني (٣) . تقول المجلة : « لا شك في أن سنوات الثمانمائة الفرنسية كانت فترة ذهبية لقصص الملاحق ، ولكن الصحف التي تعيد اليوم نشر قصص تعود الى قرن مضى لا بد وأنها تملك فكرة سيئة عن قرائها ، كما لو أن الذوق والاهتمامات والمعارف الادبية

---

* من « الادب والحياة الوطنية » .

(١) مجلة فاشية أسسها واستمر في رئاسة تحريرها جوزيبي بوتاي الذي أصبح وزيرا اكثر من مرة .

(٢) اسكندر دوماس (١٨٠٣ – ١٨٧٠) قصاص وروائي فرنسي شهير . من رواياته الشهيرة « الفرسان الثلاثة » .

(٣) روائي فرنسي من مستوى عادي .

لم تتغير ابدا منذ ذلك الحين . وليس هذا كل شيء . فلماذا لا نأخذ في حسابنا ، رغم الآراء المضادة ، أن هنالك قصة ايطالية حديثة ؟ ويجب أن لا ننسى هنا أن هؤلاء الناس على استعداد لان يذرفوا دموع الحبر على الحالة التعيسة للآداب الوطنية » .

ان المجلة تخلط بين مشاكل من أنواع مختلفة ، فهنالك مشكلة عدم نشر ما يسمى بالادب الفني بين أفراد الشعب، وهناك مشكلة عدم وجود الادب « الشعبي » في ايطاليا ، مما يجعل الصحف « مضطرة » الى التزود بهذا الادب من الخارج . (طبعا ، لا شيء يمنع ، من الناحية النظرية ، امكانية وجود أدب شعبي فني ، والمثال الاكثر وضوحا هو النجاح « الشعبي » لكبار الروائيين الروس حتى اليوم . ولكن ليس هنالك ، في الواقع ، شعبية للادب الفني ، ولا هنالك انتاج محلي لادب « شعبي » نظرا لغياب وحدةمفهوم العالم بين « الكتاب » و « الشعب » . أي أن الكتاب لا يعيشون العواطف والمشاعر الشعبية وكأنها تخصهم ، وليست لهم وظيفة « التربية الوطنية » ، أي أنهم لم يطرحوا على أنفسهم ، ولا يطرحون اليوم ، مهمة معالجة المشاعر الشعبية بعد أن يعيشوها وتصبح جزءا منهم) . مجلة « كريتيكا » لا تحاول ان تطرح على نفسها هذه المشاكل ، ولا تعرف استنباط النتائج « الواقعية » من انه اذا كانت روايات مئة عام خلت ما زالت تعجب القراء فهذا يعني أن ذوق وايديولوجيات الشعب هي هي كما كانت عليه قبل مئة عام . أن الصحف عبارة عن مؤسسات سياسية تمويلية وهي لا تأخذ على عاتقها نشر الآداب الجميلة « في أعمدتها» اذا كانت هذه الآداب الجميلة ستزيد من عدد النسخ المرتجعة . أن قصص الملاحق هي من وسائل الانتشار بين الطبقات الشعبية (لنذكر مثال صحيفة « ال لافورو » ، أي

« العمل » ، الصادرة في مدينة جنوة بادارة جوفاني آنسالدي (٤) ، التي أعادت نشر كل أدب الملاحق الفرنسي، في نفس الوقت الذي كانت فيه الصحيفة تحاول ، في صفحات أخرى ، اعطاء أفضل النماذج الادبية المصقولة) ، وهي تعني النجاح السياسي والنجاح المالي للصحيفة . ولذلك ، فان الصحيفة تبحث عن تلك الروايات ، تلك الروايات التي تعجب الشعب « حتما » ، والتي تؤمن للصحيفة زبائن « دائمين » . ان الانسان الذي هو من الشعب يشتري صحيفة واحدة ، اذا اشترى . واختيار الصحيفة غالبا ما لا يكون اختيارا شخصيا بل اختيار مجموع العائلة ، وللنساء وزن كبير في الاختيار وهن يبدين اصرارا على « الرواية الجميلة المثيرة للاهتمام » (هذا لا يعني أن الرجال لا يقرأون الرواية هم أيضا ، ولكن المؤكد هو أن النساء يهتممن بشكل خاص بالرواية وبالاحداث المنوعة) . وهذا هو السبب في أن الصحف السياسية البحتة ، أو صحف الرأي ، لا تصل الى التوزيع الواسع النطاق (باستثناء فترات الصراع السياسي الحاد) ، هذه الصحف كان يشتريها الشباب ، والرجال والنساء الذين ليست لهم مشاكل عائلية هامة ويهتمون كثيرا بانتصار آرائهم السياسية ، وعدد قليل من العائلات المتماسكة من حيث الآراء والافكار . وبشكل عام ، فان قراء الصحيفة ليسوا عادة من رأي الصحيفة التي يشترون ، أو أنهم يتأثرون بها قليلا ، ولهذا يجدر بالانسان دراسة حالة

---

(٤) Giovanni Ansaldo ، صحفي ، كان اشتراكيا في البداية ورئيسا لتحرير صحيفة « ال لافورو » ، ثم انتمى الى الفاشية وأصبح داعية نشطا لها .

صحيفة « ال سيكولو » (٥) . أو « القرن » ، وصحيفة « ال لافورو » ، من الناحية التقنية الصحفية ، هاتان الصحيفتان كانتا تنشران حتى ثلاث روايات مسلسلة لتحقيق طباعة عدد كبير من النسخ بشكل دائم (ان « الرواية المسلسلة » ، بالنسبة لكثير من القراء ، هي مثل «الادب» الرفيع لدى الاشخاص المثقفين ، فمعرفة « الرواية » التي تنشرها صحيفة « لاستامبا » ، مثلا ، كان أشبه بواحد من « الواجبات الاجتماعية » التي تستثير الحديث أمام باب العمارة أو في فنائها ، وكل حلقة جديدة في المسلسلة كانت تفسح المجال أمام « أحاديث ونقاشات » يبرز فيها الحدس النفسي والقدرة المنطقية عند الاشخاص « المتميزين احتراما » .. الخ . ويمكن التأكيد بأن قراء قصص الملاحق المسلسلة يهتمون بمؤلفيهم ويتحمسون لهم باخلاص وصدق ومشاعر انسانية حية اكثر بكثير مما تهتم صالونات من يسمون بالمثقفين بروايات دانونزيو (٦) أو أعمال بيراندیلو) (٧) .

ولكن المشكلة الاكثر اثارة للاهتمام هي التالية : لماذا تضطر الصحف الايطالية في عام ١٩٣٠ ، اذا أرادت توسيع انتشارها (أو المحافظة عليه) ، الى نشر الروايات المسلسلة للملاحق الصادرة منذ قرن (أو تلك الحديثة من نفس النوع)؟

---

(٥) صحيفة يومية كانت تصدر في ميلانو ذات اتجاه ديمقراطي ليبرالي ، كانت ذات انتشار واسع في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي .

(٦) Gabiele Dannunzio (١٨٦٣ ـ ١٩٣٨) أشهر روائيي ايطاليا وسيطر على ثقافتها لاكثر من ثلاثين سنة .

(٧) راجع الهامش رقم (٦٥) في المقال السابق « مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا » .

ولماذا ليس في ايطاليا أدب « وطني » من هذا النوع رغم أنه يعطي دخلا ماديا جيدا ؟ من الجدير بالملاحظة أن كلمتي « وطني » و « شعبي » في لغات عديدة هما مترادفان أو ما يقرب من ذلك (هكذا هو الامر باللغة الروسية ، وكذلك بالالمانية حيث تحمل كلمة Volkisch معنى أكثر عمقا عنصري الطابع ، وكذلك باللغات السلافية ..) . في ايطاليا ، تحمل كلمة « وطني » معنى غاية في الضيق من الناحية الايديولوجية ، وهو — على كل حال — لا ينطبق على كلمة « شعبي » ، لان المفكرين في ايطاليا بعيدين عن الشعب ، أي عن « الامة » ، وهم يرتبطون بتقاليد فئوية لم يحصل أبدا أن حطمتها أية حركة سياسية شعبية أو وطنية قوية من الاسفل ، هذه التقاليد ذات طابع « كتبي » ومجرد ، والمثقف النموذجي الحديث يشعر نفسه أكثر ارتباطا بآنيبال كارو أو بايبوليتو بينديمونتي (٨) منه بفلاح مقاطعة بوليي أو جزيرة صقلية . لذلك فالاستعمال الدارج في ايطاليا لكلمة « وطني » يرتبط بهذه التقاليد الفكرية والكتبية ، ومن هنا جاءت السهولة الغبية ، والخطيرة ، في الصاق صفة « اللاوطنية » بكل من لا يحمل هذا المفهوم الاثري والمهتريء لمصالح البلد .

ماذا تعني حقيقة كون الشعب الايطالي يفضل قراءة الكتاب الاجانب ؟ انها تعني أن الشعب الايطالي **يخضع** للهيمنة الفكرية والوجدانية للمفكرين الاجانب ، وانه يشعر بارتباطه بالمفكرين الاجانب أكثر من ارتباطه باولئك « المحليين » . وهذا يعني أن ليس في البلد كتلة وطنية

---

(٨) Annibad Caro (١٥٠٧ ـ ١٥٦٦) اديب قديم مصقول ومرهف الحس الشعري ، و Ippolito Pindemonte (١٧٥٣ ـ ١٨٢٨) شاعر من مرحلة ما قبل الرومانسية .

فكرية ووجدانية ، هرمية كانت ام مساواتية . المفكرون لا يخرجون من صفوف الشعب ، وحتى اذا كان بعضهم — بالصدفة — من أصل شعبي فهم لا يشعرون بارتباطهم به (بغض النظر عن الكلام البلاغي) ، وهم لا يعرفون ولا يشعرون بالحاجات والطموحات والمشاعر السائدة في صفوف الشعب . هم ، بالنسبة للشعب، شيء منفصل قائم بذاته ، معلق في الهواء ، انهم فئة مختارة ، أي أنهم غير متداخلين معه بوظائف عضوية .

ويجب تعميم هذه المسألة على مجموع الثقافة الوطنية الشعبية وعدم قصرها على الادب الروائي فقط ، اذ أن الشيء نفسه يمكن أن يقال فيما يتعلق بالمسرح ، وبالادب العلمي عامة (علوم الطبيعة والتاريخ .. الخ) . لماذا لا يظهر في ايطاليا كتاب مثل فلاماريون (٩) ؟ لماذا لم يولد في ايطاليا أدب النشر العلمي كما في فرنسا وفي بلدان أخرى؟ هذه الكتب الاجنبية المترجمة تكثر قراءتها والبحث عنها وغالبا ما تعرف نجاحا كبيرا . كل هذا يعني ان كل « الطبقة المثقفة » ، بنشاطها الفكري ، تبقى منفصلة عن الشعب — الامة ، لا لان الشعب — الامة لم يبد ، وليس يبدي ، اهتماما بهذا النشاط على مختلف مستوياته ، من أدناها (الروايات المسلسلة) الى أعلاها ، فهو يبحث عن الكتب الاجنبية خصيصا ، بل لان العنصر الفكري المحلي أكثر أجنبية من الاجنبي بالنسبة للشعب — الامة . والمسألة ليست وليدة اليوم ، فهي مطروحة منذ تأسيس الدولة الايطالية ، ولوجودها السابق وثيقة تشرح تأخر التشكل

---

(٩) Camillo Flamarion (١٨٤٢ — ١٩٢٥) فلكي فرنسي اشتهر بنشره الاعمال العلمية وحازت مؤلفاته شعبية واسعة في ايطاليا ايضا .

السياسي الوطني الوحدوي لشبه الجزيرة ، هو كتاب روجيرو بونغي (١٠) حول لا شعبية الادب الايطالي .مسألة اللغة ايضا مطروحة منذ تأسيس الدولة الايطالية،ووجودها سابق للوجود الفكري والوجداني للامة وللدولة ، وهي مسألة وحدة اللغة . ولكن وحدة اللغة هي أحد المظاهر الخارجية ، وليس الضرورية بالمطلق ، لوحدة الامة ، وهي — على كل حال — نتيجة وليست سببا .

لقد فشل العلمانيون(١١)في مهمتهم التاريخية كمربين ومعالجين للفكرية والضمير الوجداني للشعب — الامة ، فلم يعرفوا ارضاء الحاجات الفكرية للشعب ، وبالتحديد لانهم لم يمثلوا الثقافة العلمانية من حيث انهم لم يعرفوا معالجة ووضع « انسانية » حديثة قادرة على الانتشار والوصول حتى الى الشرائح الاكثر فجاجة وغير المثقفة ، وهو ما كان ضروريا من وجهة النظر الوطنية،وذلك لانهم بقوا مرتبطين بعالم مغرق في القدم ، منحط ، مجرد غاية في الفردية والفئوية . الادب الشعبي الفرنسي الذي هو الاكثر انتشارا في ايطاليا ، على العكس من ذلك ، مثل ، بدرجات مختلفة وبطريقة يمكن ان تكون لطيفة ، هذه الانسانية الحديثة ، وهذه العلمانية ، الحديثة على طريقتها الخاصة . ولكن ، اذا كان العلمانيون قد فشلوا ، فالكاثوليك لم يكونوا اوفر حظا في النجاح . ويجب الا نخدع بالانتشار

---

(١٠) Ruggero Bonchgi (١٨٢٦ — ١٨٩٥) رجل سياسة وكاتب ، أصبح وزيرا للتعليم ، الكتاب المشار اليه هو : « لماذا ليس الادب شعبيا في ايطاليا ؟ » .

(١١) غرامشي يشير بالكلمة هنا الى مجموع الثقافة البورجوازية الايطالية الحديثة التي كانت مهمتها التاريخية يجب ان تكون الوقوف في وجه الثقافة الكنسية وانتشار هذه الثقافة بين الجماهير الشعبية.

المتواضع الذي حققته بعض الكتب الكاثوليكية ، فهو ناجم عن التنظيم الواسع والقوي للكنيسة وليس عن القوة الداخلية الانتشارية ، فالكتب الكاثوليكية كانت توزع في الاحتفالات الرسمية وتقرأ كعقوبة وبفرضها فرضا ، او نتيجة لليأس .

ومن المدهش ان الكاثوليك لم يستطيعوا ان يقدموا في ميدان ادب المغامرة الا اعمالا رديئة ، مع انهم يضعون ايديهم على نبع لا ينضب من احداث الرحلات وحياة الحركة والمغامرة في اعمال البعثات التبشيرية . على العموم ، وحتى في فترة الرواج الاوسع للرواية الجغرافية المغامرة، بقي الادب الكاثوليكي في هذا الميدان رديئا وغير قابل للمقارنة بذاك العلماني الفرنسي او الانكليزي او الالماني ، وحوادث الكاردينال مامسايا (١٢) في الآبيسنين هو الكتاب الكاثوليكي الافضل الذي ظهر في هذا الميدان ، كما كان هنالك الغزو الذي حققته كتب اوغو ميوني (١٣) (الاب اليسوعي السابق) ذات المستوى المتدني جدا . في مجال الادب الشعبي العلمي ايضا لم يقدم الكاثوليك الا القليل جدا رغم عظمة فلكييهم ، مثل الاب سيكي (١٤) (اليسوعي) ورغم ان الفلك هو العلم الذي يثير اكبر اهتمام عند الشعب . كل هذا الادب الكاثوليكي مشرب بالدفاع عن اليسوعية ويتسم بالرداءة الفجة . ان عدم كفاءة المفكرين

---

(١٢) الاب Guglielmo Massaja (١٨٠٩ ـ ١٨٨٦) قام برحلات جديدة الى افريقيا وخاصة في اثيوبيا حيث اقام سنوات عدة، وخلف وراءه مذكرات مطولة عن هذه الرحلات .

(١٣) Ugo Mioni مؤلف معروف لقصص المغامرات .

(١٤) Padre Socchi ١٨١٨ ـ ١٨٧٨) ، يسوعي ، فلكي شهير ، ومؤلف الكتاب معروف عن الشمس . اكتشف اقنية المريخ .

الكاثوليك ونجاحهم المحدود هو احد الادلة الاكثر تعبيرا عن الانشطار الداخلي القائم بين الدين والشعب ، فهذا الاخير يجد نفسه في حالة تعيسة من اللامبالاة ومن الغياب الكلي عن الحياة الروحية الحية ، في حين ان الدين بقي في حالة التطير والغيبيات . ومع ذلك لم تحل محله وجدانية علمانية وانسانية جديدة نتيجة لعجز المفكرين العلمانيين (الدين لم يستبدل ولا هو تطور وتطبع وطنيا كما في بلدان اخرى ، كاليسوعية نفسها في اميركا مثلا . فايطاليا الشعبية مازالت تعيش الاجواء التي وجدت في المرحلة التي تبعت فورا الحركة المضادة للاصلاح . وفي افضل الحالات اختلط الدين بالفلوكلور الوثني وبقي يعيش هذه الحالة) (١٥) .

---

(١٥) الاهتمام الذي ركزه غرامشي في «الدفاتر» على ادب المسلسلات والملاحق يمكن ان ينعكس اليوم على العروض الجماهيرية (السينما ، التلفزيون) التي حلت في العالم الشعبي محل القصة والرواية المسلسلة. ولا شك ان الميزان عندئذ سيكون مختلفا بعد ان حققت ايطاليا ما بعد الحرب السينما الوطنية ــ الشعبية التي انتشرت في انحاء العالم كما حصل سابقا للادب الشعبي الفرنسي والروسي . ولم يكن هذا محض صدفة، بل نتيجة للدفعة القوية الى الامام التي حققتها الجماهير الشعبية في نضالها ضد الفاشية وفي حرب التحرير . وليس محض صدفة ايضا . وهذا يؤيد تحليل غرامشي ، ان تحاول الطبقات السائدة خنق السينما ، ومازالت تحاول ، وخنق كل الظاهرات الفنية الواقعية ، اي ظاهرات البحث عن فن وطني شعبي قادر على القيام بوظيفة التوحيد الثقافي بالمعنى الحديث ، وهي الوظيفة التي تخلت عنها البورجوازية الايطالية منذ زمن ليس بالقصير.

الفهرس

صفحة

- ضد التشاؤم ٣
- الحزب السياسي ١٣
- التوقع والمنظور ٢٩
- مشاكل القيادة السياسية ٤٧
- مظاهر صراع الطبقات في ايطاليا ٦١
- بعض موضوعات المسألة الجنوبية ١١٥
- تشكل المفكرين ١٥٧
- تنظيم المدرسة والثقافة ١٧٥
- في البحث عن المبدأ التربوي ١٨٧
- بعض نقاط العلام الاساسية ٢٠٣
- مسائل فلسفية وتاريخية ٢٢٩
- الفن والثقافة ٢٤٧
- حول المفهوم الوطني — الشعبي ٢٦٩

مطابع الامل — بيروت

٢٠ \ آذار \ ١٩٧٨

الثمن : ٩ ل.ل. أو ما يعادلها